سلسلة العقائد
(١)

حقيقة الإيمان

الجزء الأول

تأليف
أبو حفص
عمر بن عبد العزيز قريشي
كلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

دار الصحوة

الطبعة الرابعة
مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٣٦٥ / ٩٤

دار الهدى
نشر • توزيع
٢٣٢ شارع الملك فيصل - التعاون - الهرم ت : ٣٨٣٧٧٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد ...

فإنه لما كانت العقيدة الإسلامية من الأهمية بمكان ، فهي بمنزلة الأساس من البيت، كما هي بمنزلة الرأس من الجسد، ولما كان الكثير من كتب العقيدة كتب بأسلوب يتلائم مع عصره الذى كتب فيه والذى لا يتناسب مع مستوى طالب العلم في عصرنا، هذا وقد استخرت الله تعالى فى تيسير مادة العقيدة لطلاب العلم والدعاة إلى الله تعالى، بجمعها وتحقيقها والتركيز على أهم ما فيها بما يتناسب مع عقيدة السلف الصالح، بعيدا عن السفسطة والفلسفة والجدل وعلم الكلام،

فكان هذا الكتاب الأول «حقيقة الإيمان» فى الجزء الأول منه حول معنى الإيمان وصلته بالإسلام، وماهية العقيدة الإسلامية، ومعنى الشهادتين، وحول الركيزة الأولى من ركائز الإيمان. ألا وهي «الإيمان بالله» وما يرتبط بذلك من قضية الوجود، والتوحيد، والكمال، وما يتفرع عن هذه القضايا الرئيسية التى هى جوهر كلمة التوحيد، وما أثير من شبهات حول الوجود، والتوحيد، والكمال.

وذلك بأسلوب ميسور يفهمه الكبير والصغير، والمتعلم والعاميٍّ، حتى ينصهر الجميع فى بوتقة الإيمان، ويصل إلى حقيقة الإيمان، ويستظل الكل تحت مظلة التوحيد، وحتى تتمكن العقيدة من القلوب، ولعلها تأخذ بيد الجميع إلى فهم العقيدة الإسلامية، كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة بفهم السلف الصالح، هذا وسيكون لهذا الكتاب - إن شاء الله تعالى - جزء ثانٍ. مشتملا على بقية ركائز الإيمان.

وإذا كان «حقيقة الإيمان» مشتملا على ركائز الإيمان، ومبينا لمعالم العقيدة الصحيحة، فقد أتبعته بكتابين، بينت فيها لونين من الزيغ عن العقيدة الصحيحة، مال أحدهما إلى الإفراط والتعصب، فكان كتاب «شبهات التكفير» ومال الآخر إلى التفريط والتسيب، فكان كتاب «شبهات التصوف».

ولقد حاولت بفضل الله تعالى أن أخرج هذه السلسلة فى العقيدة، لنضع النقاط على الحروف، ونتبين الحق من الباطل، والإيمان من الكفر بمنطق وسطية الإسلام بعيدا عن الإفراط والتفريط من أجل أن تتحد الأمة على كلمة سواء، ومن أجل توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، وعلى هذا الأساس المتين نضع اللبنات ونبنى البناء على طريق الدعوة والنصر للإسلام والعزة للمسلمين.

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾(1)

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾(2).

سائلا الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يغفر الزلات ويتجاوز عن السيئات، إنه سبحانه مجيب الدعوات.

كتبه

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز

---

(١) سورة الروم: ٤، ٥ .

(٢) سورة الشعراء: ٢٢٧ .

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الكائنات، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ما دامت الأرض والسموات، أما بعد فهذه الطبعة الرابعة من كتابنا «حقيقة الإيمان» فى ثوبه الجديد، بعد أن انضم جزءه الأول إلى الثانى فى مجلد واحد، لتعميم النفع به - بإذن الله تعالى.

والحق يقال أنه أمام إلحاح طلاب العلم وكذا الطالبات، لهذا الكتاب، نحن نلبى رغبة الجميع فى طبع الكتاب مرة أخري، بعد أن وضحت فائدة الكتاب، وسهولة أسلوبه ويسرية عرضه، وشهد كل من قرأ الكتاب من أهل العلم بأنه - بفضل الله - أيسر ما كتب فى العقيدة، وأصح ما جاء فيها، خاصة فى الجانب الذى تناوله الكتاب، والذى هو ركائز الإيمان، ونأمل من الله عز وجل أن ينفع به كل من قرأه أو اقتناه، وأن ينشره فى العالمين، وأن يجعله فى ميزان الحسنات، ونشكر كل من ساهم فى طبعه ونشره، كما نرجو دعوة مخلصة من كل من قرأ الكتاب لمؤلفه بما يفتح الله به عليه.

وكذا لا نحرم نصيحة صادقة إذا ظهر فى الكتاب لبس أو غموض أو خطأ. فهو عمل بشرى يعتريه القصور والتقصير، ورحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

عمر بن عبد العزيز قريشي

الأستاذ بجامعة الأزهر

تقريظ

لكتاب حقيقة الإيمان

نظمه الشيخ/ أحمد بن محمد محمود بن أحمد يور الرباني الموريتاني

يا مَن يريد حـقـيـقـة الإيمان   راجعْ كتاب «حـقـيـقـة الإيمان»

راجـعْـهُ تَلف عـقـيـدة القرآن في   طيَّـاته وعـقـيـدة العـدناني

راجـعـه تلف عـقـيـدة قد بُسِّطتْ   وتُعُـهِّـدتْ بالشـرح والتـبـيـان

نَبـذَتْ إلى أهـل الكلام كـلامـهم   ورمت به في سلة النـسـيـان

قطعتْ لسـان المنطقي فلم يَعُـدْ   للمنطقي من منطق بلسـان

وأزالت الأدران والشـبـه التي   يوحي بهـا الشـيطانُ للإنسـان

فرعَى الإله بنان شـيخ حـررَّت   ذاك الكتـاب وحـاطهـا بأمـان

يا طالب العلم الصـحـيح اهنأ بما   أسدى إليك الشيخ من إحسـان

قـد ضمَّن الجـزءين علمـا وافـرا   لله مـا قـد ضمَّـهُ الجـزءان

فاهنأ أبا حـفص بما قـدَّمـتـه   وإليك ألف بشـارة وتهـاني

مقدمات فى العقيدة

(أ) ما معنى العقيدة

العقيدة : هى مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة ، يعقد عليها الإنسان قلبه ويثنى عليها صدره جازما بصحتها ، قاطعا بوجوبها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً .

(ب) ما محتويات العقيدة

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به وقدرته عليه أو لقائه بعد موته ونهاية حياته ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعلمه غير الإضطرارى كاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه عن طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه ، وتتهذب بها مشاعره ، وتكمل بها أخلاقه ، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة .

وكاعتقاده بغنى ربه تعالى ، وافتقاره إليه فى كل شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها . فبالله تعالى حياته ، وعليه وحده توكله واعتماده ، إذ هو محط رجائه إذا طمع ، ومأمن خوفه إذا خاف ، بحبه يحب ، وببغضه يبغض .

هو مولاه الذى لا مولى له غيره ، ومعبوده الذى لا معبود له سواه ، لا يرى ربوبية غيره ، ولا يعتقد ألوهية سواه .

إنها تشتمل بإيجاز على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره .

إنها تتلخص فى كلمة التوحيد - أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله قولا وفقها واعتقادا وعملا بأركانها ، وشروطها ، وواجباتها ، ومعناها .

(جـ) ما حاجة الإنسان إلى العقيدة

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة يكذبها الواقع ، ويبطلها تاريخ البشرية الطويل إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان وفى أى ظروف وجد ، وعلى اختلاف أحواله وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبداً. وسواء كانت العقيدة حقا أو باطلاً ، صحيحة أو فاسدة ، حتى أولئك الذين يَدَّعُونَ اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التدين ، وأن الإنسان فى عصر الذرة وغزو الفضاء لم يصبح فى حاجة إلى الإيمان بالله تعالى ، وبالغوا فى الكفر والإنكار ، وقالوا : إن الإنسان فى الظروف الصعبة التى كان يعيشها والمخاوف التى تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون إذ هو يخاف المرض ويخاف الفقر ويخاف الرعد والبرق والفيضان والسيول والعواصف والزلازل وحتى الحيوانات ، اضطر لأجل ذلك إلى الإيمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تعجز، وسلطان لا يغلب أويقهر . سماها إلها يفزع إليها عند الشدائد ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور ويقيه من المهالك ، لهذا قالوا : إن الإنسان هو الذى خلق الإله ، وليس الإله هو الذى خلق الإنسان وهو قول مضحك ، وجهل فاضح ، وكفر صريح ، وكذب ممقوت ، ومغالطة مكشوفة ، وسخف عقول لا حد له .

إن الإنسان دائما فى حاجة إلى الإيمان والتدين والعقيدة ، وإن الدين ضرورة من ضرورات حياته ، وحاجة من حاجات نفسه ، فلا غنى له عن الإيمان بربه وعن عبادته بحال من الأحوال ، ومن هنا لم تخل أمة وجدت على وجه الأرض ، ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين ، ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1]

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ .

والمراد من النذير نبى أو رسول أو عالم وارث لعلم النبوة ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله وبكتبه ورسله وشرائعه ، ويحذرها من نتائج الشرك بربها والمعصية له ولرسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم والشر والفساد .

ولقد قال " بازماك " - المؤرخ الإغريقى مقررا الحقيقة هذه التى ذكرها القرآن الكريم :« قد وجدت فى التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد » ومن هنا تتجلى ضرورة الدين للإنسان لأنه منذ وجد على هذه الأرض وهو فى حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى قوانين ضابطة تعدل من غرائزه وتنظم سلوكه وتحدد اتجاهاته وتهيئه للكمال الذى خلق مستعدا له فى كلتى حياتيه. الأولى هذه يقضيها قصيرة على هذه الأرض ، والثانية التى تتم له فى عالم غير هذا العالم الأرضى الهابط ، وإنما فى عالم الطهر والصفاء فى الملكوت الأعلى ، كما أخبر بذلك ربه بواسطة كتبه التى أنزلها ، وأنبيائه الذين أرسلهم .

ولا يستطيع أحد أن يضع له هذه القوانين غير الله الذى خلقه وعلمه وكمله . والإنسان بفطرته يشعر بضعفه وحاجته إلى ربه فى إعانته وتوفيقه ورعايته وحفظه،ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه والتعرف إليه بما يجب من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات،والإنسان بمواهبه وأفكاره ومشاعره وأحاسيسه يطلب دائما المزيد من السمو والرفعة فى ذلك حتى لا يريد أن يقف عند حد أبداً.فهو إذاً فى أحواله هذه التى ذكرها مفتقر إلى تشريع دينى إلهى يلائم فطرته وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراده الذين لا يستغنى عن التعاون معهم لتوفير أسباب حياته وبقائها صالحة فى هذا الوجود من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب . ويمده بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه وعن كيفية عبادته ودعائه وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته وإتيان محابه ، وترك مكارهه واجتناب مساخطه ، كما يمده بفيض علمى عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود وعلة الكون والحياة ، وأسباب السمو والكمال والهبوط والنقصان ، والتي تطرأ له فى حياته الأولى والآخرة .

وبناء على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهى صحيح أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء وغذاء وهواء ، ولا ينكر هذا أو يجادل فيه إلا معاند مكابر لا يؤبه لعناده ولا يلتفت إلى جداله .

كما أن دعوى العقل فى إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع ، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهى لم تغن عنها هداية العقول شيئا فضلت وهلكت كما قال الله فى القرآن :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وذلك لأن العقول لا تهدى إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياته ليأخذ به ، ولا إلى معرفة كل ما يغير الإنسان فى حياتيه كلتيهما ليتجنبه وينجو مما يضره إلا فى ضوء الشرع الإلهى ونور وحيه لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التى هى آله إبصار ، والعين قطعا لا تبصر مهما كانت سليمة وقوية إلا فى الضوء والنور ، ولا يمكنها أن ترى وتبصر في الظلام أبدا وفى أى حال من الأحوال .والعقل مثل العين سواء بسواء كما أن العين لا تبصر إلا فى الضوء والنور فإن العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهى ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله . ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه ويكابر فى شىءفيه من الخطأ والضلال والمكابرة ما فيه لكونه من المحسوس المشاهد .

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحى الإلهى الذى تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة السليمة من التحريف . والزيادة والنقص والتبديل كالدين الإسلامى مثلا دعوى باطلة قطعا ، ومن وجهين أيضاً :-

---

سورة الأحقاف الآية : ٢٦ .

الأول : أن ما عند الناس من بعض العلوم والمعارف والفنون والأخلاق والآداب إنما هو بدون شك مأخوذ من الوحى الإلهى إما بالنص اللفظى ، أو بالاستنباط ، وإنما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليلاً لا غير .

الثانى : أن العلم المادى مقصور على نفع الإنسان فى الجانب المادى منه وهو الجسم ومتطلباته ، وأما الجانب الروحى - وهو الأهم قطعا - فإن العلم المادي لم يخدمه فى شىء ولم يقدم له أى نفع البتة ، لأنه لم يكن روحيا مجانسا للروح فيقدم له ما هو فى حاجة إليه .

إن العلوم الإنسانية الخالية من الوحى الإلهى لم تعدُ الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط . كما قال تعالى :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾

فكيف إذا تستطيع أن تقدم أى خدمة للروح وهى لم تكسر حجاب المادة بعد ، ولم تعرف أى سر عن حقائق الكون وعلله .

إن العلم المادى قد يصل بالإنسان إلى غذاء البدن - لأنه من طين - ولا سبيل له إلى غذاء الروح لأنها من أمر الله . فلا غذاء لها إلا بوحى الله وشرعه .

وإن العلم المادي قد يبلغ مداه عن الدنيا لأنها مشاهدة ، ولا سبيل له إلى الآخرة لأنها غيب ، والعلم المادى يبلغ ذروته في المادة ولا سبيل له إلى ما وراء المادة إلا عن طريق الوحى ، وشىء آخر : أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة فى الكمال بعد أن قطعت شوطا بعيدا فى التطور والشمول في كل المجالات . ومع هذا الكمال فإن البشرية فى شقاء دائم ، ولم تخط يوما ما خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر . والواقع يشهد وهو خير شاهد . ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة والتسليم بها ، وهى أن الدين الحق ضرورى للإنسان لا غنى له عنه بحال من الأحوال وأن كمال الإنسان وسعادته متوقفان

(١) سورة الروم الآية ٧ .

عليه توقف المعلول على علته ، والسبب على سببه ، وليُعلَم أخيرا أن الدين الذى نعنى ضرورته للإنسان لتوقف سعادته وكماله عليه في الدنيا والآخرة إنما هو الدين الصحيح . الدين الذى شرعه الله وصحت نسبته إليه تعالى . أما الأديان الباطلة المفتراة كالبوذية والمجوسية ، والمحرفة المبدلة كاليهودية والنصرانية ، فإنها-وإن سميت أديانا-فإنها خالية من الوحى الإلهى الذى يمثل فيها شرعا إلهيا متكاملا يقدم للإنسان كل ما يحتاج إليه لإصلاح جسمه وروحه ، وإسعادها فى الدنيا والآخرة .

والدليل الواضح لذلك أن أوربا المتدينة بالنصرانية لم تتقدم حضاريا إلا بعد التمرد والكفر بالدين الذى كانت تعيش عليه زمنا طويلاً وهو يكبلها ويقيدها حتى قام رجال منها وحاربوه وخرجوا عن قيوده وكفروا بشرائعه ، وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال ، والانطلاق من الباطل .

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهى صحيح سليم ، فإنها واجدته قطعا - وبدون شك - فى الإسلام دين البشرية العام . الذى تضمنه كتابه « القرآن الكريم » . الذى لم ينقص منه حرف منذ أن نزل ولم يزد فيه آخر ولم تحرف فيه كلمة عن موضعها منه ، ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط . بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة عليه ، - بل يزيد . إن الدين الإسلامى هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم والخروج بها من محنتها المادية العاتية . التى سلبتها - أو كادت - كل معانى الآدمية الكريمة ، والانسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق ولا تقدير لها ولا احترام .

فإلى الإسلام يا عقلاء الناس . فإنه الدواء لدائكم ، والهداية لكم من ضلالتكم فأقبلوا عليه عقيدة وحكما ونظاما ، فإنه ينجيكم ويسعدكم .

" جربوا فإن التجربة أكبر برهان " (١)

فما هو الإسلام (٢)

١- كتاب : عقيدة المؤمن ص ١٩ : ٣١ بتصرف

٢- أنظر المبحث القادم

(د) ما معنى الإسلام ؟

والإسلام لغة الاستسلام والانقياد . والإسلام فى الشرع إظهار الخضوع وإظهار الشريعة ، والتزام ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه ، وما أحسن ما اختصر " ثعلب " ذلك فقال : الإسلام باللسان ، والإيمان بالقلب .

ويقال : فلان مسلم أى هوالمستسلم لأمر الله ، وهو المخلص لله العبادة . من قولهم : سلم الشىء لفلان أى خلصه ، وسلم له الشئ ، أى خلصه له ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » [1] قال الأزهرى : فمعناه أنه دخل فى باب السلامة حتى يسلم المؤمنون من بوائقه ، وفى الحديث : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) [2] وقوله تعالى :

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ [3]

فسره " ثعلب" فقال : كل نبى بعث بالإسلام ، غير أن الشرائع تختلف . وقوله عز وجل :

﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [4]

أراد مخلصين لك ، فعداه باللام إذ كان فى معناه . وقوله عز وجل:

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [5]

١- أخرجه البخارى : كتاب الإيمان ، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده جـ١ ، ص١١ ومسلم : كتاب الإيمان - باب بيان تفاضل الاسلام جـ١ ص٣٧ .

٢- أخرجه البخارى : كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم جـ١ ص٦٦ ، ومسلم : كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم جـ٤ ص١٩٨٦ .

٣- سورة المائدة الآية : ٤٤

٤- سورة البقرة الآية : ١٢٨

٥- سورة البقرة الآية : ٢٠٨

قال عنى به الإسلام وشرائعه كلها ، والسلم والإسلام والانقياد والاستسلام ، وأسلم أى دخل فى الإسلام ، وأسلم أمره لله أى دخل فى السلم وهوالاستسلام وأسلم من الإسلام ، وأسلمه أى خذله [1] .

والاسلام هو دين الله تعالى ، كما قال فى كتابه الكريم :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [2]

ومن ثم أرسل به جميع أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام - من آدم عليه السلام ، حتى كانت الرسالة الخاتمة على يد النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد أكد القرآن هذا المعنى وأشار إليه بذكر نماذج له :

فأول الرسل نوح عليه السلام - وقد قال الله عز وجل عنه :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [3]

وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قال عنه القرآن أيضا :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4]

١- لسان العرب جـ٣ ص٢٠٧٧ - ٢٠٨١ بتصرف ٢- سورة آل عمران الآية : ١٩

٣- سورة يونس الآية : ٧١ ، ٧٢ ٤- سورة البقرة الآية : ١٣٠ ، ١٣١

وقال عنه :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]

وتحدث عنه مع ابنه الأكبر اسماعيل ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2]

وعن بقية أبنائه فقال :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[3]

وعن الحفيد يوسف - الكريم - عليه السلام ، قال تعالى :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4]

١- سورة آل عمران الآية : ٦٧ . ٢- سورة البقرة الآية : ١٢٧ ، ١٢٨

٣- سورة البقرة الآية : ١٣٢ ، ١٣٣ ٤- سورة يوسف الآية : ١٠١

وعن الكليم " موسى عليه السلام " قال تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ (1)

وقال عن أتباعه فى مواجهة فرعون بعد إيمانهم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ (2)

وقال عن " سليمان عليه السلام " وهو يدعو إلي الإسلام :

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ (3)

فلما أسلمت ملكة بلقيس قالت :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (4)

وهذا سيدنا "عيسى" عليه السلام ، كان مسلما ودعا إلى الإسلام فقال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٥١ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ
ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (5)

كما قال عنهم أيضاً :

﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي
وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ (6)

1- سورة يونس الآية : ٨٤ 2- سورة الأعراف الآية : ١٢٦ 3- سورة النمل الآية : ٣٠ ، ٣١
4- سورة النمل الآية : ٤٤ 5- سورة آل عمران الآية ٥١ ، ٥٢ 6- سورة المائدة الآية ١١١

وعن أنبياء بنى إسرائيل قال تعالى فى معرض الحديث عن التوراة :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ (١)

كما قال عن جميع الأنبياء مجملا :

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢)

ثم تحدث القرآن عن خاتم الأنبياء والرسل . فجعله أولهم وإن كان آخرهم زمانا فقال عنه :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣)

به تمت النعمة واكتمل الدين الذى رضيه الله لخلقه فقال تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (٤)

فكانت الرسالات السابقة تمهيداً للرساله الخاتمة ، اتحدت معها فى العقيدة والأصول

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٥)

١- سورة المائدة الآية : ٤٤

٢- سورة البقرة الآية : ١٣٦

٣- سورة الأنعام الآية : ١٦٢ ، ١٦٣

٤- سورة المائدة الآية : ٣

٥- سورة الأنبياء الآية ٠ ٢٥

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ (١)

وإن اختلفت الشرائع والمناهج لاختلاف الأزمنة والأمكنة والمدارك والعقول ، وذلك لحكمة العليم الخبير :

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ (٢)

ولذلك فالدين هو الإسلام ، لا بديل عنه ولا مفر منه :

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ﴾ (٣)

وهذا الدين (الإسلام) هو الفطرة كما قال تعالى :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) (٥)

وهو النور من رب العالمين كما قال تعالى :

﴿اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٦)

١- سورة الشورى الآية : ١٣ ٢- سورة المائدة الآية : ٤٨ ٣- سورة آل عمران الآية : ٨٥
٤- سورة الروم الآية : ٣٠ ٥- أخرجه الشيخان : البخارى ، كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا يعلمون جـ٧ ص ٢١١ ومسلم : كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة جـ٢ ص ٢٥٨
٦- سورة البقرة الآية : ٢٥٧

ولذا كتب الله له الخلود والبقاء وإن رغم أنف الأعداء قال تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١)

وبعد ، فلقد عرف الإسلام ببنائه الشامخ وصرحه العظيم فى شمولية تامة وكمال وافٍ جميل ، هذا ونستطيع أن نشبه الإسلام بالبيت ، وكل بيت له أساس ، وأعمدة ، وبناء ، ومؤيدات .

فأساس الإسلام وقاعدته تتمثل فى عقيدته وتتلخص فى كلمة التوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) . ثم تأتى أعمدته الأربع والتى تمثل الزوايا والأركان متمثله فى :

الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج . ويطلق على هذه الخمس أركان الإسلام وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الإسلام قد بنى عليها فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بُنِىَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » (٢) .

فهذه أهم ما فى البيت يبنى عليها - لا فيها - ثم يأتى المهم وما دونه بعدها ، ولئن أجاب صلى الله عليه وسلم عن الإسلام بهذه الخمس - فى حديث جبريل فإنما يعنى أهم ما فيه وما يبنى عليه . كقوله صلى الله عليه وسلم "الحج عرفه" (٣) وليس الحج هو الوقوف بعرفات فقط . ثم يأتى دور البناء فما هى اللبنات التى يتكون منها ؟ .

١- سورة الصف الاية : ٨ ، ٩ ٢- أخرجه البخارى وغيره ٣- أخرجه البخارى

إنها حياة كاملة سطرها القرآن

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1]

وعاشها النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبينها

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]

سواء كانت حياة دينية أوسياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية أو تربوية أو تعليمية أو أخلاقية . فهى تشمل نظم الحياة .

ومع ذلك لم يكتمل البيت ولا يصلح للسكنى ، حتى تكون له مؤيدات كالباب والنافذة والسقف تكون بمثابة تمامه وكماله .

فالباب : هو الأمر بالمعروف . به يدعو الناس للدخول في هذا البيت .

والنافذة : هى النهى عن المنكر ، به يطرد السيئات والذنوب كما يطرد الذباب ، ويدفع الحر والقر .

والسقف : هو الجهاد فى سبيل الله ، فهو سنام الإسلام وأعلى ما فيه ، وبه يحفظ البيت من السرقة والسطو عليه . فيذل أهل البيت ، إذ بدون هذا السقف يغير اللصوص على البيت فيسرقون المتاع ، ثم يهدمون البنيان ، ويقوضون الأركان . حتى لا يبقى من البيت إلا أطلال وأعمدة متهدمة فقدت رونقها وجمالها وحكمتها ، وقاعدة فى باطن الأرض لا فائدة لها فوق الأرض ، لو أراد الأعداء نزعها لفعلوا ، ولكنهم تركوها لأن أصحاب البيت صاروا لا ينتفعون بها فى شىء إلا الاسم والملكية فقط ثم جلسوا تحت الأطلال يمدون أيديهم للصوص الذين سرقوهم يأخذون منهم الغذاء وينتظرون الدواء ويشترون منهم السلاح الذى به سيحاربونهم بعد . فتأمل !!

فهذا حال اسلامنا ، وذلك حال المسلمين .

١- سورة الأنعام الآية : ٣٨ ٢- سورة النحل الآية ٤٤

مفهوم الإيمان والكفر

* قضية الإيمان والكفر:هى أخطر القضايا الإنسانية عامة لأنها تتصل بعلاقة الإنسان بربه التى هى أهم العلاقات التى يرتبط بها الإنسان مع غيره . والأساس الذى يقوم عليه الإيمان والكفر هو الاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته التى لا يشاركه فيها أحد ، وعلى أساس هذا الاعتقاد تكون العقائد الأخرى .

يقول الله فى المهمة المشتركة التى أرسل من أجلها الرسل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)

ويقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٢)

وإذا كانت الأمم أو الدول أو الجماعات تقوم أكثر ما تقوم علي ما يسمى "بالأيديولوجيات" أى مجموعة العقائد والأفكار ، وعلى ضوئها تكون الصلة بينها قربا أو بعدا ، اتفاقا أو اختلافا ، سلما أو حربا . فإن هذا يبرز أهمية العقيدة ودور الإيمان فى هذا المجال .

ومن أجل هذا لابد أن يكون الحديث عن الإيمان والكفر حديثا دقيقا يعتمد على الأدلة والمنطق الصحيح وعلى وضوح الرؤية لكل مظهر من مظاهر القول والعمل يتصل بالعقيدة بوجه عام .

١- سورة الأنبياء، الآية : ٢٥

٢- سورة النحل الآية : ٣٦

مفهوم الإيمان

ما معنى الإيمان .

لتفهم مدلول كلمة ما وردت في القرآن أو السنة لابد من معرفة لمدلولها العربي أولا . ثم تتبع استعمال الشارع لها في أوضاعها المختلفة ولا يجوز بتاتا أن نجعل عرف الناس فى زمان ما أو مكان ما ، غير زمن التشريع حكما على اللفظ .

جاء فى لسان العرب : الإيمان ضد الكفر ، وهو بمعنى التصديق ، وضده التكذيب يقال آمن به قوم وكذب به قوم .

وحد الزجاج الإيمان فقال:الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم واعتقاده وتصديقه بالقلب فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله فى ذلك ريب ، وفى التنزيل العزيز

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾(1)

أى بمصدق .

والإيمان : التصديق .

وأما الإيمان فهو مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم على أن الإيمان معناه التصديق قال الله تعالى :

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن
قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ .... الآية ﴾(2)

قال وهذا موضع يحتاج الناس إلى تفهيمه ، وأين ينفصل المؤمن من المسلم ، وأين يستويان ؟

١- سورة يوسف الآية : ١٧ ٢- سورة الحجرات الآية : ١٤

وأين يستويان ؟

والإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد تصديق القلب فذلك الإيمان الذى يقال للموصوف به مؤمن مسلم وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه ، لا يدخله فى ذلك ريب فهو المؤمن وهو المسلم حقا كما قال الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾(1)

فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو فى الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق فذلك الذى يقول أسلمت لأن الإيمان لابد من أن يكون صاحبه صديقا ، لأن قوله آمنت بالله ، أو قال قائل آمنت بكذا أو كذا فمعناه صدقت .

فأخرج الله هؤلاء من الإيمان فقال : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ أى لم تصدقوا ، إنما أسلمتم تعوذا من القتل . فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر ، والمسلم التام الإسلام مظهر للطاعة مؤمن بها ، والمسلم الذى أظهر الإسلام تعوذا غير مؤمن فى الحقيقة إلا أن حكمه فى الظاهر حكم المسلمين ... الخ (2)

ويقول الحافظ ابن حجر : الإيمان لغة التصديق ، وشرعا . تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه . وهذا القدر متفق عليه ثم وقع الاختلاف : هل يشترط مع ذلك مزيد من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب إذ

1- سورة الحجرات الآية : 15 2- لسان العرب جـ1 / 141 ، 142

التصديق من أفعال القلوب ، أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المنهيات كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى [1]

إلى أن قال : والكلام هنا فى مقامين ، أحدهما كونه قولا وعملا . والثانى كونه يزيد وينقص ، فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقادات والعبادات . ومراد من أدخل ذلك فى تعريف الإيمان ومن نفاه إنما بالنظر إلى ما عند الله تعالى . فالسلف قالوا هو اعتقاد بالقلب ونطق اللسان وعمل بالأركان ، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط فى كماله ، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص . كما سيأتى . والمرجئة قالوا : هو اعتقاد ونطق فقط والكرامية قالوا : هو نطق فقط . والمعتزلة قالوا : هو العمل والنطق والاعتقاد . والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطا فى صحته ، والسلف جعلوها شرطا فى كماله .

وهذا كله - كما قلنا - بالنظر إلى ما عند الله تعالى . أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط . فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق ، فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى أنه فعل الكافر، ومن نفاه فبالنظر إلى الحقيقة . وأثبتت المعتزلة الواسطة فقالوا : الفاسق لا مؤمن ولا كافر .

وأما المقام الثانى : فذهب السلف إلى أن الإيمان يزيد وينقص . وأنكر ذلك أكثر المتكلمين وقالوا ،من قبلَ ذلك كان شكا ، بل قال بعضهم : إنه لا يقبل النقصان لأنه لو نقص لا يبقى إيمانا ولكن يقبل الزيادة لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [2]

ونحوها من الآيات .

١- كتاب فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ / ٩٢ ٢- سورة الأنفال الآية : ٢

قال الشيخ محيى الدين: والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة . ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا يعتريه الشبهة ، ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى إنه يكون فى بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلاً منه فى بعضها ، وكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

وهذا الذى نميل إليه فى هذا المقام .

بين الإيمان والإسلام

هل يسمي المؤمن بالمسلم ، والمسلم بالمؤمن ، وهل الإيمان والإسلام اسمان لمسمى واحد ، ومعنى واحد أو لمسميين ومعنيين مختلفين ؟

قال أبو محمد بن حزم : ذهب قوم إلى أن الإسلام والإيمان اسمان واقعان على معنيين ، وأنه قد يكون مسلم غير مؤمن ، واحتجوا بقول الله عز وجل

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن
قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ (١)

وبالحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له سعد هل لك يا رسول في فلان فإنه مؤمن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مسلم،(٢) وبالحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه جبريل فى صورة فتى غير معروف العين ، فسأله عن الإسلام فأجابه بأشياء فى جملتها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأعمال أخرى مذكوره فى ذلك الحديث .

١- سورة الحجرات الآية : ١٤ ٢- رواه مسلم

وسأله عن الإيمان فأجابه بأشياء من جملتها أن تؤمن بالله وملائكته ... [1]
وبحديث لا يصح ، من أن المرء يخرج عن الإيمان إلى الإسلام .

وذهب آخرون إلى أن الإيمان والإسلام لفظان مترادفان على معنى واحد ، واحتجوا بقول الله تعالى :

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [2]

وبقوله تعالى :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [3]

قال أبو محمد : والذى نقول به - وبالله تعالى التوفيق - أن الإيمان أصله فى اللغة التصديق على الصفة التى ذكرنا قبل . ثم أوقعه الله عز وجل فى الشريعة على جميع الطاعات واجتناب المعاصى إذا قصد بكل ذلك من عمل أو ترك وجه الله عز وجل ، وأن الإسلام أصله فى اللغة التبرؤ ، تقول : أسلمت أمر كذا إلى فلان إذا تبرأت إليه فسمى المسلم مسلما لأنه تبرأ من كل شىء إلى الله عز وجل. ثم نقل الله تعالى اسم الإسلام أيضا إلى جميع الطاعات،وأيضا فإن التبرؤ إلى الله من كل شىء هو معنى التصديق لأنه لا يبرأ الى الله تعالى من كل شىء حتى يصدق به فإذا أريد بالاسم المعنى الذى هو خلاف الكفر وخلاف الفسق فهو والإيمان شىء واحد كما قال تعالى :

﴿ قل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [4]

وقد يكون الإسلام أيضاً بمعنى الاستسلام أى أنه استسلم للملة خوف القتل وهو غير معتقد لها . فإذا أريد بالإسلام هذا المعنى فهو غير الإيمان وهو الذى

١- متفق عليه ٢- سورة الذاريات الآيات : (٣٥ ، ٣٦) ٣- سورة الحجرات الآية : ١٧

أرادالله تعالى بقوله :

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[1]

وبهذا تتألف النصوص المذكوره من القرآن والسنن وقد قال تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة »[3] فهذا هو الإسلام الذى هو الإيمان فصح أن الإسلام لفظه مشتركة كما ذكرنا . ا . هـ .[4]

ويوضح شيخ الإسلام " ابن تيمية " هذه المسألة في كتابه " الإيمان " .

فيقول : فى حديث جبريل جعل النبى صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات : أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان ويليها الإسلام ، فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسنا ولا كل مسلم مؤمنا ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله فى سائر الأحاديث ، ثم ذكر حديثا جاء فيه : أى الإسلام أفضل ؟ قال الإيمان ، قال ما الإيمان ؟ الحديث[5] ثم ذكر بعد ذلك مجموعة من الأحاديث على هذا النمط . ومجموعة من الآيات ذكر فيها اسم الإيمان مفردا ومقرونا باسم الإسلام ومقرونا بالأعمال الصالحة ، ومقرونا بملل سابقة . ثم قال فالمقصود هذا العموم ، والخصوص بالنسبة إلى ما فى الباطن والظاهر من الإيمان . وأما العموم بالنسبة إلى الملل فتلك مسألة أخرى . فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة . الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وجعل الإيمان ما فى القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فإذا ذكر اسم الإيمان مجردا دخل فيه الإسلام

---

١ - سورة الحجرات الآية : ١٤
٢ - سورة آل عمران الآية : ٨٥
٣ - حديث صحيح
٤ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج٣ ١٢٥ ١٢٦
٥- مسند الإمام أحمد ج٤/١١٤ وهو مخرج فى السلسلة الصحيحة

والأعمال الصالحة كقوله في حديث الشُعَب : "الإيمان بضع وسبعون درجة أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"[1] وكذلك سائر الأحاديث التى يجعل فيها أعمال البر من الإيمان [2] .

وإذا ذكر اسم الإسلام مجردا دخل فيه الإيمان ضمنا .

فهما اسمان إذا افترقا اجتمعا ، وإذا اجتمعا افترقا ، فعند اجتماعهما يكون معنى الإيمان هو التصديق الباطني ، ومعنى الإسلام هو الانقياد الظاهرى .أما عند تفرقهما وذكر أحدهما مفردا فإنه يقوم مقام الآخر من حيث معناه ولكن أيهما يسبق الآخر ؟ وأيهما أفضل من الآخر ؟ .

إن قلنا : إن الإيمان يسبق الإسلام فالآية تخالف ذلك

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾[3]

وإن قلنا : الإسلام يسبق الإيمان . فمعناه الامتثال الظاهرى بدون الانقياد القلبى فهو النفاق ، لإنه إظهار الإسلام مع عدم التصديق القلبى .

فيفصل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأمر فيقول : لا تصح الطاعة من أحد إلا مع الإيمان فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئا من الإسلام إلا وهو مؤمن ولو كان ذلك أدنى الطاعات أو فعل واحدة منها وذلك لا يصح كله إلا مع الإيمان .

فلابد وأن يسبق الإيمان الإسلام في صورته الأولى المتمثلة فى التصديق القلبى فيكون بمثابة الدخول على الطاعات والأعمال الصالحة والتشريعات الإسلامية فهذا يسمى " مطلق الإيمان " فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا وألزم الجسد بالقول الظاهر والعمل بأحكام الإسلام

١- متفق عليه ٢- كتاب الإيمان ص ٢ - ١١ باختصار ٣ - سورة الحجرات الآية : ١٤

وصل إلى درجة " الإيمان المطلق " أو " الإيمان الحق " . [1]

كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [2]

فهذا هو الإيمان المطلق الذى نفاه الله عز وجل عن الأعراب ، وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يثابون عليه أى مطلق الإيمان ، وهذا حال أكثر الداخلين فى الإسلام ابتداء ، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان ، إلى أن يصل إلى حقيقة الإيمان باجتهاده على نفسه فى الطاعات ويقينه الذى لا يعتريه شك ولا ارتياب مع المجاهده فى سبيل الله بالمال والنفس ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [3]

وهذا الإيمان أى المطلق لا شك أنه أفضل من الإسلام وهو بين الإسلام والإحسان ، وهذا هو الذى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية « كل مؤمن مسلم ، وكل محسن مؤمن ، وليس كل مسلم مؤمنا ، ولا كل مؤمن محسناً »

وهذا الإيمان هو الذى نفاه الله عز وجل عن الأعراب ، ونفاه النبى ﷺ عن الرجل في حديث سعد : هل لك يا رسول الله فى فلان فإنه مؤمن ... الحديث [4] واسم الإسلام يتناول أيضا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق ويتناول أصل الطاعات فإن ذلك كله استسلام .

١- كتاب الايمان : ١٥ ، ١٧٧ بمعناه
٢ - سورة الأنفال الآيات : (٢ - ٤)
٣- سورة الحجرات الآية ١٥
٤- أخرجه البخارى

قال : فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان أو أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا .

قال : فهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة فى الإيمان والإسلام التى طالما غلط فيها الخائضون وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم [1] .

والله أعلم بالصواب ا . هـ .

١- راجع كتاب " الإيمان " بتوسع

٢- مفهوم الكفر

الكفر فى اللغة معناه : الستر والتغطية . فالعرب تسمى الليل كافرا ، لأنه يستر الأشياء ويخفيها ، وتسمى الفلاح كافرا ، لأنه يغطى الحب فى التراب . ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ اَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾[1]

ومعنى الكفار هنا الزارع .

والكفر فى الشرع . نقيض الإيمان ،وهو إنكار شىء مما جاء به النبى ﷺ ووصل إلينا بطريق يقينى قاطع . ومن كفر بشىء مما يجب الإيمان به يسمي كافرا [2] والسبب فى تسمية الخارج عن الإيمان كافرا أنه يرى أدلة التوحيد وما يدعوه إلى الإيمان بربه عز وجل ثم يصر مستكبرا على باطله وكفره ، وانظر كلام الله تعالى عن إمام الكافرين فى الأرض " فرعون " الذى ترك الإيمان بالله جحودا ونكرانا لا جهلا قال تعالى على لسان موسى لفرعون :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[2]

أى لقد علمت يا فرعون أن الله تبارك وتعالى خالق السموات والأرض هو الذى أنزل ما شاهدته من الآيات كالعصا واليد لتبصر أنت وقومك ، وتعلموا أننى رسول من الله عز وجل . وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن قوم فرعون ، أنهم علموا الحق ولكنهم كذبوه وزاغوا عنه ، قال تعالى :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3]

١- سورة الحديد الآية : ٢٠ ٢- كتاب الكفر والمكفرات : ص٥

٣- سورة الإسراء الآية : ١٠٢ ٤- سورة النمل الآية : ١٤

أى تيقنت أنفسهم أن الآيات التى جاء بها موسى هى آيات الله حقا وصدقا ولكنهم جحدوا أى أنكروا وكابروا وردوا الحق عن علم وبصيرة وغيرها من الآيات [1].

* الكفر نوعان : كفر اعتقاد . وكفر عمل

والكفر فى لسان الشرع يطلق على معنين : أحدهما كفر عقيدة ، والآخر كفر عمل ، فكفر العقيدة عدم الإيمان بما يجب الإيمان به من وجود الله ووحدانيته وبما يجب له من صفات الكمال والجلال وبالعقائد الأخرى .

وكفر العمل كجحد المعروف وعدم شكره، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ [2]

وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى النساء « ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط ورأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بكفرهن " قيل " أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط [3] وأخطره جحد نعمة الله قال تعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [4]

وكذلك قوله تعالى - فى شأن سليمان عليه السلام لما أحضر له عرش ملكة سبأ - قال :

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [5]

١- كتاب الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص ٦٨ ، ٦٩ ٢- سورة الأنبياء الآية : ٩٤

٣- رواه مسلم ٤- سورة إبراهيم الآية : ٧ ٥- سورة النمل الآية : ٤٠ .

وقال القاسمى فى تفسيره حيثما وقع فى حديث من فعل كذا فقد أشرك أو فقد كفر ، لا يراد به الكفر المخرج من الملة ، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذى تجرى عليه أحكام الردة والعياذ بالله تعالى [1]

وقد قال البخارى : باب كفران العشير،وكفر دون كفر .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد .

فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء به من عند الله جحودا وعنادا من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه .

وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده .

فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبى وسبه يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة فهو من الكفر العملى قطعا ، ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه ، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر ، وتارك الصلاة كافر ، بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد . ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ، ويسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تارك الصلاة كافرا ، ولا يطلق عليهما اسم الكفر . وقد نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر وعمن لا يأمن جاره بوائقه وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » [2] فهذا كفر عمل .

١- كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف ص ١٣٨ ، ١٣٩

٢- رواه البخارى

وكذلك قوله « من أتى كاهنا فصدقه ، أو امرأة فى دبرها ، فقد كفر بما أنزل على محمد »[1] فهذا كفر عمل ، وقوله « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما »[2] .

وقد سمى الله سبحانه وتعالى من عمل ببعض كتابه وترك العمل ببعضه مؤمنا بما عمل به وكافرا بما ترك العمل به . فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ﴾[3]

إلى قوله

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4]

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذى أمرهم به والتزموه ، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضا ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، ثم أخبر أنهم عصوا أمره ، وقتل فريق منهم فريقا . وأخرجوهم من ديارهم ، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم فى الكتاب ، ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق ، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم فى الكتاب فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق . كافرين بما تركوه منه ، فالإيمان العملى يضاده الكفر العملى ، والإيمان الاعتقادى يضاده الكفر الاعتقادى ، وقد أعلن النبى صلى الله عليه وسلم بما قلناه فى قوله فى الحديث الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ففرق بين سبابه وقتاله ... وجعل أحدهما فسوقا لا يكفر به ، والآخر كفرا ، ومعلوم أنه إنما أراد الكفر العملى لا الاعتقادى . وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية ، كما لا يخرج الزانى والسارق وشارب الخمر من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان .

وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام

١- رواه البخارى ٢- رواه البخارى ٣- سورة البقرة الآية : ٨٤ ، ٨٥

وبالكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم ، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقا أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود فى النار . وفريقا جعلوهم مؤمنين كاملى الإيمان . فهؤلاء غلوا ، وهؤلاء جفوا ، وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذى هو في المذاهب كالإسلام فى الملل ، فها هنا كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق ، وشرك دون شرك ، وفسوق دون فسوق ، وظلم دون ظلم .

قال سفيان بن عيينة عن هشام عن طاووس عن ابن عباس فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾(1)

ليس هو بالكفر الذى يذهبون إليه ، وعنه أيضا قال : هو بهم كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقال فى رواية أخرى عنه : كفر لا ينقل عن الملة . وقال طاووس : ليس بكفر ينقل عن الملة . وقال عطاء كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، وهذا الذى قاله عطاء بَيِنٌ فى القرآن لمن فهمه . فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل كافراً ، وسمى جاحد ما أنزله على رسول الله كافراً . وليس الكافران على حد سواء .

وسمى الكافر ظالماً كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾(2)

وسمى متعدى حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالما فقال :

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾(3)

١- سورة المائدة الآية : ٤٤

٢- سورة البقرة الآية : ٢٥٤

٣- سورة الطلاق الآية : ١

وقال عن نبيه يونس : - كما جاء فى القرآن :

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

وقال صفيه آدم :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾[2]

وقال كليمه موسى :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي ﴾[3]

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم .

ويسمى الكافر فاسقا كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾[4]

﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[5]

وهذا كثير فى القرآن ، ويسمى المؤمن فاسقا كما في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[6]

نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط . وليس الفاسق كالفاسق . وقال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[7]

١- سورة الأنبياء الآية : ٨٧
٢- سورة الأعراف الآية : ٢٣
٣- سورة القصص الآية : ١٦
٤- سورة البقرة الآيات : ٢٦ ، ٢٧
٥- سورة البقرة الآية : ٩٩
٦- سورة الحجرات الآية : ٦
٧- سورة النور الآية : ٤

وقال عن إبليس :

﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[1]

وقال :

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾[2]

وليس الفسوق كالفسوق .

فالكفر كفران ، والظلم ظلمان ، والفسق فسقان ، وكذا ... الجهل جهلان : جهل كفر كما في قوله تعالى :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[3]

وجهل غير كفر كقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[4]

كذلك الشرك شركان : شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر ، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر ، وهو شرك العمل كالرياء .

وقال تعالى في الشرك الأكبر :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾[5]

١- سورة الكهف الآية : ٥٠ .
٢- سورة البقرة الآية : ١٩٧
٣- سورة الأعراف الآية : ١٩٩
٤- سورة النساء الآية : ١٧
٥- سورة المائدة الآية : ٧٢

وقال :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (١)

وقال فى شرك الرياء :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (٢)

ومن هذا الشرك الأصغر قوله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد أشرك » (٣) ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ولا يوجب له حكم الكفار .

ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » (٤) فانظر كيف انقسم الشرك والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة ، وإلى ما لا ينقل عنها .

وكذا النفاق نفاقان : نفاق اعتقاد ونفاق عمل : فنفاق الاعتقاد هو الذى أنكره الله على المنافقين فى القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار . ونفاق العمل كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » (٥) وفى الصحيح أيضا : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا ائتمن خان (٦) » فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان ، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال ، فإذا كملت فى

١- سورة الحج الآية : ٣١
٢- سورة الكهف الآية : ١١٠
٣- رواه أبو داود وغيره
٤- رواه أحمد
٥- رواه البخارى مسلم
٦- رواه البخارى مسلم

العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء فهذا لا يكون إلا منافقا خالصا ... ا - هـ [1].

* التكفير وخطورة الإسراع فيه

التكفير هو الحكم على الإنسان بالكفر، وهذا الحكم خطير لخطورة آثاره ولذلك نهى الإسلام عن التعجيل به ، وعن تقريره إلا بعد التأكد من وجود أسبابه تأكيدا ليس فيه أدنى شبهة . ولأن يخطئ الإنسان فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة ، والكافر إذا أفلت من عقوبة الدنيا فلن يفلت من عقوبة الآخرة . فينبغى أن يعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله فى الكفر لا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقوم عليه إلا ببرهان واضح أوضح من شمس النهار فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » [2] وفى الصحيح « من دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه » [3] أى رجع عليه .

ففى هذه الأحاديث وما شابهها أعظم زاجر عن الشروع فى التكفير ، قال الله عز وجل :

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [4]

فلابد من شرح الصدر بالكفر ولا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرك ولا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام ولا اعتبار بصدور فعل كفرى لم يرد به فاعله قصد الكفر أو الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر .

وذلك أن الإيمان والكفر محلهما القلب ولا يطلع على ما فى القلوب غير الله سبحانه . وليست كل القرائن الظاهرة تدل على ما فى القلب فأكثر دلالتها ظنية ، والإسلام نهى عن اتباع الظن فى أكثر من نص فى القرآن والسنة ،

١- كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص ٢٥ - ٢٨
٢- رواه البخارى
٣- رواه البخارى
٤- سورة النحل الآية : ١٠٦ .

وطلب الحجة والبرهان على الدعوى وبخاصة فى العقائد ، وتطبيقا لذلك نعى النبى صلى الله عليه وسلم على " أسامة بن زيد " قتله الرجل الذى ألقى إليه السلام وأمر بالتبين ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1]

فقد كرر فى الآية الأمر بالتبيين لأهميته ، ولم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم اعتذارا وقال له : « هلا شققت عن قلبه »[2] .

فينبغى أن يعلم أن الكافر الحقيقى قد انعقد قلبه على الكفر واقتنع به ولا شبهة له كما قال تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾[3]

أى اقتنع به واستراح له . فحتم على كل مسلم ألا يطلق كلمة الكفر إلا على من شرح به صدره .

وقال القرطبى فى تفسيره لسورة الحجرات: وليس قوله تعالى:

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[4]

بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما أن الكافر لا يكون مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره بالإجماع .[4] والذى ينبغى أن نؤصله هنا[5] أن الحكم بالكفر على إنسان ما ، حكم جد خطير ، لما يترتب عليه من آثار هى غاية فى الخطر ومنها : أنه لا يحل لزوجته البقاء معه، أو يجب أن يفرق بينها وبينه ،

١- سورة النساء الآية : ٩٤ . ٢- رواه البخاري ٣ - سورة النحل الآية : ١٠٦

٤- سورة الحجرات الآية : ٢ ٥- كتاب ظاهرة الغلوفى التكفير للقرضاوى

٦- نقلاً عن رسالة العذر بالجهل ص ٣ ، ٤

لأن المسلمة لا يصح أن تكون زوجة لكافر بالإجماع المتيقن .

- إن أولاده لا يجوز أن يبقوا تحت سلطانه لأنه لا يؤمن عليهم ويخشى أن يؤثر عليهم بكفره ، وبخاصة أن عودهم لين ، وهم أمانة فى عنق المجتمع الإسلامى كله .

- وأنه فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامى بعد أن مرق منه وخرج عليه بالكفر الصريح والردة البواح ، ولهذا يجب أن يقاطع ويفرض عليه حصار أدبى من المجتمع حتى يفيق لنفسه ويثوب إلى رشده ، وأنه يجب أن يحاكم أمام القضاء الإسلامى ، لينفذ فيه حكم المرتد بعد أن يستتيبه ويزيل من ذهنه الشبهات ويقيم عليه الحجة .

- وأنه إذا مات لا تجرى عليه أحكام المسلمين فلا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ولا يورث ، كما أنه لا يرث إذا مات مورث له .

- وأنه إذا مات على حاله من الكفر يستوجب لعنة الله وطرده من رحمته والخلود الأبدى فى نار جهنم . وهذه الأحكام الخطيرة توجب على من يتصدى للحكم بتكفير المسلم أن يتريث مرات ومرات قبل أن يقول ما يقول .

* وإذاً فليحذر الواهمون الذين يوزعون الكفر على المسلمين من غير بينة ويتهمونهم بالخروج على الإيمان من غير دليل سيما بعد أن شهدوا شهادة الحق ونطقوا بكلمة التوحيد .

كما يجب التفرقة بين كفر النوع والشخص المعين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:إن القول قد يكون كفرا فيطلق القول بتكفير صاحبه ويقال من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها ، وهذا كما فى نصوص

الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1]

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار ، لجواز أن لا يلحقه لفوات شرط أو ثبوت مانع ، فقد لا يكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم ، وقد يبتلى بمصائب تُكَفِّر ، وقد يشفع فيه شفيع مطاع .

وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد يكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدا فى طلب الحق وأخطأ فيه فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، فى المسائل النظرية أو العملية - وهذا الذى عليه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام .

على تفصيل ستعرفه بعد - إن شاء الله عز وجل فى بابه[2] .

* بين الكفر والإيمان

الرجل يجتمع فيه كفر وإيمان :

قال ابن القيم رحمه الله : الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان ، وهذا من أعظم أصول أهل السنة . وخالفهم فيه أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية ، ومسألة خروج أهل الكبائر من

١- سورة النساء الآية : ١٠ .

٢- راجع كتاب « شبهات التكفير »

النار وعدم تخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل .

وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(١)

فأثبت لهم إيمانا به سبحانه مع الشرك . وقال تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾(٢)

فأثبت لهم إسلاماً ، وطاعة لله ورسوله مع نفى الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذى يستحق اسمه بمطلقه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(٣)

وهؤلاء ليسوا منافقين فى أصح القولين ، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله ، وليسوا مؤمنين وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار .

قال الإمام أحمد : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن - يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب - فهو مسلم ، ولا أسميه مؤمنا ، ومن أتى دون ذلك - يريد دون هذه الكبائر - سميته مؤمنا ناقص الإيمان ، قد دل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم « فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق » تدل على أنه يجتمع فى الرجل نفاق وإسلام ، وكذلك الرياء شرك فإذا رآى الرجل فى شىء من عمله اجتمع فيه الشرك والإسلام وإذا حكم بغير

١- سورة يوسف الآية : ١٠٦ ٢- سورة الحجرات الآية : ١٤ ٣- سورة الحجرات الآية : ١٥

ما أنزل الله أو فعل ما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم كفرا وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر و إسلام . والمعاصى شعب الكفر والطاعات شعب الإيمان » ا . هـ [1]. وقال رحمه الله : من كان فيه شعبة من الإيمان لا يصير بها مؤمنا ، ومن كان فيه شعبة من شعب الكفر لا يصير بها كافرا ، وإن كان ما قام به كفرا ، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالما ، ولا من معرفة بعض المسائل الفقه والطب أن يسمى فقيها ولا طبيباً .

ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً ، وشعبة النفاق نفاقاً ، وشعبة الكفر كفرا ، وقد يطلق على الفعل كقوله « فمن تركها فقد كفر » ، « ومن حلف بغير الله قد كفر » [2] فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق ، وكذا يقال لمن ارتكب محرما أنه فعل فسوقا لا أنه فسق بذلك المحرم ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه . وهكذا اسم الزانى والسارق والمنتهب لا يسمى مؤمنا وإن كان معه إيمان كما أنه لا يسمى كافرا وإن كان ما أتى به من خصال الكفر ، إذ المعاصى كلها من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان » . ا - هـ [3] .

١- كتاب الصلاة لابن القيم ص ٢٨ ، ٢٩

٢- رواه الحاكم فى صحيحه بهذا اللفظ

٣- كتاب الصلاة لابن القيم ٢٩ ، ٣٠ .

كلِمـة التـوحيد :

فضـــلها .

شروطها .

معنـــاها .

نواقـض الإيمـان .

(حكم تارك الصلاة)

الكفـــر بالطاغوت .

فضل كلمة التوحيد

لا إله إلا الله . من أجلها خلق الله عز وجل الخلق

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]

ومن أجلها أرسل الله عز وجل الرسل

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2]

كما قال سبحانه

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[3]

وهى قضية القضايا : والأساس الأول

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[4]

كما قال :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[5]

وهى حق الله على العباد ، وفى الحديث ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لى : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا »[6] وهذا من فضلها ، وكفى به

١- سورة الذاريات الآية : ٥٦
٢- سورة النحل الآية : ٣٦
٣- سورة الأنبياء الآية : ٢٥
٤- سورة الإسراء الآية : ٢٣
٥- سورة النساء الآية ٣٦
٦- متفق عليه

فضلا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[1]

وكتب الله عز وجل لهم بها الأمن ، فقال سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2]

بظلم أى بشرك . أولئك لهم الأمن فى الآخرة ، وهم مهتدون فى الدنيا . وقد جاء فى فضلها أنها السبيل إلى الجنة ، فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[3] وأنها تُحرمُ صاحبها على النار ، كما فى حديث عتبان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله »[4]

ومما ورد فى فضل كلمة التوحيد ، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال موسى : يا رب علمنى شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقولون هذا ، قال : يا موسى ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ، والأراضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن « لا إله إلا الله »[5].

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى « يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »[6] وعن جابر رضى الله عنه قال :

١- سورة النساء الآيات : ٤٨
٢- سورة الأنعام الآيه : ٨٢
٣- متفق عليه
٤- متفق عليه
٥- رواه ابن حبان والحاكم وصححه
٦- رواه الترمذى ، بسند حسن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار ».[1] وكل ذنب دون الشرك يهون ، فعن أبى ذر رضى الله عنـه قال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زني وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر . وفى رواية لأبى ذر : وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبى ذر ، فكان أبو ذر يقول ذلك بعد تمام الحديث »[2] ا . هـ[3]

وقال صلى الله عليه وسلم « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك ، فيحجب عن الجنة »[4] وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، حرم الله عليه النار »[5] وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة يطول ذكرها . وأحاديث هذا الباب نوعان :-

أحدهما : ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها وهذا ظاهر ، فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص وقد يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار .

وحديث أبى ذر الغفارى معناه : أن الزني والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد ، وهذا حق لا مرية فيه وليس فيه أنه لا يعذب عليهما مع التوحيد .

والثانى : ما فيه أنه يحرم على النار ، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها أو على ما يخلد فيها أهلها ، وهى ما عدا الدرك الأعلى ، فإن الدرك الأعلى

١- رواه مسلم ٢- متفق عليه

٣- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣١ - ٤٦ بتصرف ٤- صحيح مسلم عن أبى هريرة

٥- صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت

يدخله كثير من الموحدين من عصاتهم بذنوبهم ، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين .

وفي الصحيحين : أن الله تعالى يقول « وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها - أي من النار - من قال لا إله إلا الله »[1]

وقالت طائفة من العلماء : المراد من هذه الأحاديث أن « لا إله إلا الله » سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ، ومقتضى لذلك ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه ، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه ، أو لوجود مانع وهذا قول الحسن ووهب بن منبه ، وهو الأظهر. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ، للفرزدق وهو يدفن امرأته « ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، منذ سبعين سنة ، قال الحسن : نعم العدة ، ولكن لـ « لا إله إلا الله » شروطا، فإياك وقذف المحصنات. وقيل للحسن : إن أناسا يقولون : من قال " لا إله إلا الله " دخل الجنة ، فقال : « من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة . »

وقال وهب بن منبه لمن سأله :أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : « بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، و إلا لم يفتح لك »[2].

ولنا وقفة أخرى مع شروط كلمة التوحيد ...

هذا وفضائل " لا إله إلا الله " كثيرة وعظيمة ، لا يمكن ها هنا استقصاؤها فهي كلمة التقوى ، وهي كلمة الإخلاص وشهادة الحق ، ودعوة الحق ، وبراءة من الشرك ، ونجاة هذا الأمر ، ولأجلها خلق الخلق ، ولأجلها أرسلت

١- متفق عليه و اللفظ للبخاري ولمسلم بنحوه

٢- تحقيق كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلي ص٦ بتصرف

الرسل ، وأنزلت الكتب ، وهى من أفضل النعم ، ولأجلها أعدت دار الثواب ، ودار العقاب ، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد ، فمن قالها عصم ماله ودمه ، ومن أباها فماله ودمه حلال ، وهى مفتاح الجنة ، ومفتاح دعوة الرسل ، وبها كلم الله موسى كفاحا ، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة ، وهى نجاة من النار ، وهى توجب المغفرة ، وهى أحسن الحسنات ، وهى تمحو الذنوب والخطايا ، وهى تجدد ما درس من الإيمان فى القلب وهى التى لا يعادلها شىء فى الوزن والخطايا ، فلو وزنت بالسموات والأرض لرجحت بهن ، وكذلك ترجح فى صحائف الذنوب كما فى حديث السجلات والبطاقة .....الخ ا . هـ[1].

١- أنظر بتوسع كلمة الإخلاص ومجموعة التوحيد وغيرها .

شروط كلمة التوحيد

ولابد من الالتزام بشروط " لا إله إلا الله " وقد ذكر العلماء لها شروطا سبعة لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه ، وإليك شرحها :

ينبغي أن نعلم أنه : ليس المراد من هنا عد ألفاظها . فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك ، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم ، وتراه يقع كثيرا فيما يناقضها . والتوفيق بيد الله .

وقد قال وهب بن منبه لمن يسأله : أليس " لا إله إلا الله " مفتاح الجنة ؟ قال : « بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك »[1].

وأسنان هذا المفتاح هي شروط " لا إله إلا الله " الآتية :-

الشرط الأول : العلم بمعناها المراد منها نفيا وإثباتا ، المنافي للجهل بذلك قال تعالى :

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]

وقال تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[3]

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أنه لا اله إلا الله دخل الجنة »[4]

الشرط الثاني : اليقين المنافي للشك - ومعنى ذلك أن يكون قائلها

١- رواه البخاري جـ٣ ص١٠٩ 　 ٢- سورة محمد الآية : ١٩

٣- سورة آل عمران الآية : ١٨ 　 ٤- صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ١ ص٢٢

مستقينا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما ، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين ، لا علم الظن ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1]

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »[2] .

الشرط الثالث : القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه ، وقد قص الله علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء مَنْ قبلها ، وانتقامه ممن ردها وأباها .

الشرط الرابع : الانقياد لما دلت عليه ، المنافى لترك ذلك ، قال تعالى :

﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾[3]

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[4]

وفى الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »[5]

الشرط الخامس : الصدق المنافى للكذب ، وهو أن يقولها صدقا من قلبه ويواطئ قلبه لسانه ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[6]

١- سورة الحجرات الآية ١ٵ
٢- صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ١ / ٢٢
٣- سورة الزمر الآية ٥٤
٤- سورة النساء الآية ١٢٥
٥- رواه الترمذى وهو حديث حسن صحيح، قاله النووى وضعفه آخرون.
٦- سورة البقرة الآية ٨

وفى الحديث : قال صلي الله عليه وسلم : « شفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا يصدق لسانه قلبه »[1]

الشرط السادس : الإخلاص وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك . قال تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[2]

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[3]

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلي الله عليه وسلم قال : « أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه »[4]

الشرط السابع : المحبة لهذه الكلمة ، ولما اقتضته ، ودلت عليه ، ولأهلها العاملين بها ، الملتزمين بشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك . قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[5]

وفى الحديث « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »[6] ا . هـ [7].

١- أخرجه الحاكم في كتاب الإيمان فى مستدركه جـ١/ ٧٠ وقال صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى .

٢- سورة الزمر الآية : ٣ ٣- سورة البينة الآية : ٥

٤- صحيح البخارى / كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث جـ ١ ص٣٣

٥- سورة البقرة الآية : ١٦٥

٦- صحيح البخارى كتاب الإيمان جـ ١ /١٣ وصحيح مسلم كتاب الإيمان جـ ١ / ٦٦

٧- كتاب مجموعة التوحيد ص ٣٠٧ - ص٣١٢ بتصرف

معنى كلمة التوحيد « الشهادتان »

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله »

" أشهد " فى اللغة تأتى على ثلاثة معان وقد استعملها القرآن بكل من المعانى الثلاثة فهى تأتى :-

١- بمعنى المشاهدة - أى الرؤية وهى قلبية أو بصرية أو علمية . وقد استعملها القرآن بهذا المعني فقال :

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(١)

والمعنى أن الإنسان يرى بقلبه أن كل شىء له آية تدل على أنه هو الواحد .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٢)

٢- بمعنى الشهادة ، وهى باللسان تكون إقراراً واعترافاً ، وقد قال الله عز وجل فى القرآن :

﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾(٣).

فأنت تقول شهدت لفلان ، أو شهدت على فلان ، فهو دور اللسان وقد يصدق الإنسان أو يكذب فى هذا الإقرار والاعتراف . والذى يحدد ماهية الأمر ، صدقه أم كذبه ، المعنى الثالث .

١- سورة المطففين الآية : ٢١

٢- سورة آل عمران الآية : ١٩٠ ، ١٩١

٣- سورة الطلاق الآية : ٢

٣- بمعنى الحلف واليقين ، فكأنه يقول أقسم وأوقن ، وقد استعملها القرآن بهذا المعنى كذلك ، فقال تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ (١)

فاعتبر كلمتهم نشهد يمينا ، وإن كذبوا في ذلك ، ولكن الله شهد له يقينا وصدقا وعلما ، وكفى بالله شهيدا . وقال فقهاء الحنفية : من قال أشهد ، فقد حلف .

وفيما بين هذه المعاني ترابط تام فالإنسان يحلف إذا شهد ، ويشهد إذا شاهد ، وفي الحديث « على مثل الشمس فاشهد أو دع » (٢) فهو يشاهد بقلبه ، ثم يشهد بلسانه ، ثم يوقن بذلك فيمتثل الأوامر وينتهي عن النواهي ، ومن هنا قال العلماء : الشهادة إقرار بالجَنَان - أي القلب - وتلفظ باللسان ، وعمل بالأركان .

وعلى هذا فشهادة الإنسان أنه لا إله إلا الله لا تعتبر إلا باستجماع هذه المعاني ، هذا فيما عند الله . أما عند الناس فإن مجرد النطق بها يحكم لصاحبها بالإسلام بناء على الظاهر . ولكنها لا تنفع عند الله إلا إذا أقر بقلبه وتلفظ بلسانه ، ويأتي العمل بالأركان شرط صحة إقراراً به وتسليما له ، وشرط كمال فيمن أقر به ، وهو ما عليه أهل السنة ، ولذلك إذا أيقن الإنسان بقلبه ولم يقر بلسانه فلا ينفعه يقينه هذا إلا إذا أتبعه بإقرار اللسان ، وإلا فهو كمن قال الله فيهم :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣)

١- سورة المنافقون الآية : ١ ، ٢

٢- حديث صحيح

٣ - سورة النمل الآية : ١٤

أو كأهل الكتاب وهم يعرفون النبى وينكرونه ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1]

فلن تغنى عن هؤلاء معرفتهم ، ولا عن أولئك يقينهم ، حتى يتم ذلك بالإقرار والشهادة باللسان معلنة أمام الناس حتى يحكم لهم بالإسلام .

وأما الذى أقر بلسانه ولم يؤمن بقلبه ، فالشهادة لا تنفعه كذلك ، لأنه - فيما عند الله - يكون منافقا يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، وهذا أسوأ حالا عند الله عز وجل من الكفار ، لذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]

وصفاتهم كما بينها الله في القرآن الكريم فى سورة البقرة والنساء والمائدة والتوبة على وجه الخصوص والتفصيل وفى غيرهم على وجه العموم والإجمال .

أما عندنا فنعامله معاملة المسلمين كما كان فعله ﷺ وأصحابه معهم ، ولأنه لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، هذا للعلم .

وأما الذى آمن بقلبه وأقر بلسانه ولم يعمل بالأركان ، فهو إما إنه تارك لها غير مقر بها ، أو جاحد لها أو مستهزء بها ، أو كاره لشىء منها ، أو مؤمن بشىء منها دون شىء أو منكر لمعلوم من الدين بالضرورة ، وأمثال هذا فإنه لا تنفعه شهادته ، ويكون حكمه بعد إقامة الحجة عليه أنه كفر بعد إيمانه ، وارتد بعد إسلامه .

وإما إنه تارك لها مع الإقرار بجميعها والاعتراف بها ، إلا إنه انشغل

١- سورة البقرة الآية : ١٤٦
٢- سورة النساء الآية : ١٤٥

عنها أو تكاسل فى أدائها لحدوث إسلامه ، أو نشوئه في البادية ، أو جهله ، أوْ عصيانه ، أو نحو ذلك ، فهو على الصحيح لا يكفر بترك شيء من هذا الاعتراف إلا فى شيء واحد هو ترك الصلاة كما فهم من الآيات ، وعلم من الأحاديث ، وعليه الصحابة « إذ كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة » على تفصيل سنذكره إن شاء الله تعالى .

« نواقض الإيمان »

ونعني به أسباب الخروج من الإسلام بعد الدخول فيه ، حسب القاعدة الجامعة التى اتفق عليها أهل السنة ، ونختار فى التعبير عنها ما قاله الإمام الطحاوى - رحمه الله تعالى - في العقيدة الطحاوية : « ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين .

..... ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته . ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ، ونخاف عليهم ولا نقنطهم ، والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام ، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة .. ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه .. » .

- وبيان هذه القاعدة أن الشارع الحكيم قد جعل للإيمان والإسلام مدخلا وبابا يدخل منه وهو - كما علمت - الإقرار والتصديق بالشهادتين ، فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب فإنه لا يخرج منه إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره السابق وتصديقه بالشهادتين .

فما كان مناقضا لمعنى " الشهادتين " أى مضادا لتوحيد الله فى ربوبيته ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله ، وتوحيده في ألوهيته ، وعدم توجه الإنسان بالعبادة له سبحانه ، أو مكذبا بشىء مما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم من الشرائع ، ومن أمور الغيب ، أو غير ذلك ، فهذا يكون مناقضا لما أقر به واعترف به من الشهادتين ، وتفصيل ذلك على النحو التالى :-

* معلوم أن الكفر والشرك ، والنفاق ، والردة ، هي نواقض الإسلام ،

بشتى صورها ، ومختلف فروعها .

أولاً : الكفر :

ينبغي أن نُكَفِّرَ من يجاهرون بالكفر دون استحياء ، ونكف عمن ظاهره الإسلام . ومن الكفرة الذين يجب أن يدفعوا بالكفر بدون مواربة ولا استخفاء ، الأصناف التالية :

(أ) - الشيوعيون المصرون على الشيوعية ، الذين يؤمنون بها فلسفة ونظام حياة ، رغم مناقضتها الصريحة لعقيدة الإسلام وشريعته وقيمه ، والذين يؤمنون بأن الدين - كل دين - أفيون الشعوب ، ويعادون الأديان عامة ، ويخصون الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة ، لأنه عقيدة ونظام وحضارة كاملة ، فليس هناك " مسلم شيوعي " كما يزعم البعض !! ، وذلك لاختلاف الإسلام عن الشيوعية في كل شيء، أو على الأقل .. من رضى بنظام الشيوعية فى " الاقتصاد " فقد كرهه فى الإسلام وأنكره ، وهذا وحده يكفى فى كفره ، ومروقه من الإسلام ....

(ب) - العلمانيون : الذين يرفضون - جهرة - شرع الله ، وينادون بأن الدولة يجب أن تنفصل عن الدين ، وإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وامتنعوا ، وأكثر من ذلك أنهم يحاربون - أشد الحرب - من يدعون إلى تحكيم شريعة الله و العودة إلى الإسلام . هذا ومحاولة فصل الدين عن الدولة أقصر طريق إلى الكفر ، وفيه إعلان الحرب على الله ، وإنكار أكبر معالم الدين ، وذلك كفر بواح ، والعياذ بالله . « ورحم الله الإمام الكوثرى من كبار علماء المسلمين ، قال : إن محاولة فصل الدين عن الدولة كفر بواح صارخ » .

(جـ) - أصحاب النِحَل التى مرقت من الاسلام مروقا ظاهرا ، مثل : الدروز ، والنصيرية ، والاسماعلية ، وأمثالهم من الفرق الباطنية ، الذين قال

عنهم الإمام الغزالى وغيره : « ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض » . وقال عنهم شيخ الإسلام " ابن تيمية " : " إنهم أكفر من اليهود والنصارى " وذلك لإنكارهم قطعيات الإسلام وأساسياته ، وما علم منه بالضرورة .

ومثلهم فى عصرنا " البهائية " التى هى دين جديد قائم برأسه ، وكذلك " القاديانية " التى جاءت بنبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم الذى ختم الله به النبيين .

ومعلوم أن الكفر الأكبر على أنواع خمسة هى :-

(١) - كفر التكذيب : وهو اعتقاد كذب الرسل ، وهذا القسم قليل فى الكفار ، فإن الله تعالى أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات التى تدل على صدقهم ما أقام به الحجة ، وأزال به المعذرة ، قال تعالى- عن فرعون وقومه :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[1]

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[2]

(٢) - كفر إباء واستكبار : مثل كفر إبليس ، ومن هذا أيضا ، كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباءً واستكبارا ، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل ، كما قال تعالى عن فرعون وقومه إذ استكبروا عن اتباع الحق بقولهم :

﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾[3]

ومنه ، كفر أبى طالب ، فإنه صَدَّقَ الرسول ﷺ ولم يشك في صدقه ، ولكن أخذته الحمية أن يرغب عن ملته ، وخشى قومه .

١- سورة النمل الآية : ١٤
٢- سورة الأنعام الآية : ٣٣
٣- سورة المؤمنون الآية : ٤٧

(٣) - كفر إعراض : مثل من يعرض عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمعه ، ولا يصدقه ، ولا يكذبه ، ولا يواليه ، ولا يعاديه ، ولا يصغى إلى ما جاء به البتة .

(٤) - كفر الشك : حيث لا يجزم بصدقه ، ولا بكذبه ، بل يشك فى أمره ، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها ، فإنه لا يبقى معه شك ، لأنها مستلزمة للصدق .

(٥) - كفر نفاق : وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه التكذيب ، وهذا هو النفاق الأكبر .

ثانيا : الشرك الأكبر المخرج من الملة ، الذى قال الله تعالى عنه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[١]

وهو أربعة أنواع ، وهى :

(١) - شرك الدعاء ، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[٢]

(٢) - شرك النية والإرادة والقصد ، قال تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣]

١- سورة النساء، الآية : ١١٦ ٢- سورة العنكبوت الآية : ٦٥ ٣- سورة هود الآيات (١٥ - ١٦)

(٣) - شرك الطاعة ، قال تعالى :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]

وفى الحديث : عن عدى بن حاتم حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2]

قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال : بلى ، حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم[3] قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسيرها : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(٤) - شرك المحبة ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[4]

* فالشرك - عموما - فى عبادة الله وحده لا شريك له ، أو جعل العبد بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ، فذلك من الكفر ، وأيضا .. كل ما يضاد توحيد الربوبية : أو توحيد الألوهية ، أو توحيد الذات ، والأسماء والصفات ، أو اشمئزاز القلب من توحيد الله وانبساطه لنوع من أنواع الشرك ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[5]

وهذا الشرك مما يعذر فيه المسلم بالجهل قبل الحكم عليه بالكفر ..

١- سورة التوبة الآية : ٣١
٢- سورة التوبة الآية : ٣١
٣- أخرجه الترمذى بسند حسن
٤- سورة البقرة الآية : ١٦٥
٥- سورة الزمر الآية : ٤٥

ثالثا : النفاق :- ومنه ما هو مخرج من الملة ، وهذا هو النفاق الأكبر ، وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « والنفاق منه ما هو أكبر ، ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أُبيٍّ وغيره ، بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به ، أو بغضه ، أو عدم إعتقاد وجوب اتباعه ، أو المسرة بانخفاض دينه ، أو المساءة بظهور دينه ، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوا لله ورسوله ، وأما النفاق الأصغر المتمثل فى الرياء أو بعض صفات المنافقين كالكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة ، والفجور ، فهذا ليس من جنس الكفر الذى يخرج عن الملة ، وإن كان حراما .

رابعاً : الردة : وهى الكفر بعد الإيمان ، فمن قال الكفر أو فعله أو رضى به مختارا كفر وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه ، وبهذا قال علماء السنة والحديث ، وذكروا ذلك فى كتبهم ، فقالوا : إن المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه إما نطقا ، وإما فعلا ، وإما اعتقادا ، وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرها . وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به ، وكذلك إذا شرح بالكفر صدرا ، أى فتحه ووسعه ، وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به ، وهذا معلوم قطعا من كتبهم ومن له ممارسة في العلم فلابد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك .

- ولهذه الردة صور ومظاهر متنوعة ومتعددة ، نذكر بعضا منها :

(أ) - من لم يكفر المشركين ، أو شك فى كفرهم ، أو صحح مذهبهم ، كَفَرَ إجماعا ، وهذا معناه الرضى بالكفر ، أو عدم الرضى بالإسلام ، وكلاهما كفر .

فمن قال : صدقت - لمن أنكر الشهادتين . ومن قال : كذبت - لمن نطق بها ، لا يشك أحد فى كفره ، حتى وإن كان القول الأول مجاملة للقائل . وهنالك أساليب مختلفة من الأقوال والأعمال والأحوال لا تقل فى دلالتها - فى عرف الشارع ، وفى عرف الناس ، وعرف اللغة - عن قول :

صدقت لمن كفر ، أو كذبت لمن أسلم ، فمن صدرت منه خرج من دين الإسلام ، على تفصيل فى ذلك القول ، والاحتياط فى الحكم .

(ب) - من اعتقد أن غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكم الإسلام ، فهذا كفر ، فتنحية شريعة الله عن مجرى الحياة ، واستيراد قوانين البشر القاصرة ، ردة جديدة برزت فى القرون الأخيرة فى حياة المسلمين .

قال تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(1)

وقال :

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾(2)

وهذا على وجه الإجمال .

(جـ) - من أبغض شيئا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو عمل به كفر إجماعا ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾(3)

سواء أكانت تلك الكراهية نابعة من نفسه ، ومن إملاء هواه ، أم كانت تابعة للغير ، موافقة لهواهم . كما قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾(4)

فالله عز وجل جعلهم فى العاقبة سواء ، وهو إحباطهم عملهم ، وذلك حال الكفار .

١- سورة المائدة الآية : ٤٤

٢- سورة المائدة الآية : ٥٠

٣- سورة محمد آية : ٩

٤- سورة محمد الآية : ٢٦

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1]

- وبغض ما أنزل الله عز وجل لا يعدو إلا أن يكون إستهزاءً به ، أو جحودا له ، وكلاهما كفر ، فمن استهزأ بشيء من دين الله أو بثوابه أو عقابه ،أو بالرسول أو بالقرآن أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك ، فهذا ضرب من الكفر ، قال تعالى :

﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾[2]

ومن جحد شيئا من الدين كان كمن جحد بالدين كله . قال تعالى :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3]

وظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله أو رسوله أو تلاوة كتابه . أو ذكر شيء من أمور الدين المعروفة ، أو الدعوة إليه .

كل ذلك مظاهر للبغض أو الانكار أو الاستهزاء ، قال تعالى :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[4]

١- سورة الفرقان الآية : ٢٣ ٢- سورة التوبة الآيات : ٦٥ ، ٦٦

٣- سورة البقرة الآية : ٨٥ ٤- سورة الحج الآية : ٧٢

(د) – مظاهرة المشركين ، والولاء لهم ، ومعاونتهم على المسلمين ، لقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

وقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]

فلابد أن يحدد المسلم موقفه من أعداء الله ، وأعداء دينه ، من الكفار والمشركين والمرتدين ، ويتبين الحد الذى يجب أن يقف عنده المسلم ولا يتجاوزه من أجل الحفاظ على دينه وإيمانه فى معاملتهم وبناء العلاقات معهم ، وهو الحد الذى لا يفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم والرضى عن كفرهم ، فإذا تخطى المسلم هذا الحد ، ودخل فى طاعة الكفار وأظهر الموافقة على دينهم الباطل ، وأعانهم عليه بالنصرة والمال ، ووالاهم ، وقطع الموالاة مع المسلمين ، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين ، وضحى بالثانية من أجل الأولى ، فقد صار منهم وارتد عن دينه وكان كافراً من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يستثنى من ذلك إلا المكره ، وهو الذى يقع تحت سلطان الكفار فيأمرونه بطاعتهم فى باطلهم ، ويهددونه بالقتل أو يشرعون فى تعذيبه فيجوز له عندئذ فقط الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان .

١- سورة المائدة الآية : ٥١

٢- سورة المائدة الآية : ٥٧

قال تعالى :

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[1]

والولاية فى لغة العرب تطلق على النصر والتأييد والإعانة ، الدنو والقريب ، وفلان ولى لفلان وموال أى مؤيد ناصر ، والله ولى الذين آمنوا : ناصرهم ومؤيدهم ومعينهم ..وأولياء الله الذين يقومون بنصره سبحانه وتعالى كما قال عز وجل :

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2]

وعلى هذا المعنى يكون اتخاذ أعداء الله أولياء يعني اتخاذهم أنصاراً ومؤيدين مع التقرب إليهم ، وإظهار الود لهم ، واتباع أهوائهم ، وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به والركون إليهم ومداهنتهم ومجاملتهم على حساب الدين ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم ، والتشبه بهم في العقائد والعادات ، والأخذ بقوانينهم ومناهجهم فى حكم الأمة وتربية أبنائها .

والواجب على المسلم إعلانه عن الالتزام بالإسلام كله ، وإعلان البراءة من الكافرين ، وعدم إعانة الكافر على المسلم ، أو اتخاذهم بطانة وحاشية ، أو حبهم ، ولكن يستثنى من البراءة هذه ، ولا ينقض أصلها أمور منها :

- اللين عند عرض الدعوة ، أو حل الزواج بالكتابة ، وأكل ذبيحة الكتابى ، أو المجاملة والإحسان والدعاء لهم بالهداية ، أو الإهداء لهم وقبول هداياهم ، أو عيادة مرضاهم ، أو التصدق عليهم والإحسان لهم . وهذه إشارات إلى

١- سورة آل عمران الآية : ٢٨
٢- سورة محمد الآية : ٧

معنى الولاء والبراء ، الذى ساء البعض فهمه ومعناه .

وخلاصة هذا الأمر هو أن المسلمين أمة واحدة ، يكون ولاء كل مسلم لها ، وقلبه معها ويده ولسانه وسلاحه معها ، ولا يجوز أن يصرف شيئا من ذلك لأعداء الإسلام ، فمن فعل فقد انتقل من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر شاء أم أبى ...

(هـ) - الاعتراض على التشريع ، إذ هو اعتراض على واضعه ومنزله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر ، فالتشريع حق الله وحده

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (١)

وأيضاً :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (٢)

ونفى الحكمة عن جزئية واحدة من تشريعه ، أو الاعتراض على هذه الجزئية هو اعتراض على المشرع سبحانه ، وهو كفر .

وقد فشى اليوم في أوساط المسلمين ترديد شبه أعداء الإسلام ، فنقلوا واعتقدوا ما بثوه من اعتراض على تشريع الله ، حتى لا يكاد اليوم يخلو حكم شرعى من أحكام الإسلام إلا ونسمع الاعتراض عليه ، وأظهر ذلك .. تعدد الزوجات ، والطلاق ، والرق ، وحد السرقة ، وحكم القصاص ، وحد الزنا .... الخ

وترديد من يشهد أن لا إله إلا الله ، لمثل هذه الاعتراضات دون فهم ووعى لحكم ذلك أمر خطير ، اعتقاد انتفاء الحكمة من هذه الشرائع والأحكام والحدود كفر بالله تبارك وتعالى ، أو ما هو أشد من ذلك ، كمن ينكر الشريعة جملة ، ويرى أنها لا تساير نظام حياة الناس ، ولا تناسب رقيهم

١- سورة يوسف الآية : ٤٠.

٢- سورة الأعراف الآية : ٥٤

وتطورهم المادى ، فهؤلاء خارجون عن الاسلام ، سواء أكانوا مسلمين قبلا ، أم لم يسبق لهم إيمان وشهادة .

ولكن أرجو أن يعلم أن الاعتراض قد يصدر أحيانا من مسلم يفاجئه الحكم ولا يرى الحكمة فيه مباشرة ، ولا يخرج بهذا عن الإسلام إلا بعد أن يبين له الحكمة فلا يرجع إلى الله ، ولا يفئ إلى أمره عز وجل ، بل يظل مصرا على اعتراضه . وقد صدر عن سعد بن عبادة رضى الله عنه - عندما سمع قول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (١)

قوله : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار ! ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟

فقالوا : يا رسول الله .. لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته ، فقال سعد : والله يا رسول الله إنى لأعلم بأنها لحق ، وإنها من الله ،ولكن قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ، ولا أحركه حتى أتى بأربعة شهداء ، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢)

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣)

..... الآية (٢) (٣)

١- سورة النور الآية : ٤ ٢- رواه الإمام أحمد ٣- سورة النور الآية : ٦ - ١٠

والشاهد فى سوق هذا الحديث أنه يحصل للمسلم أحيانا الاستفسار فى صورة الاعتراض على حكم الله ، ولا يكون هذا مخرجا له عن الإسلام .

وخلاصة الأمر : أن موقف المسلم من تشريع الله عز وجل هو الرضى والتسليم " سمعنا وأطعنا " هذا شعار المسلم دائما ، ولا بأس أن يسأل عن الحكمة ، ويتلمسها ،لأن ظهور حكمة التشريع تزيد المؤمن إيمانا ، وتقوى صلته بربه جل وعلا ، وشتان بين أن يكون هناك تلمس لحكمة التشريع ، وبين أن يكون هناك اعتراض على حكمة التشريع ...

(و) - وهناك نواقض أخرى للإيمان :

- كالسحر ومزاولته ، أو تعلمه والرضى به .

- أو اعتقاد البعض من الناس أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام .

- أو ادعاء أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن باطنه يخالف الظاهر ، وأن هذا الباطن مخصوص بالبعض دون البعض .

- أو الإعراض عن دين الله ، لا يتعلمه ولا يعمل به

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾[1]

- أو الرضا بفشو المنكر وانتشاره ، والعمل على ترويجه فى الأمة المسلمة .

- أو من سبَّ الدين أو الملة ، وقصد به الشريعة المطهرة والأحكام التى شرعها الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

١- سورة السجدة الآية : ٢٢

أو عدم اعتراف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة ، حسية ومعنوية هى من فضل الله ، وأنها لولا الله ما كانت .

- وإعطاء غير الله حق الأمر والنهى ، وحق التحليل والتحريم ، وحق التشريع ، وحق الحاكمية ، أو الحكم بغير ما أنزل الله ، أو الاحتكام إلى غيره جل وعلا .

- أو استحباب الحيـاة الدنيا على الآخرة ، وجعل الدنيا هدف الإنسان الوحيد .

- أو سوء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم برفع الصوت عليه ، أو على سنته

مكتفيا بهذا القدر من ذكر نواقض الإيمان ، إذ التفصيل والاستقصاء متعذر ، ولكنها قواعد يدخل فيها غيرها ، وتقاس عليها أمثلتها ، معتذرا عن بعض الاختصار فى كثير من المسائل التى ذكرتها ، ومحيلا القارئ إلى التوسع فى مظانها ومراجعها (١) .

١- راجع بتوسع ما يلى :-
- العقيدة الطحاوية
- ظاهرة الغلو فى التكفير للدكتور / يوسف القرضاوى
- رسالة الولاء والبراء للدكتور / محمد بن سالم القحطانى
- مجموعة التوحيد لابن تيمية وابن عبد الوهاب
- الإيمان ونواقضه ، محمد نعيم ياسين
- الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، د.عبد الرحمن عبد الخالق
- مدراج السالكين لابن القيم
- مجموعة الفتاوى لابن تيمية
- الإسلام للأستاذ / سعيد حوى

« حكم تارك الصلاة »

لقد جاءت الأحاديث الصحاح تنفى الإسلام على من ضيع الصلاة ، كحديث « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر »[1] أو تنفى الإسلام عمن ضيع الصوم أو الزكاة أو تركها ، أو أنكر الحج ، أو رفض أداءه مع القدرة عليه . فدل على أنه لا يكتفى بالتلفظ بلا إله إلا الله ، ودل على أنه لابد من الحد الأدنى للإسلام فنقول :-

أولا : إذا ورد الحكم فى فريضة بعينها فلا يجوز سحب هذا الحكم على كل الفرائض ، فحكم فريضة يختلف عن الأخرى ، فليس حكم تارك الصلاة كحكم تارك الصيام أو الحج ،فضلا عن حكم تارك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما شاكل ذلك كما سنتبينه إن شاء الله .

ثانيا : يجب ألا نخلط في الأحكام ، وأن نفرق بين المنكر والتارك ، فلا يجوز التسوية فى الحكم بين الجاحد والتارك ،فالإنكار والجحود ، أو الاستهزاء بأى فريضة فى الدين كفر ولا خلاف ،أما الترك الكامل ، فهذا لم يقل أحد بكفر صاحبه فى أى فريضة عدا الصلاة التى اختلفوا فى حكم من تركها تكاسلا على نحو سنفصل القول فيه . يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه " الصلاة وحكم تاركها " لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ، ومن إثم الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه فى الدنيا والآخرة .

ثم اختلفوا فى قتله وفى كيفية قتله وفى كفره : وقد أفتى أئمة السلف بعد أن اختلفوا فى كيفية قتله ، هل سيكون بالسيف ضربا أو نخسا أو بالخشب وقال البعض : يحبس ، واختلفوا فى حكم استتابته قبل قتله ، هل

١- متفق عليه

يستتاب أم لا ؟ على أقوال كثيرة ، الراجح منها أنه يستتاب ، فهذا قتل لترك واجب شرعت له الاستتابة فكانت واجبة كقتل الردة . واختلفوا هل يقتل تارك الصلاة حدا أم كفرا ؟

ثم سرد أدلة الذين لا يكفرون تارك الصلاة ، وهي أدلة من القوة بمكان ، ثم أورد أدلة الذين قالوا بكفر تارك الصلاة من القرآن والسنة ، وإجماع الصحابة ، وحمل المانعون من التكفير هذه الأحاديث وما شاكلها ، على كفر النعمة دون كفر الجحود .

ثم قال : معرفة الصواب في هذه المسألة مبني على معرفة حقيقة الإيمان والكفر ، ثم يصح النفي والإثبات بعد ذلك ، فالكفر والإيمان متقابلان ، إذا زال أحدهما خلفه الآخر .

ولما كان الإيمان أصلا له شعب متعددة ، وكل شعبة منها تسمى إيمانا ، فالصلاة من الإيمان ، وكذلك الزكاة و الحج و الصيام ، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه ،حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فإنه شعبة من شعب الإيمان ، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة ، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق ، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيما ، منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب ، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب .

وكذلك الكفر ذو أصل وشُعَبْ ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فشعب الكفر كفر ، والحياء شعبة من الإيمان ، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر ، والصدق شُعْبَة من شُعَبِ الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شُعَبْ الإيمان ،وتركها من شعب الكفر ، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان ، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر ، والمعاصي كلها من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان .

ثم قال : الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد ، فكفر الجحود أن نكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحودا وعنادا من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه ، وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده ، فالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبى وسبه ، يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة فهو من الكفر العملى قطعا ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه ، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر ، وتارك الصلاة كافر ، بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن هو كفر عمل ، لا كفر اعتقاد .

ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ، ويسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تارك الصلاة كافرا ، ولا يطلق عليهما اسم الكفر .

وقد نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر وعمن لا يأمن جاره بوائقه ، وإذا نفى اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل ، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد .

وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله ، وبالإسلام وبالكفر ولوازمها ، فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم ، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقا أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود فى النار ، حال أصحاب التكفير فى زماننا .

وفريقا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان ، فهؤلاء غلوا ، وهؤلاء جفوا .

وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط ، الذى هو فى المذاهب كالإسلام فى الملل - فهناك كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق ، وشرك دون

شرك ، وفسوق دون فسوق ، وظلم دون ظلم .

فلا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنا ، وإن كان ما قام به إيمانا ، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمى كافرا ، وإن كان ما قام به كفرا .

كما إنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالما ، ولا معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيها ولا طبيبا .

والمقصود أن سلب الإيمان عن تارك الصلاة أولى من سلبه عن مرتكب الكبائر . وسلب اسم الإسلام عنه أولى من سلبه عمن لم يسلم المسلمون من لسانه ويده .

فلا يسمي تارك الصلاة مسلما ولا مؤمنا وإن كان معه شعبة من شعب الإسلام والإيمان . نعم ، يبقى أن يقال فهل ينفعه ما معه من الإيمان فى عدم الخلود فى النار ؟ فيقال : ينفعه إن لم يكن المتروك شرطا فى صحة الباقى واعتباره ، وإن كان المتروك شرطا فى اعتبار الباقى لم ينفعه ، ولهذا لم ينفع الإيمان بالله ووحدانيته ، وأنه لا إله إلا هو ، من أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا تنفع الصلاة من صلاها عمدا بغير وضوء ، فشعب الإيمان قد يتعلق بعضها تعلق المشروط بشروطه ، وقد لا يكون كذلك .

فبقى النظر فى الصلاة هل هى شرط لصحة الإيمان ؟ هذا سر المسألة .

والأدلة التى ذكرناها وغيرها تدل على أنه لا يقبل من العبد شيء من أعماله إلا بفعل الصلاة فهى مفتاح ديوانه ، ورأس مال ربحه ، ومحال بقاء الربح بلا رأس مال ، فإذا خسرها خسر أعماله كلها ، وإن أتى بها صورة ، وقد أشار إلى هذا بقوله . « فإن ضيعها فهو لما سواها أضيع »

وفى قوله « إن أول ما ينظر إلى أعماله الصلاة ، فإن جازت له نظر فى سائر أعماله وإن لم تجز له لم ينظر فى شىء من أعماله بعد » ومن العجب أن يقع الشك فى كفر من أصر على تركها ، ودعى إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارقة السيف على رأسه ويشد للقتل وعصبت عيناه ، وقيل له : تصلى وإلا قتلناك ، فيقول : أقتلونى ولا أصلى أبدا .

ومن لا يكفر تارك الصلاة يقول هذا مؤمن مسلم ، يُغَسْل ويصلىٰ عليه ويدفن فى مقابر المسلمين ، وبعضهم يقول إنه مؤمن كامل الإيمان ، إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ، فلا يستحى من هذا قوله من إنكار تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة . والله أعلم بالصواب [1] .

كان هذا قولنا فى تارك الصلاة ، ولا يقاس عليه غيره وذلك لخصوص الدليل بالصلاة ، وأما قولنا بالنسبة لتارك الزكاة ، فإنه إن كان شخصا مفردا تؤخذ منه الزكاة قهرا ، وإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا حتى يؤدونها ، فإن جاهدوا قوتلوا قتال المرتدين لوجوب ما امتنعوا عنه .

وأما بالنسبة لتارك الصيام ، فقد أجمعت الأمة على وجوب صيام رمضان وأنه أحد أركان الإسلام التى عُلِمَت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتد عن الإسلام .

كما تقرر عند المؤمنين . أن من ترك صوم رمضان بلا مرض أو عذر ، أنه شر من الزانى ومدمن الخمر ، بل يشكون فى إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال . قاله الذهبى [2] ولكن لم نجد من السابقين ولا من اللاحقين من يقول بكفر تارك الصيام .

١- راجع بتوسع مبحث تارك الصلاة فى كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص ٤ - ٣٠ .

٢- فقه السنة جـ ١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ بتصرف

وأما ما ورد في الحديث « عرى الاسلام وقواعد الدين ثلاثة ، عليهن أسس الاسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان »[1] . هذا - إن ثبت صحته - فإنه يقول : "فهو بها كافر" أى كافر بفريضة هو تركها فصار كالكافر بها أو هو الكفر العملى كما قال بذلك علماء السلف .

وأما عمن تارك الحج: إن كان تركه إنكارا وجحودا أو استهزاء ببعض معالمه . فهذا كافر ولا خلاف فى ذلك ، فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة .

ولكن إذا ترك الحج مع الاعتراف بفريضته فهذا لا يستطيع أحد أن يقول بكفره ، وذلك لاختلاف الفقهاء هل يجب على الفور أو التراخى ؟ ولكل دليله الصحيح .

ذهب الشافعى والثورى والأوزاعى ومحمد بن الحسن إلى أن الحج واجب على التراخى ، فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره إن أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخر الحج إلى سنة عشرة من الهجرة ، وكان معه أزواجه وكثير من أصحابه مع أن إيجابه كان سنة ست من الهجرة . فلو كان واجبا على الفور لما أخره النبى صلى الله عليه وسلم .وما ورد من أحاديث تأمر بتعجيله فإنها تحمل على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به متى استطاع المكلف أداءه[2] .

وأما الاستشهاد بالآية فى هذا المقام فليس بدليل

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3]

قال ابن كثير:قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد « أى ومن جحد

١- رواه أبو يعلى والديلمى ، وصححه الذهبى

٢ - فقه السنة جـ ١/ ٥٣٠ بتصرف جـ١ المختار الإسلامى

٣- سورة آل عمران الآية : ٩٧

فريضة الحج فقد كفر والله غنى عنه » وعن عكرمة قال لما نزلت :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (١)

قالت اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله عز وجل : فاخصمهم فحجهم ، يعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلا » فقالوا « لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا » قال الله :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)

والله أعلم . " ا . هـ " (٢) (٣) .

١- سورة آل عمران الآية : ٨٥

٢- سورة آل عمران الآية : ٩٧

٢ - ابن كثير جـ ٢ / ٦٩ . ط دار الشعب

« أن لا إله إلا الله » .

" أن " للتوكيد وهى فى النطق تدغم مع اللام حسب أحكام التلاوة

" لا إله " هذا نفى فى اللغة ، وكفر في الشرع .

" إلا الله " استثناء يحمل معنى الإثبات فى اللغة ، وهو إيمان في الشرع . فكلمة " لا إله إلا الله " اشتملت على كفر وإيمان ، ولا يصح الإيمان إلا بعد الكفر . ولكن الكفر بماذا ؟

إنه الكفر بكل رب باطل ، وإله زائف ، الكفر بكل طاغوت عبد من دون الله ، وبكل عبادة لغير الله . فهذا يجب الكفر به ونفيه والتخلى عنه حتى يتسنى بعد ذلك الإيمان بالإله الواحد الحق ، فهى - أى كلمة التوحيد - تخلية عن كل ما سوى الله ، وتحلية بالإيمان بالله .

قال تعالى :

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(1)

يقول ابن كثير رحمه الله : أى من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو فقد استمسك بالعروة الوثقى ، أى فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم واستمسك بالدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم هى في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد ، وقال مجاهد : العروة الوثقى يعنى الإيمان . وقال السدى : هو الإسلام . وقال سعيد بن جبير والضحاك : يعنى لا إله إلا الله . وعن أنس بن

١- سورة البقرة الآية : ٢٥٦

مالك : العروة الوثقى : القرآن . وعن سالم بن أبى الجهد قال هو الحب فى الله ، والبغض فى الله ، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافى بينها لأنها كلها تندرج تحت الدين والصراط المستقيم [١] .

" الله " لفظ الجلالة : علم على الذات المقدسة التى نؤمن بها ، ونعمل لها ، ومنها حياتنا ، وإليها مصيرنا [٢] .

إذن كلمة التوحيد تقضى بخلع كل معبود سوى الله ، ثم التحلى بالإيمان بالله « قل أسلمت وتخليت » [٣] فأى شئ نكفر به ونتخلى عنه ؟ ثم أى شئ نؤمن به ونتحلى به . وما هى حقيقة الإيمان أو التوحيد ؟

« لا إله إلا الله. لا رب إلا الله »

« لا إله إلا الله. لا معبود بحق إلا الله »

« لا إله إلا الله. لا كفء ولا نظير لله »

١- تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١١ بتصرف ٢- عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١٤ بتصرف

٣- حديث صحيح

الكفر بالطاغوت

لقد اشتملت كلمة التوحيد فى جزئها الأول على الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله ، .. فما هو الطاغوت ؟

الطاغوت فى اللغة : من الطغيان ، وهو كل ما زاد عن الحد المقرر له ، وكانت العرب تطلق اسم الطاغوت أيضاً على كل ما عبد من دون الله ، يقول القرطبى : والطاغوت مؤنثة من طغا يطغو ، إذا جاوز الحد بزيادة عليه ، وقيل : أصل طاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق ، .. قال الجوهرى : والطاغوت الكاهن ، والشيطان ، وكل رأس فى الضلال ، والجمع طواغيت ، وعلى ذلك فإن الطاغوت قد يكون الوثن أو الصنم أو الشخص ، وقد يكون ذات الشريعة الزائدة عن حد الله .

قال ابن القيم رحمه الله: «الطاغوت هو كل معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يتبعونه على غير هدى من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله».

- فما الطاغوت الذى يجب الكفر به حتى يتحقق الإيمان ؟

لقد ورد لفظ الطاغوت فى القرآن ثمانى مرات :

(١) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[١]

ومعناه الأصنام أو الشيطان .

(٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٢]

ومعناه الأصنام أو الشيطان أيضاً .

١- سورة البقرة الآية : ٢٥٦

٢- سورة البقرة الآية : ٢٥٧

(٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ وهما صنمان لقريش .

(٤) ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾[1]

كثير الطغيان ، وهو كعب بن الأشرف .

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾[2] وهو الشيطان .

(٦) ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾[3] وهو بمعنى الشيطان .

(٧) ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[4]

بمعنى الأوثان .

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾[5]

بمعنى الأوثان[6] .

ويظهر معنى الطاغوت فيما عبد من دون الله من أصنام ومخلوقات أخري ، إذا ذكر معه الإيمان وعبادة الله والكفر بالطاغوت ، وهو يطلق على الباطل مطلقا ممن يعقل أو لا يعقل ..

فإذا عبد من دون الله ، أو مع الله ، فذلك كفر أو شرك ، وإذا فتن به دون عبادة له كان عصيانا وفسوقا ، كالذى يفتنه الشيطان أوالسلطان أو المال أو المرأة أو الذهب أو غير ذلك ، فتنة تلهيه عن الواجب وتغريه بالسوء ، وقد يطلق عليه أنه يعبده ، أى يحبه حبا شديدا ، ويستجيب له ويطيعه طاعة

١- سورة النساء الآية : ٦٠ .
٢- سورة النساء الآية : ٧٦
٣- سورة المائدة الآية : ٦٠ .
٤- سورة النحل الآية : ٣٦
٥- سورة الزمر الآية : ١٧
٦- بيان للناس من الأزهر الشريف ص ١٧٦ ، ١٧٧

العبد لسيده ، ومنه حديث « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط »[1]

والكفر بالطاغوت جحده وإنكاره ، واجتناب الطاغوت عدم اتباعه أو الاعتقاد أن له طاعة واجبة ، وألا نطيعه فعلا ، وأن نكذب بدعوته الخارجة عن حد الله[2]

والكفر بالطاغوت يقتضى التخلي عن كل رب باطل ، والكفر بكل إله زائف ....

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[3]

١- رواه البخارى

٢- دعاة لا قضاة ص ١٦١ - ١٦٣ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٣ ص ٢٨١

٣- سورة يوسف ، الآية : ٣٩

لا إله إلا الله

هي قاعدة الدين ، وأساس الإسلام . وهى التى يقوم عليها بناء العقيدة وترتكز إليها التكاليف والفرائض ، وبها تصح العبادات وتستمد منها الحقوق والواجبات ، القاعدة التى يجب أن تقوم أولا قبل الدخول فى الأوامر والنواهي ، وقبل الدخول في التكاليف والفرائض ، وقبل الدخول فى الأوضاع والنظام ، أو الشرائع والأحكام . يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم ، كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم .

لا يشركون معه أحدا فى ألوهيته ، ولا يشركون معه أحدا فى ربوبيته ، كذلك يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شئون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار ، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين ، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف فى شئون العباد فى عالم الحكم والشريعة كلها سواء [1].

اعتراف بهذا كله ، وتوحيد خالص فى هذا كله وبعد عن شوائب الشرك فى هذا كله فى ربوبية ، أو ألوهية ، أو أسماء أو صفات أو ذات ، فى حاكمية ، في تشريع ، فى عبادة ، فى عمل ، الشرك هو جريمة الجرائم ، وكبيرة الكبائر ، وفاحشة الفواحش ، وأول منهى عنه ومذموم فى كل دين ورسالة وكتاب .

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة ، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد .

إن الشرك فى صوره هو المحرم الأول ، لأنه يجر إلى كل محرم ، وهو المنكر الأول الذى يجب أن يحشد الإنكار كله له حتى يعترف الناس أنه لا إله إلا الله ، ولا رب لهم إلا الله ، ولا حاكم لهم إلا الله ، ولا مشرع لهم إلا الله ، كما أنهم لا

١- اقتباسا من ظلال القرآن - سيد قطب

يتوجهون بالشعائر لغير الله .

ونأخذ هذا بشىء من التفصيل حسبما يستدعيه المقام بدون إطالة مملة أو وجازة مخلة فنقول - وبالله التوفيق -: من هذا الذى ينبغى أن يكون إلها مع الله ؟ أو من دون الله ، أو شريكا له ، أو حتى معينا له ؟!!

أهو الصنم ، أم الشجر ، أم النار ، أم البقر ؟

أهى النجوم ، أم الشمس ، أم القمر ؟ أهو النمرود ، أم فرعون أو قارون ؟

أهو موسى أم عيسى أم آدم أم غيرهم من الأنبياء ؟

أهو الجن أو أحدهم . أم الملائكة أو زعيمهم أم من منهم ؟

أمن هو ؟ وما الذى يرشحه لهذا المنصب الخطير ؟ [1] لقد عبد الناس أربابا من دون الله !!

وإننا لو استعرضنا جوانب التاريخ لرأينا أن من عُبِدَ من دون الله هم هؤلاء وأمثالهم ؟ ولو استقرئنا جوانب التاريخ أيضا لعرفنا أنه ما من واحد منهم أثبت شجاعته ، وأظهر كبرياءه ، وظل فى منصبه أو تمادى فى ألوهيته ، واستقر على ربوبيته . بل سنرى كما يذكر لنا القرآن والتاريخ الصحيح ، ماذا حدث لهؤلاء ؟ وسنعرض لهذا بشىء من الإيجاز .

من يصلح من هؤلاء أن يكون إلها أو شريكا مع الله ؟

الصنم : ذلك الحجر الأصم الأبكم الذى لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر ، ينحت ثم يبال عليه ثم يعبد . فهل ذلك الحجر الذى هو قطعة من الأرض - بل الأرض كلها - تصلح لتكون إلها خالقا رازقا ؟!!

١- اقتباسا من كتاب " عقيدة المسلم " للشيخ الغزالى

أم ذلك الشجر ؟ فهل من شجرة مهما تأصلت جذورها ، أو طال ساقها ، أو اخضرت أوراقها ، أو أينعت ثمارها ، أو طال أمدها ، تصلح لتكون إلها مع الله ، يدبر أحوال الخلق ، ويصلح شئون المخلوقين ؟!!

أم تلك النار ؟ فهل من نار مهما كبرت واشتد لهيبها ، واحمرت نارها ، وطالت مدة إيقادها ، تصلح لتكون إلها يخلق ويرزق ، أو يضر وينفع ؟!!

أم تلك الأبقار ؟ فهل من عجل مهما زاد لحمه وشحمه وكبرت قوته وتجمل لونه يصلح ليكون إلها ؟ فما الذى يوضع فى أطباق الآكلين إذن ؟!!

أم تلك النجوم أو الشمس أو القمر ؟ أرأيت شيئا يغيب ويظهر ، ويتحرك ويسكن ، ويذهب ويجئ ، ويكبر ويصغر ، ويتجزأ ويتحول ، يصلح أن يكون إلها قادرا حكيما ؟!! ولهذا كله أشار القرآن فقال ربنا الرحمن :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[1]

وفى سورة الأنعام نجد إبطال عبادة الأصنام والكواكب

فقال تعالى عن الأصنام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[2]

أصنام !! لم وكيف ؟ هل استطاعت أن تدافع عن نفسها حتى تدافع عن غيرها ساعة أن حطمها وكسرها سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأين كانت عقول

١- سورة الأعراف الآية : ١٩٥

٢- سورة الأنعام الآية : ٧٤

عبادها ساعة أن قالوا :

﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

الألهة التى تفعل أم التى يفعل بها ؟ ثم لِمَ لمْ تدافع عن نفسها ساعة أن قال سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾[2]

إلي غير ذلك .

وعن الكواكب أخبرنا ربنا أنه أبطل عبادتها على يد سيدنا إبراهيم ، وقد أثبت ذلك لعباد الكواكب على سبيل التدريج بهم ، فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾[3]

...... الآيات

أم هو النمرود ؟ فهل يصلح أن يكون إلها ؟ لقد عُرف أن الإله قادر مريد ، فهل النمرود كذلك ؟ لقد عجز عن أمر بسيط من أمور المخلوقات ، فهل العاجز يصلح ليكون إلها ؟! . قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[4]

١- سورة الأنبياء الآية : ٥٩
٢- سورة الأنبياء الآية : ٦٣
٣- سورة الأنعام الآية : ٧٦ - ٧٩
٤- سورة البقرة الآية : ٢٥٨

أم لعله فرعون موسى الذى قال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾(1)

وكذلك قال :

﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(2)

فها هو فرعون فى بيته لا يستطيع إنجاب الولد ، لذلك قالت امرأة فرعون عن موسى

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾(3)

ولا يستطيع مجابهة زوجته ساعة أن قالت :

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(4)

وها هو مع قومه بعد أن توعدهم

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾(5)
.....الخ

وها هو فى حياته يدق عليه إبليس باب بيته ، فيرد فرعون متسألا : من

١- سورة القصص الآية : ٣٨
٢- سورة النازعات الآية : ٢٤
٣- سورة القصص الآية : ٩
٤- سورة التحريم الآية : ١١
٥- سورة طه الآية : ٧١ - ٧٢

بالباب ؟ فيقول له إبليس - فى سخرية واستهزاء -: تبًا لك، إله ولا تعلم من وراء الباب ؟!

ثم ها هو فى نهايته ، يجرى ويلهث وراء موسى ومن آمن به إلى أن يدركه ، فماذا كانت النهاية؟ لقد غرق،فهل رأيت من إله يغرق ؟ سبحان الله !!

قال تعالى :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[1]

أم لعله قارون ، ذلك الذى قال عن ماله وكنوزه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[2]

وفرح واستكبر ، فماذا كانت النتيجة ؟

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[3]

أم هو الجن ، فما الذى يؤهله ، وأى ميزة ترشحه ، عرفناه مخلوقا ككل المخلوقات إن لم يكن أقل . قال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾[4]

١- سورة يونس الآية : ٩٠ - ٩٢
٢- سورة القصص الاية : ٧٨
٣- سورة القصص الآية : ٨١
٤- سورة الأنعام الآية : ١٠٠

كما قال :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾(1)

أم هم الملائكة أو أحدهم ، هم كذلك خلق من خلق الله ، وإن علوا ، قال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(2)

وكذلك :

﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(3)

ورد ربنا عليهم فى كلمة واحد " أشهدوا خلقهم " ؟ قال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾(4)

أم هو العزير أو عيسى كما زعموا ؟ وكما حكى الله في كتابه عنهم فقال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(5)

ثم نقول بالنسبة لعيسى عليه السلام : لِمَ كان عيسى بالذات ولدا لله ، ثم ما وجه الحاجة إليه ؟ ثم ما الذى يرشحه ليكون ولدا لله دون بقية الخلق ؟

فلئن قالوا : إنما اختير عيسى بالذات لأنه خلق بدون أب ، قلنا : ذلك له

١- سورة الأعراف الآية : ١٩١

٢- سورة النساء الآية : ١٧٢

٣- سورة الأنعام الآية : ١٠٠

٤- سورة الزخرف الآية : ١٩

٥- سورة التوبة الآية : ٣٠

مثاله فى الكون، وهو أمثلة على قدرة الله تعالى يخلق بسبب، وبدون سبب. فلئن كان عيسى خلق بدون أب ، فحواء خلقت بدون أم . وآدم خلق بدون آب وام ، والملائكة كذلك ، فما الميزة إذن ؟ بل الميزة لغيره إذ أن آدم عليه السلام خلق بدون أب وأم ، وسوّاه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وخلقه فى الملأ الأعلى ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ولم يجر من مجرى البول ولم يكن طفلا أو رضيعا ، ومع ذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(1)

بل الملائكة فى الخلق أعلى درجة من هذا أو ذاك ومع ذلك

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(2)

ثم نقول ما وجه الحاجة إليه ؟ أآلله محتاج إليه فى شئونه وأعماله ؟! سبحانه وحاشاه تعالى ، هو الغنى عن العالمين . القائل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾(3)

أم أن الله يحتاجه كولى عهد له من بعده ؟ سبحانه وتعالى حى دائم

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(4)

وكذلك :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾(5)

ثم نقول : ما الميزة التى امتاز بها عيسى عن الخلق جميعهم حتى يكون ابنا لله ؟ فقد عرفنا أن الابن فيه كثير من خصائص الأب ، فابن الغنى يتضح

١- سورة آل عمران الآية : ٥٩
٢- سورة النساء الآية : ١٧٢
٣- سورة فاطر الآية : ١٥
٤- سورة القصص الآية : ٨٨
٥- سورة الفرقان الآية : ٥٨

عليه غنى أبيه ، وابن الملك تتضح عليه علامات الإمارة ، وأبناء الرؤساء والملوك ، فما الذى امتاز به عيسى حتى يكون ابنا لملك الملوك ، والغني عن العالمين ؟ لقد عرفنا عنه كما حدثنا القرآن أنه كان بشرا كبقية البشر ، وأنه لم يتميز عنهم في شيء حتى فيما يراه الإنسان خسيسة فى نفسه وهو " البول والغائط " .

فلقد رأينا أن عيسى عليه السلام يأكل ويشرب ، ويبول ويتغوط ، وينام ويستيقظ ، ويولد ويموت ، فهل من كان كذلك يصلح أن يكون إلها أو ابنا للإله ؟ والقرآن يحكي ذلك في مشاهد فيقول :

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (1)

وقال سبحانه أيضا :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (2)

وكذلك قال :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (3)

كما قال سبحانه :

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾ (4)

١- سورة المائدة الآية : ١٧
٢- سورة المائدة الآية : ٧٢ - ٧٦
٣- سورة الزخرف الآية : ٥٩
٤- سورة المائدة الآية : ٧٥

ويقول جل وعلا :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ ﴾[1]

الآيات إلى آخر السورة .

ولذلك نقول : إنه لمن المستحيل أن يوجد فى الكون إلهان ، وكيف يكون ؟ ونوضح ذلك بأسلوب آخر ، فنقول : إذا أراد الإله الأول أن يحي " عمر " مثلا ، وأراد الآخر أن يميته ، فالأمر واحد من ثلاثة : إما أنه لا تنفذ إرادة هذا ولا ذاك ، فيكون كل منهما عاجزا ، والعاجز لا يصلح إلها ، أو أنه تنفذ كلمة وإرادة كل منهما ، فيصبح " عمر " حيا وميتا فى آن واحد ، واجتماع النقيضين مستحيل ، وإما أن تنفذ كلمة وإرادة أحدهما ، ويعجز الآخر أمامه فيكون صاحب الإرادة والقدرة هو الإله الحق ، والآخر عاجز فلا يصلح . ومن هنا كان قانون الله في قوله :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2]

وبالرؤية والواقع لم تفسد السموات والأرض فدل ذلك علي وحدانية الخالق . وكذلك قوله :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3]

١- سورة المائدة الآيات : ١١٦

٢- سورة الأنبياء الآية : ٢٢

٣- سورة المؤمنون الآيات : ٩١ ، ٩٢

وقوله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[1]

فدل ذلك على أنه

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[2]

وكذلك :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[3]

١- سورة الإسراء الآية : ٤٢ ، ٤٣

٢- سورة محمد الآية : ١٩

٣- سورة الإخلاص بكاملها

الإيمـان بالله :

- وجـود الله .
- توحـيد الله .
- كمـال الله .

وجـود اللـه :

أسباب الإلحاد .

أدلة الوجـود العقلية .

أدلة الوجـود الشـرعية .

هذا ، وبعد أن عرفنا أن كلمة التوحيد تقتضى التخلى عن الشركاء والأرباب الزائفة . فى نصفها الأول " لا إله " ومعناه الكفر بالطاغوت ، فإنها تقتضى كذلك - التحلى بالإيمان بالله ، فى نصفها الثانى " إلا الله " وهذا الإيمان بالله ، لابد له من أمور أساسية لا يتحقق إلا بها ، وهى " وجود الله عز وجل ، وتوحيده ، وكماله "

أولا : ماذا عن قضية وجود الله تعالى ؟

نقول - وبالله التوفيق : وجود الله تعالى من البداهات التى يدركها الإنسان بفطرته ، ويهتدى إليها بطبيعته وليس من مسائل العلوم المعقدة ، ولا من حقائق التفكير العويصة . ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء . واقتراب المسافة جدا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]

هذا وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية ، لا لإثبات وجودها ، فإنهم - أى الناس - وإن عرفوا الله بطبيعتهم ، إلا أنهم أخطأوا فى الإشراك به والفهم عنه[2] قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[3]

وقال الإمام الغزالى فى " الإحياء " : اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، ولكن ترى الأمر بالضد من ذلك ، فلابد من بيان السبب فيه ، وعلة هذا القصور .

١- سورة إبراهيم الآية : ١٠

٢- عقيدة المسلم للغزالى ص ١٤ ، ١٥ بتصرف

٣- سورة الأنبياء الآية : ٢٥

ذلك ، وما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان ، أحدهما : خفاؤه فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله ، وثانيهما : ما يتناهى وضوحه .

إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، ولكن لشدة ظهوره ، فإن بصره ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبب لامتناع إبصاره ، فلا يري شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ... حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض .

فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر بظهوره . ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى إنه لا ضد له ، يعسر إدراكه . ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، ما كان أيسر جحوده لو أنه دائم البقاء . وما أكثر الكافرين به . لكن لنور الشمس حالا أخرى .. فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض ويحدث فى الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس . فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد . هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك المحسوسات إذ هو ظاهر فى نفسه ، وهو مظهر لغيره ، أنظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا جريان ضده ؟

فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدمت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدركت بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به ، وبعضها موجودا بغيره ، لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة .

ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه - فلا جرم أنه أورثت شدة الظهور الخفاء ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام [1]

وينكر ضوء الشمس من ليس ذا بصر   وينكر صوت الرعد من به صمم

فهل إذا أنكر الأعمى ضوء الشمس دل ذلك على عدم وجودها ؟

وهل إذا أنكر الأصم صوت الرعد دل ذلك على عدم حدوثه ؟ !!!

لا ، وألف لا .

وهل كل ما لا يرى ينكر ؟

لقد أنكر الملاحدة قديما وحديثا وجود الله عز وجل لعدم رؤيتهم له ، وهل كل شيء فى الوجود نراه ؟

- إننا نؤمن بوجود الروح وندرك أننا أحياء ، ولسنا نرى الروح أو نعلم ماهيتها . فإننا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط - مثلا - كان كونه حيا عندنا ، من أظهر الموجودات ، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للكتابة أو الخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، وإن كنا لا نرى بأعيننا حياته وقدرته وإرادته إلا بحركته ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده .

فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء - داخل فى نفوسنا وخارجها - إلا وهو شاهد عليه ، وعلى عظمته وجلاله . ؟ !

إذ كل ذرة فينا نحن البشر تنادى بلسان حالها ، أنه ليس وجودها من نفسها ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك

١- إحياء علوم الدين للغزالى

كل جزء فينا ، وكل شيء في الكون حولنا .

فماذا يقول المرء فى وجود الله الذى لا تحصى أدلته لكثرتها ، وماذا يقول فى أوصافه التى يشهد كل شيء بعظمتها ؟

إن وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته ، يشهد له - بالضرورة - كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة .

* كما أننا نؤمن بوجود العقل ، وندرك أننا عقلاء ، ومع ذلك لا نرى العقل ولا نعرف ماهيته ، والذى يطلب منا أن ننكر كل ما لا نراه ، ولا يقع تحت حس الحواس الخمس ، عليه أن يعلن أمام الجميع أنه مجنون ، وساعتها لا نصدقه ولا نسمع منه ، لأنه رفع عنه التكليف .

ومما يستأنس به أن مدرسا ممن أرادوا تعليم الشيوعية للتلاميذ ، قال لهم : أى أولادى : أترون الباب ؟ أترون الشباك ؟ أترون السبورة ؟ أترون الأستاذ ؟

والإجابة فى كل هذا : نعم فيقول لهم : إذا هو موجود . أترون الله ؟ قالوا : لا ، قال :- إذا هو غير موجود .

فقام تلميذ نجيب ، يقول مثلما قال الأستاذ ، ويسأل نفس أسئلته ، إلى أن قال : أترون الأستاذ ؟ قالوا : نعم ، قال : فالأستاذ موجود ، ثم قال : أترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال : فعقل الأستاذ غير موجود ، الأستاذ مجنون . !!

ونوقن بوجود الجاذبية الأرضية " ولم تقع تحت حواسنا " ومع ذلك فهى حقيقة علمية لا سبيل إلى إنكارها .

- ونعتقد بوجود الكهرباء ، ولا نعلم ماهيتها ، ولكننا اعتقدنا وجودها

لرؤية آثارها وهو الضياء والنور . !!

فالأثر يدل على المؤثر ، والصنعه تدل على الصانع ، والكلام يدل على المتكلم ، والدليل يدل على المدلل ، والعلم يدل على العالم ، وهكذا .

أو لسنا ندل بأنفسنا وأجسامنا وحواسنا وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا ، فى حركاتنا وسكناتنا على خالقنا وربنا ؟ !

أو ليس كل ما نشاهده من حجر ومدر ، ونبات وشجر ، وحيوان وجماد ، وسماء وأرض ، وكواكب ، وبر وبحر ، ونار وهواء ، وذرة ومجرة ، وجوهر وعرض ، يدل على الله الخالق البارئ المصور ؟ !!

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ومع ذلك .. فرؤية الله عز وجل ليست مستحيلة ، وإنما نحن الذين لا نستطيع رؤيته مع ضعفنا هذا وحالنا تلك ، فإذا غيَّر الله حالنا ، وغرس فينا قوة أخرى فإننا نستطيع رؤيته سبحانه وتعالى ، وهذا يقع لأهل الإيمان ، فى الآخرة ، وفى جنة النعيم ، قال تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1]

كما قال سبحانه :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2]

والزيادة هى رؤية الله عز وجل في الآخرة للمؤمنين . وأما فى الدنيا ، فإننا لا نستطيع ذلك - بحالنا هذه - وقد ضرب الله عز وجل لنا المثل بالكليم " موسى " عليه السلام - وأنه مع نبوته وقوته ، وكلامه مع الله - وكلام الله له ، لم يستطع رؤية الله عز وجل . إذ عجز الجبل - مع قوته ورسوخه - أن

١- سورة القيامة الآيات : ٢٢ ، ٢٣ ٢- سورة يونس الآية : ٢٦

يتحمل رؤية الله عز وجل فدك الجبل . فكيف بموسى ؟ !!

لقد خر موسى صعقا ، لا لرؤية المتجلِي وهو الله سبحانه ، ولكن لرؤية المُتَجلىَ عليه وهو الجبل ، وكان هذا حاله ، فكيف برؤية الله تعالى ؟ !!

قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾

- ولم يقل لن أرى - والفارق بينهما واضح -

﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

فرؤية الله لا تقع في الدنيا لأحد من الناس ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج على خلاف بين العلماء ، فالذى قال بالرؤية ، قال : إنه صار على صورة أخرى حتى يتمكن من الرؤية . وفريق منع الرؤية ، كما حكاه غير واحد من الصحابه ، ومنهم عائشة رضى الله عنها قالت : « من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » ، وهو الراجح فى المسألة . والله أعلم

١- سورة الأعراف الآية : ١٤٣

أسباب الإلحاد

هذا الإلحاد الموجود فى بعض الناس ليس دينا ولا فطرة ، ولا شيئا أملاه العقل ، أو تقبله النفس ، أو يستريح له الفؤاد .

ولكنه نتيجة ردود فعل عنيفة ،لبيئة فاسدة ، شديدة الخطورة على الفطرة .

فالبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة ، فهى تمسخها وتشرد بها ، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب ، وتسيغ الفج ، وذاك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح ، وقبولهم للكفر والشرك ، مع منافاة ذلك لمنطق العقل ، وضرورات الفكر وأصل الخلقه .

كما فى الحديث القدسى « إنى خلقت عبادى كلهم حنفاء ، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ... »

وقد اقترنت حضارة الغرب التي تسود العالم اليوم - بنزوع حاد إلى المماراة فى وجود الله ، والنظر إلى الأديان جملة نظرة تنقص ، أو قبولها كمسكنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها .[1]

إن الإلحاد بإنكار الخالق عز وجل لم يعرف بين أجناس البشر بصورة واضحة إلا فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر الميلاديين ، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعى الماركسى المدمر ، والذى نكبت به أوربا وأنحاء كثيرة من العالم .

وإن العوامل التى ساعدت على انتشار الإلحاد فى العالم ومكنت للمذهب الشيوعى الإلحادى المدمر فى أوربا وغيرها قد تكون كثيرة ، غير أن أهمها ما يلى :

(١) ظلم الكنيسة النصرانية ، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية ، واستذلالهم ، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية .

١- عقيدة المسلم للغزالى ص ١٥ بتصرف

(٢) فساد الديانة النصرانية وبطلانها . منافاتها للعقول ، وأسطورة بنوة عيسى أو ألوهيته المزعومة ، واستغلال صكوك الغفران والحرمان ، وكراسى الاعتراف .... الخ .

وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية ، الأمر الذى يسهل على الناس من أتباعها التنكر لها ، والكفر بها بمجرد وجود الإستطاعة أن يفلت من زمامها [١].

هذا - ومثل هذه الظروف ، جعلت الكثير من المتنورين من أهلها يكفرون بالدين ويجحدون الله ، أو يشكون فيه ، والواقع أنهم لم يكفروا بالدين الحق ولا بالإله الحق ، وإنما كفروا بإله الكنيسة الغربية ودينها ، إذ وقفت الكنيسة فى أوربا تؤيد الظلم وتحارب النور ، تؤيد الجهل وتحارب العلم ، تؤيد الإقطاع وتحارب العدل ، تؤيد الملوك وتحارب الشعوب ، تؤيد الخرافه وتحارب الفكر . فلما اندلعت الثورات الداعية إلى الحرية والمساواة كان نداء رجالها « أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » لقد حكمت الكنيسة يومئذ بإعدام الألوف من العلماء والمفكرين وتخريق أجسامهم بالمسامير ، بل حاكمت جثثهم بعد موتهم ، فعلت الكنيسة ذلك كله بإسم الدين ، وباسم الله وباسم المسيح ، فلما رأى ذلك أحرار الفكر وعشاق العلم ، كفروا بإله تمثله هذه الكنيسة ورجالها وآمنوا بما عندهم من العلم ، وأعظم ما زهّد الناس فى الدين فساد دعاته ، وانحراف منتحليه ، وخصوصا فى دين يحجر على الناس أن يعرفوا الله أو يتصلوا به ،أو يطرقوا بابه إلا عن طريق كهنوتية خاصة تسمى " رجال الدين " [٢].

ومن هنا قامت فى أوربا مذاهب تقوم فلسفتها على الحس والمادة ، وتنكر ما وراء ذلك من الغيبيات فلا إله ، ولا وحى ، ولا ملائكة ، ولا آخرة ولا جنة

١- عقيدة المؤمن ص ٨٩ بتصرف

٢- وجود الله د. يوسف القرضاوى ص ١٠ ، ١٦ بتصرف .

ولا نار .

وبلغ الجحود والإلحاد قمته فى المذهب : " الماركسى " الذى تبنى ما زعمه " نيتشه " أن " الدين أفيون الشعوب " وما زعمه غيره من أنه « ليس الدين إلا حيلة اخترعها الأغنياء والأدباء ، ليلهوا بها الضعفاء والفقراء ، ويمنوهم بنعيم الآخرة ، لينفردوا هم بنعيم الدنيا » .

وقال كارل ماركس فى ذلك : « إن الله لم يخلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله [1] ثم جعل له مذهبا ، مبدؤه الأول " لا إله ، والحياة مادة " .

(٣) طفرة العلوم الكونية والصناعية والآلية ، طفرة أدهشت العقول وحيرتها ، الأمر الذى حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتى باسم العلم ونظرياته ، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة ، معلوم كذبها ، ومعروف كذبها . وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية ، ويصبح قابلا لكل ما تمليه عليه ، مستجيبا لكل ما تدعوه إليه مصدقا لكل ما تقوله وتجذبه ،

(٤) ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ ، ونفوره من القيود والأنظمة التى تحد من ميوله ، وتوجه غرائزه ، لا سيما إذا وجد مشجعا على ذلك ، مؤيداً له فى نزعته التحررية ، الإباحية ، التحللية من كل القيود الأخلاقية والالتزامات الدينية الشرعية .

لذا لم يكتف " فرويد " بمذهب ماركس حتى أسس هو مذهب " الوجودية " مشتملا على الإلحاد كما هو عند " ماركس " مضيفا إليه عنصر الغريزة والشهوة والنزعة الحيوانية .

(٥) غيبة الحكم الإسلامى ، وخفوت نور الإسلام ، وتقلص ظل سلطانه الروحى ، وانحسار مده الخيرى الذى كان يعطى البشرية في شتى أنحاء العالم

١- وجود الله د. يوسف القرضاوى ص ١٦

طاقات كبيرة من القيم الروحية والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة .

إذ الفترة التي ظهر فيها المذهب المادى الشيوعى كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات ، وحل بدياره الدمار ، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار ، نتيجة لكيد أعدائه له ، وغفله بنيه عنه ، فوجد ذلك المذهب الإلحادى الجو خاليا للتضليل ، والمغالطة والفساد ، فحكم على الأديان كلها بالبطلان ، ونسب كل ضعف في الناس إليها ، وكفر بها ، وحاربها ، ووجه نقده إليها بلا هوادة (١) .

هذا والإلحاد لا يأخذ صورة واحدة ، فى محاربة الأديان عامة والإسلام خاصة ، ولكنه يتلون بكل لون " كالحرباء " ويغير ثيابه كلما بليت " كالأفاعى " وينطوى تحت رايات مختلفة ، تعمل علانية ، أو من وراء ستار ، فهو مرة شيوعية أو ماركسية

" وتارة وجودية " وأخري " علمانية " وحتي فى صورة " الجمعيات الماسونية ، والتنظيمات الصهيونية " وهذه لها أسماء عدة ، ورايات مختلفة . والهدف الأول هو القضاء على الإسلام ثم بقية الأديان ، لتصل حفنه من البشر " من اليهود " إلى قيادة العالم ، ولو على جماجم البشر !!

وكانت " أوربا " هي الضحية الأولى لهذا الإلحاد ، ولن تكون هي الوحيدة إذا لم يوقف هذا الإلحاد عند حده ، ويجد القوة التى ستعارضه وتقضى عليه ، ولن يكون ذلك إلا بالإسلام الذى سيظهر على كل دين ، بإذن رب العالمين

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

١- عقيدة المؤمن ص ٩٠ بتصرف

٢- سورة الصف الآيات : ٨ ، ٩

أدلة وجـود اللـه " تعـالى "

وحديثنا عن أدلة الوجود ، من باب مجادلة الملاحدة بالتى هي أحسن والنزول إلى مستواهم في المناقشة ، من باب

﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1]

وكذلك فحديثنا لهم أو مجادلتنا معهم ،قبل أن تكون بالقرآن الكريم وهو دليل الأدلة ، كانت بالعقل ، ذلك الأمر المتفق عليه بيننا وبينهم ، أما القرآن فنحن نؤمن به ، ولذا سنذكر أدلته فيما يختص بنا ولا نحاجهم به ، لعدم إيمانهم به .

ولا شك أن الأدلة فى هذا الباب شىء يفوق الحصر والعد ، ثم هي من الوضوح بمكان ، مع أن الأمر أبسط وأوضح من أن يحتاج إلى برهان أو دليل ، كما قال الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شىء إذا إحتاج النهار إلى دليل

فما البراهين والأدلة التى يقدمها المؤمنون لإثبات وجود الله عز وجل لدى الشاكين والملحدين ؟

(أ) « دليل الخلق والحدوث ، أو العلة والكون »

قالوا : من الأمور المسلم بها عقلا والمعروفة تجربة وحسا وواقعا أن كل حادث لابد له من محدث ، وباعتبار أن هذا الكون - كما عليه الإجماع من العقلاء - حادث ، إذن لابد له من محدث .

١- سورة الأعراف الآية : ١٦٤

وأن هذا الكون موجود ، فلابد له من موجد ، ومخلوق فلابد له من خالق فمن الذى خلقه ؟

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾(١)

إذن فإنكار محدث الحوادث ،وموجد للوجود ، تكذيب للواقع ، وتناقض مع العقل ، ونسف لمبدأ السببية الذى هو مفتاح العلم ، ومصدر الحقائق .

إن المتأمل للمخلوقات الحية المنبثة هنا وهناك ، والمنتشرة فى عوالم هذا الكون ، يجد ملايين الملايين من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأنواع والأجناس ، كل جنس وكل نوع له خصائصه ومزاياه وشكله وصورته وطرق تغذيته وطرق حياته وبقاء نوعه وسلالته .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النوعيات والأجناس حين قال :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢)

كما أنه أشار إلى الخصائص والمزايا ، والشكل والصورة ، وطرق الحياة ، حين قال :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾(٣)

فهذه النوعيات والأجناس من الكائنات الحية المنتشرة فى الكون . وهذه

١- سورة الطور الآيات : ٣٥ ، ٣٦
٢- سورة النور الآية : ٤٥
٣- سورة الأنعام الآية : ٣٨

الخصائص والمزايا الموجودة فيها ، ألا تدل على أن الله سبحانه هو الذى بدأ خلقها ، وصور أشكالها ، وقدر أقواتها ، ونفخ فيها روح الحيوية والحياة ؟

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (١)

فهل يستطيع أحد فى هذا الوجود مهما أوتى علما وقدره وذكاء ، أن يخلق كائنا حيا بعد أن لم يكن ؟ القرآن الكريم يتحدى البشر أن يخلقوا ذبابة إن كان فى مقدورهم ، فإن ثبت عجزهم ، أفلا يدل على أن المحى والمميت هو الله سبحانه وتعالى ؟

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (٢)

هذا فضلا عن خلق الإنسان فهو أعجب وأعظم لما امتاز به من العقل ، ولما أوتى من الفهم والعلم ، ولما أعطى من ملكة التعبير والبيان ، ولما فطر عليه من حسن الهيئة والصورة ، ولما سخر له ما في السموات والأرض ، ولما أودع فيه قدرة فائقة ، وطاقة هائلة ، وذكاء فريد . ويكفى الإنسان فضلا وفخرا وكرامة أن يقول الله عنه في محكم تنزيله :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٣)

فكل هذه الخصائص والمزايا التى ركبها الله في الإنسان ، تدل دلالة تامة

١- سورة العنكبوت الآية : ٢.
٢- سورة الحج الآية : ٧٣
٣- سورة الإسراء الآية : ٧.

على الخالق المبدع ، والإله الحكيم القادر

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1]

ولعل قائلا يقول : إن هذا العالم قديم أزلى ليس لنشأته بداية . فنقول : فكرة قدم العالم منقوضة من الناحية العلمية ، ومن الناحية العقلية [2] ، كما قال الأستاذ " فرانك ألن " أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة " مانيتوبا " بكندا :

كثيرا ما يقال : إن هذا الكون المادى لا يحتاج إلى خالق ، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال .

١- فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده .

٢- وإما أن يكون هذا الكون نشأ من تلقاء نفسه من العدم .

٣- وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية .

٤- وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول : فإنه لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال لسخافته . وأما الرأى الثانى : الذى يقول : إن هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ، والرأى الثالث الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية ، إنما يشير مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون ، وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية والقدم . وإذن فنحن إما أن

---

١ - سورة الإنفطار الآيات : ٦ - ٨

٢ - شبهات وردود للأستاذ ناصح علوان ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ بتصرف

ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق ، ولكن قوانين الحرارة تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الإنخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .. أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث .

ومعنى ذلك : أنه لابد لأصل هذا الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه [1] .

فالذى نخلص إليه بعدما تقدم أن هذا الكون ما دام فيه حرارة وما دام فيه حركة وسكون - فلا يمكن أن يكون قديما ، وإذا كان ليس قديما فهو إذن حادث ، وإذا كان حادثا فلابد له من محدث ، والمحدث هو الله سبحانه وتعالى

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [2]

إن الإنسان لم يخلق نفسه ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى يدرج فوقها ، ولا السماء التى يعيش تحتها ، والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك .

فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جماد ، ومن المقطوع به كذلك أن شيئا لم يحدث من تلقاء نفسه ، فلم يبق إلا الله .

١- الله يتجلى فى عصر العلم ص ٥

٢- سورة الذاريات الآيات : ٢٠ ، ٢١

وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1]

ولا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة . فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئا يذكر

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾[2]

وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة ، وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعمارا محدودة مهما طالت فقد كانت قبلها صفرا .

وكان هناك ظن بأن المادة لا تنفى ، اعتمد عليه فريق من الناس فى القول بقدم العالم وما يتبع ذلك القدم الموهوم من أباطيل ، على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن ، ولو لم يتم تفجيرها ما قبلت هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة ، فإن المفتاح الذى يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضرورى أن يضعه الله فى أيدى العلماء ، وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمر الكون ، لا يعنى أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء. ولم لا يكون ذلك حصانة أقامها القدر الأعلى حتى يمنع العالم من الانتحار ؟ إننا جازمون بأن وجودنا محدث ، لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك ، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود، تطورا ذاتيا.

إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها ، قيل : إن الفاعل مجهول ، ولم يقل أحد قط : إنه ليس لها فاعل ، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟ إننا لم نكن شيئا ، فكنا فمن كوننا ؟

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[3]

ا . هـ .[4]

١- سورة الطور الآيات : ٣٥ ، ٣٦

٢- سورة الإنسان الآية : ١

٣- سورة الأنعام الآية : ٩١

٤- عقيدة المسلم ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ بتصرف

والمراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث أى إبراز الشئ من العدم إلى الوجود . وذلك مثل : خلق الحياة فى الكائنات الحية على ظهر الأرض التى بث فيها من كل دابة وأنبت فيها من كل زوج بهيج ، ومثل خلق الإنسان العاقل الذى لم يكن شيئا مذكورا ثم كان ، ومثل خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الناس ، وقد دلنا الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية ، وسعة المسافات بينها حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية .

ترى : من خالق الحياة على هذه الأرض ؟ ومن خالق هذا الإنسان العاقل المفكر ؟ ومن خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه ؟ هل وجدت الحياة ووجد الإنسان ، ووجدت المخلوقات العلوية والسفلية وحدها بلا موجد ، أم لابد لها من خالق أوجدها ؟ ومن هو ؟ إنه بمنطق الإيمان " الله عز وجل " وقال المتكلمون : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، ولابد أن يقف العقل عند محدث غير حادث ، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان . وذلك المُحْدِثُ هو الله ، والعلم الحديث يقر بحدوث العالم ، ويرجع حدوثه إلى ملايين يقدرها من السنين ، ولكن ماذا يقول الملحدون فى ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب ؟ [1]

من شبهات الملاحدة : [2] هذا الكون وجد مصادفة !!

يثير بعض الملاحدة أن هذا الكون ليس من صنع خالق ، وإنما وجد مصادفة دون أن يكون للقدرة الالهية أى تأثير فيه ، ونريد أن نناقش هذا الادعاء على ضوء العقل والعلم ، لنعرف مبلغه من الحقيقة ، ومقداره من الصواب .

إن المصادفة في نظر العقل تنقسم إلى قسمين :-

١- وجود الله ، للقرضاوى ص ٢٨ ، ٣١ بتصرف

٢- شبهات وردود حول العقيدة الربانية وأصل الإنسان ص ٤٥ - ٤٧ بتصرف

١- مصادفة ممكنة ٢- مصادفة مستحيلة

أما المصادفة الممكنة فصورتها : مهندس مدنى أشرف على نسف جبل صغير في جهة من الجهات ، ولما قام بعملية تفجير الألغام ، إذ بالأحجار تتناثر هنا وهناك ، فَتَكَوَّنَ عن طريق الصدفة بيت صغير ، لم تظهر عليه روعة الهندسة ولا تصميم البناء ، فتشكيل البيت مصادفة بهذا الوصف وبعد عملية النسف ممكن عقلا ، إذ الواقع يؤيده والعقل يصدقه أو يحتمله . أما المصادفة المستحيلة فهى التى يحكم العقل ببطلانها لاستحالة وقوعها فى عالم الواقع ، وهى فى هذا المثل الذى يتعلق بنسف الجبل فإنه من المستحيل عقلا وعرفا أن يتكون من عملية النسف قصر منيف رائع قائم على هندسة محكمة ، وتصميم بديع من ناحية ترتيب الغرف ، وموقع الشرفات وتماسك البناء . فالعقل يكذب بداهة هذه المصادفة المزعومة ، ويحكم عليها بالاستحالة ، ويتهم من يدعيها بالهوس والجنون .

وصورة أخرى : نفترض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مصفوفة فى صناديق ، فجاءت هزة أرضية قلبت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها مع بعضها البعض ، ثم جاءك من يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف مصادفة بضع كلمات متفرقة غير مترابطة المعنى ، فالمصادفة قد تكون فى هذه الحالة ممكنة ، لأن الواقع يؤيدها والعقل يصدقها .

ولكنه من المستحيل عرفا وعقلا كذلك أن يتكون من نتيجة الهزة الأرضية كتاب كامل مؤلف من " ٥٠٠ " صفحة مثلا ، يتضمن فصولا متعددة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة الأفكار ، متساوية الأسلوب والمعانى ، لا شك أنك ترى المصادفة أمراً مستحيلاً . والعقل لا يمكن أن يصدقها ، بل يتهم من يدعيها باختلاط العقل والهستريا الفاضحة [١] .

١- عقيدة المسلم ص ٢١ بتصرف

وصورة ثالثة : لنفرض أن آلة كاتبة فى أحد الدواوين وجدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم " عمر " ماذا يعنى هذا ؟ أحد أمرين :

أقربهما إلى البداهة ، وهو أن خبيرا بالكتابة طبع الاسم على الورقة ، والأمر الثانى : أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جزافا . وهذا الفرض الأخير معناه من الناحية العلمية ما يأتى :-

الابتداء بكتابة العين ، أو سقوط حرفها وحده على الورقة دون وعى ، يجوز بنسبة (١) إلى (٢٨) وهو عدد حروف الهجاء العربية ، وسقوط حرف العين والميم معا ، يجوز بنسبة (١) إلى ٢٨ × ٢٨ . ونزول الحروف الثلاثة بعوامل الصدفة المحضة ، يجوز بنسبة (١) إلى ٢٨×٢٨×٢٨ أى بنسبة (١) إلى ٢١٩٥٢ . وليس أغبى فكرا ممن يترك الفرض الوحيد المعقول ، ويؤثر عليه فرضا آخر ، لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنين وعشرين ألف مرة .

إن إحالة الأمور على المصادفات ضرب من الدجل العلمى يرفضه أولو الألباب . والصدف حين تخط على القرطاس كلمة " عمر " أقرب إلى الذهن من تصور الصدف هذه تخلق قطرة ماء فى المحيطات الغامرة ، أو حبة رمل فى الصحارى الشاسعة .

وأين ما ذكرناه من صور المصادفة المستحيلة بالنسبة لهذا الكون الكبير المتألف الأجزاء ، المحير بإبداعه ، وروعة نظامه العقول والألباب ؟

أين القصر المنيف من إبداع هذا الكون العظيم ؟ وأين وحدة الكتاب من روعة خلق الأرض والإنسان والأفلاك ؟

إن نشوء حياتنا هذه ودوامها يقومان على جملة ضخمة من القوانين الدقيقة يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافا !!

فوضع الأرض أمام الشمس مثلا ، ثم على مسافة معينة ، لو نقصت بحيث

ازداد قربها من الشمس لاحترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان . ولو بعدت المسافة لعم الجليد والصقيع وجه الأرض ، وهلك كذلك الزرع والضرع ، أفتظن إقامتها فى مكانها ذلك لتنعم بحرارة مناسبة جاء خبط عشواء ؟!

وحركة المد والجزر التى ترتبط بالقمر ، أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمه أكثر فيحسب أمواج المحيطات سحبا يغطى به وجه اليابسة كلها ثم ينحسر عنها وقد تلاشى كل شىء؟

من الذى أقام القمر على هذا المدى المحدود ليكون مصدر ضوء لا مصدر هلاك ؟ !! إننا على سطح هذه الأرض نستنشق " الأوكسجين " لنحيا به ونطرد " الكربون " الناشئ من احتراق الطعام فى جسومنا . وكان ينبغى أن يستنفد الأحياء - وما أكثرهم - هذا العنصر الثمين فى الهواء ، فهم لا ينقطعون عن التنفس أبدا . لكن الذى يقع أن النبات الأخضر يأخذ " الكربون " ويعطى " الأوكسجين " وبهذه المعاوضة الغريبة يبقى التوازن فى طبيعة الغلاف الهوائى الذى يحيا فى جوفه اللطيف الحيوان والنبات جميعا . !! أفتحسب هذا التوافق من تلقاء نفسه ؟ !!

إننى أحيانا أسرح الطرف فى زهرة مخططة بعشرات الألوان ، ألتقطها بأصابع عابثة من بين مئات الأزهار الطالعة فى إحدى الحدائق ، ثم أسأل نفسى : بأى ريشة نسقت هذه الألوان ؟ إنها ليست ألوان الطيف وحدها ، إنها مزيج ساحر من الألوان التى تبدو هنا مخففة ، وهنا مظللة ، وهنا مخططة ، وهنا منقطة .

وأنظر إلى أسفل التراب الأعفر الذى أطلع هذه الألوان ، إنه بيقين ليس راسم هذه الألوان ، ولا موزع أصباغها ، هل الصدفة هى التى أشرفت على ذلك ؟ أى صدفة ؟

إن المرء يكون غبيا جدا عندما يتصور الأمور على هذا النحو ، وألوان الزهرة هذه ملاحظة شكلية ساذجة بالنسبة إلى ملاحظة قصة الحياة فى أدنى صورها . إن إنشاء الحياة فى أصغر خلية يتطلب نظاما بالغ الإحكام ، ومن الحمق تصور الفوضى قادرة على خلق " جزئ " فى جسم دودة حقيرة فضلا عن خلق جهازها الهضمى أو العصبى ، فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان ، الهائل الكيان ، ثم ما بالك بخلق ذلكم العالم الرحب . ؟ (١)

(٢) شبهة هذا الكون أوجدته الطبيعة

هذه الشبهة التى يثيرها بعض الملاحدة لا تقل تفاهة عن شبهة أن هذا الكون وجد مصادفة !! إن هؤلاء الطبيعين الماديين يعترفون فى دعواهم هذه ، أن هذا الكون لابد له من موجد ، ومما يدل على اعترافهم أنك لو سألتهم : من خلق السموات والأرض والشمس والقمر ؟ يقولون لك : الطبيعة . من أوجد هذا الكون وما فيه من عجائب وأسرار ؟ يقولون لك : الطبيعة . من دبر هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية ؟ يقولون لك : الطبيعة .

إذن فالطبيعة فى نظرهم هى إله العصر المزعوم فهى الموجدة وهى الخالقة . وهؤلاء الطبيعيون يشتركون مع المؤمنين فى قضية الموجد للكون فهم يقولون : الطبيعة ، والمؤمنون يقولون : الموجد للكون هو الله سبحانه وتعالى .

ولست أدرى كيف يعطون للطبيعة صفة الخلق والإيجاد ، وهى جماد أصم لا يتصف بعقل ولا تدبير ولا علم ولا إرادة ؟ كيف يعطونها صفة الخلق والإيجاد وهى خاضعة لقوانين دقيقة ونواميس ثابتة ؟ فهل يصدق عاقل أن الأرض خلقت الأرض ، والسماء خلقت السماء ، والأشياء أبدعت ذاتها ، والحياة أوجدت نفسها فهى خالقة ومخلوقة وموجدة وموجودة ؟ !!

١- عقيدة المسلم ص ١٩ ، ٢٠

فما مثل من يقول هذا إلا كمثل من يقول إن هذه الأشياء التى بين أيدينا من أدوات وأثاث وفرش وآلات ما هى إلا صانعة ومصنوعة ، ليس للإنسان فيها يد ، وليس فى إظهارها تصميم ولا تدبير .

فهل رأيت أيها القارئ الكريم فى تاريخ الفكر والبحث العلمى هبوطا فى العقل وسخافة فى المناظرة والجدل أعظم من هذه السوفسطائية المتخبطة والغوغائية الجاهلة ؟ (١)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢)

إن الطبيعة هى المادة ، وعناصر تكوينها من البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة والمواد المركبة منها ، وهى الذرات المكونة من النوى ، المشتمل كل نواة منه على بروتون ، ونيترون ، والكترون .

هل هذه العناصر من النوى والذرة والخصائص المشتملة عليها المادة أوجدت نفسها فكونت ما يسمى بالطبيعة ؟ اللهم لا إذ هو مما تحيله العقول ولا تقبله أبدا ، إن معنى هذا الهراء أن الطبيعة أوجدت نفسها أولا ثم أوجدت غيرها من الموجودات . إن المادة المركبة من عناصرها والمودع فيها خواصها وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها ويودع فيها خواصها ، وحينئذ فهى حادثة مخلوقة ، فكيف تكون إلها خالقا ينسب إليها الخلق والتكوين والإبداع والتنظيم ؟ سبحانك اللهم هذا ضلال فى العقول مبين .

المادة ميتة فكيف تخلق الأحياء ، والطبيعة صماء عمياء بكماء فكيف تخلق السميع البصير المتكلم ؟ والإنسان يستخدم الطبيعة ويسخرها له فكيف تكون خالقة له ؟

ومن بديهات العقول أن فاقد الشىء لا يعطيه ؟ وأن العقول السليمة

١- شبهات وردود ص ٥٣ - ٥٥ ٢- سورة الحج الآية : ٨

قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة ، إذ كل مركب حادث وكل حادث مفتقر إلى محدث قطعا ، كما قضى بذلك قانون العلية المسلم به عند جميع العقلاء . [1]

(٣) شبهة هذا الكون وُجِدَ بالضرورة

إن الضرورة معناها : أن التنوعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة ، فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هى التى جعلت عنقها يطول . وحاجة السمكة المُلِحَة إلى السبح فى الماء هى التى أوجدت زعانفها التى تساعدها على السباحة إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب والمنطق السقيم . وما قالوا بهذه الترهات والأباطيل إلا إمعانا فى الهروب من مواجهة الحقيقة وهى الإيمان بالله الصانع الحكيم الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته ، أو لم يروها في ذات أم الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه ، وفى ولدها الذى كان في بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته ولما انفصل عنها خرج من بطنها وحملت له الغذاء فى ضرعها ، وهدى الله ذلك المولود إلى معرفة امتصاص حلمة الثدى ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادرا على التغذى بالحبوب والفواكه والخضر ؟ أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتى إناثها مدفوعة إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الأنثى ذات اللبن ، فتوفر للإنسان لحما ولبنا وسمنا ، هو فى حاجة إلى مثلها لاستكمال غذائه الذى هو عنصر نمائه وحياته من أجله ؟ أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل فى التينة فتلقحها ، ثم تخرج منها لتدخل فى أخرى فتلقحها ، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألذ الفواكه وأكثرها نفعا له ؟

أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب وهو الضباب الناتج عن تبخر

---

١ - عقيدة المؤمن ص٣٩ . ٤٠ بتصرف

الرطوبات فى الأرض ، ومياه الأنهار والبحار وكيف يبسط الله تعالى ذلك السحاب في السماء على نسب ومقادير خاصة ، فيتكثف فى طبقات الجو ، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم يمطر حيث يأذن الله تعالى فتحيا به الأرض بعد موتها فتخرج للإنسان غذاءه من الحبوب والفواكه والخضر ؟

فليقولوا لنا : أين الضرورة فى ايجاد اللبن في الضرع ؟ وأين الضرورة فى لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة فى تلقيح ذباب التين لأنثاه حتى يكون التين ؟ وأين الضرورة فى عملية التبخر والتكثف وإثارة الرياح للسحب ونزول المطر بالمقادير والكميات المحددة والأوقات المحددة ، وفى إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة ، أين وجه الضرورة فى ذلك ؟؟

إنه لا ضرورة ، وإنما هى عناية الله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية : إن النبات والحيوان والإنسان ، هذه الثلاثة يسلم الماديون بحدوثها وبأن الإنسان أحدثها عهدا بالحياة فيقال لهم : من أحدثها ؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول :-

الأول : أن نقول : إن الله هو الذى أحدثها . والثانى : أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة ،وأجزائها وعناصرها عن إرادة وقصد وعناية بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هى عليه من صور وأشكال . والثالث : أن تكون وجدت عن طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت ، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان . فأى الفروض أولى بالصحة والقبول ؟ أما الثانى فالملاحدة يردونه ولا يقولون به لأنه ينسب للمادة قصدا وإرادة وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبدا . وأما الثالث فهو محال عقلا لبطلان قانون الصدفة وفساده كما عُلِمَ وتَقَدَّمَ فلم يبق إلا الافتراض الأول

وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها بطريق السنن المطردة التى وضعها لخلق كل المخلوقات وإيجاد هذا العالم . وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التى هى الطبيعة والصدفة والضرورة ، ووجب الإيمان بالله الخالق المدبر الحكيم العليم . [1]

١- عقيدة المؤمن ص ٤١ - ٤٣

(٢) دليل الإبداع والعناية ، أو الإلهام والهداية

قبل عرض قانون العناية الذى هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى ، والمعرفة به سبحانه وتعالى نذكر قاعدة عامة في الكون كله ، قد تخفى على غير المتأملين فى الكون ، والدارسين له وهى أنه لا مجال فى الكون للباطل ، ولا محل فيه للعبث بحال من الأحوال ، بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق ، والنظام والإحكام ، ولا يوجد جزء واحد من أجزائه خلوا من فائدة مقصودة منه ، أو حكمة متوخاة فيه ، وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمل الكون ونظر فى حقائقه ، وقد قرر هذه الحقيقة وأكدها كتاب الله القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١)

وفى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(٢)

ومثل هذه الحقيقة الكونية فى وضوحها وثبوتها قانون العناية الذى نعرضه الآن برهانا عقليا على وجود الله تعالى ، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل ، وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين :-

الأولى : خلو الكون كله من أية ظاهرة للعبث والباطل فيه .

الثانية : أن الكون كله بجميع أجزائه مسخر لخدمة نوع واحد من بين سائر

١- سورة الدخان الآيات : ٣٨ ، ٣٩

٢- سورة ص الآية : ٢٧

أنواعه ، فمن أعظم كائن فيه إلى أصغر كائن وأحقره ، الكل يخدم ذلك النوع ، وهى حقيقة مدهشة للغاية ، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية ، ومخلوقاته الأرضية ، الجميع مسخر تسخيرا خاصا لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التى حواها الكون ، وانتظمها هذا الوجود المادى القائم كما سبق بيانه .

وهذا النوع المسخر له الكون كله هو الإنسان وحده ، والمثل الذى يوضح هذه الحقيقة التى تبدو غريبة بادئ ذى بدء وعجيبة ، هو : أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناء قصر فخم كبير ، فيبنى على أحسن طراز ويُجَمْل بأحسن أنواع التجميل ، ويزود بكل أسباب الراحة ، والارتفاق بحيث يصبح آية في باب القصور الملكية في دنيا الناس متعة وجمالا ثم ينزل به ضيفا كريما عليه ، ويقول له : لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك متمتعا بكل ما فيه من خيرات ونعيم .

فالملك هو الله ، والقصر هو الكون ، والضيف هو الإنسان ، وهذه الحقيقة قد قررها القرآن أيضا ، وأكدها كالحقيقة الأولى ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١)

ولنستعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان فى الكون " مجملا " .

- فى السماء نجد الكواكب الكثيرة ، والنجوم العديدة ، وفيها الشمس وفيها القمر ، والأرض أكثر تعلقا بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية . فبالنجوم المشرقة ، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التى هى سقف لهذه الدار التى يسكنها الإنسان ويعمرها ، وبالقمر المنير ، ذى المنازل والتقدير ،

١- سورة الجاثية الآيات : ١٢ ، ١٣

استتار غالب ليل الإنسان ، وبه يعرف عدد السنين والحساب ، وبالشمس المضيئة أشرق النهار على الإنسان ، وبها عرف ليله ، وميز نهاره ، ومنها استمدت أرضه دفئها وحرارتها ، وطاقتها المودعة فيها ، ولولا الشمس لتجمدت الأرض ، ولما كانت صالحة للحياة ، وفى السماء تتجمع السحب وتتراكم ، ومنها تنزل الأمطار مياها عذبة بها حياة الإنسان وسعادته ، وفى السماء فى علوها وارتفاعها ، وكثرة أجرامها ومجراتها وكواكبها ، ونجومها وشموسها ، وأقمارها آيات عظام تهدى الإنسان إلى معرفة ربه ، وتبين له قدرته عليه ، وتريه سوابغ نعمه به .

- فى الأرض : نجد فيها البحار والأنهار ، والمعادن والجبال ، والسهول والتلال ، فيها الأحياء المائية ، والحيوانات البرية ، ذات المنافع العديدة ، والفوائد الجمة الكثيرة ، وبها الأشجار المظللة والمثمرة ، وبها الزروع والنباتات التى هي أرزاق وأقوات ، وكلها مسخرة للإنسان معطاة له ، لم يكن فيها شيء لغيره ، ولا يخرج منها شيء عن منفعته ، وفائدته بحال من الأحوال .[1]

- ومن الأمثلة التى تذكر فى عناية الله عز وجل الواضحة فى هذا الكون وخاصة بالإنسان .

* أنك ترى الزهرة فى النبات فترى لها أوراقا جميلة جذابة ملونة بألوان زاهية ، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك ، أجابوا بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من الحشرات التى تمص رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة ، وحتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها ، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح .

فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان ، حتى يستخدم النبات الحيوان فى عملية التلقيح

١- عقيدة المؤمن ص ٥٣ - ٥٦ بتصرف

الضرورية للإثمار والإنتاج !!

وهذا التكامل لا نجده في عالم النبات فحسب ، وإنما نجده فى كل شىء ، بين الليل والنهار ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والطعام وجهاز الهضم و الإنسان والحيوان والنبات [1] .

* ومما يدل على تلك العناية وهذا الإبداع أنه لو أعطت الشمس نصف حرارتها الحالية لتجمدنا من البرودة ، ولو أن حرارتها زادت بمقدار النصف ، لكنا رمادا منذ زمن بعيد .

* ولو كان قمرنا يبعد عنا " . . . ,. . ٢ " ميلا بدلا من بعده الحالى لكان المد فى البحار يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح الجبال عن أماكنها ولما أمكنت الحياة على وجه الأرض .

* ولو كان ليلنا أطول مما عليه الآن عشرات المرات ، لأحرقت شمس الصيف نباتاتنا في كل نهار ، وفى الليل يتجمد كل نبت فى الأرض .

* لو أن نسبة الهيدروجين والأوكسجين اختلفت فى الماء عما عليه الآن ، لما كان الماء صالحا للشرب ، ولقتل الناس العطش .

* لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقدام لامتص ثانى أوكسيد الكربون والأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة .

* ولولا قوانين الحرارة لما تبردت الأرض ، ولما كانت صالحة للحياة .

* ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كانت لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

١- شبهات وردود ص ٣٦ ، ٣٧ بتصرف

* ولولا أن فى الأرض أرزاقها لما استطاعت الحياة أن تبقى .

* ولو كانت مياه البحار حلوة لتعفن الماء الموجود بها ، وتعذرت الحياة على الأرض .

* ولو كان الأوكسجين فى الهواء بنسبة ٥٠ فى المائة بدلا من ٢١ فى المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال لأدنى شرارة ، وكان فى ذلك هلاك الحياة ، ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠ فى المائة لتعذر أن يكون التمدن الإنسانى على ما هو عليه اليوم ... الخ [١]

هذا الإبداع ، وذلك الجمال هو صنع الله عز وجل

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [٢]

وهذا الجمال والكمال من قدرة الله عز وجل وبديع خلقه

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [٣]

وهذه الوحدة المتكاملة ، والنسق البديع ، الذى لا خلل فيه ولا نقص هو من خلق الله عز وجل

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [٤]

١- أن أردت المزيد فارجع إلى كتاب " العلم يدعو للإيمان لكريس موريسون

٢- سورة النمل الآية : ٨٨

٣- سورة لقمان الآية : ١١

٤- سورة الملك ، الآيات : ٣ ، ٤

وهذه العظمة فى خلق الأرض والسموات ، دلائل ناطقة على وجود الله

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ
بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]

وهذه البراهين الساطعة على إبداعه المحكم ، وصنعه المتقن ، وآثاره المعجزات

وفـي كل شـيء لـه آية　　　تـدل عـلى أنـه الـواحد

وما أحسن ما قال بعضهم :

تأمل في نبات الأرض وانظر　　　إلى آثـار مـا صـنع المليك
عيـون مـن لجـين شاخصـات　　　بأبصـارهن الـذهب السـبيك
على قصب الزبرجد شاهدات　　　بـأن الله ليـس له شـريك

* * *

انظـر لتـلك الشـجرة　　　ذات الغـصون النـضرة
كيـف نمـت مـن حبة　　　وكيـف صـارت شـجرة
فابحث وقـل : مـن ذا الذى　　　يخـرج مـنها الـثمرة
وانـظر إلى الشمس التـى　　　جذوتـها مسـتعرة
فيـها ضـيا ، وبهـا　　　حـرارة منتـشرة

١- سورة البقرة الآية : ١٦٤

مـن ذا الـذى أوجـدها　　فى الجـو مـثل الشـررة
ذاك هـو اللـه الـذى　　أنعـمه منـهمرة
ذو حكـمة بالـغة　　وقـدرة مقـتدرة
وانظـر إلى الليل فمن　　أوجـد فـيه قـمره
وزانـه بـأنجم　　كالـدرر المنتـشرة
وانـظر إلى الغيم فمن　　أنـزل منـه مـطره
فصـير الأرض بـه　　بعـد اغـبرار خضـرة
وانظـر إلى المـرء وقـل　　مـن شـق فـيه بصـره
مـن ذا الـذى جهـزه　　بقـوة مفتـكرة
ذاك هـو اللـه الـذى　　أنعـمه منهـمرة
ذو حكـمة بالغـة　　وقـدرة مقتـدرة

إن المرء منا إذا دخل دارا فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى للمنام ، وثالثة للنظافة ، ورابعة للضيافة .. الخ لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده ، وأن هذا الإعداد النافع لابد قد نشأ عن تقدير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل .

والناظر فى الكون وآفاقه ، والمادة وخصائصها يعرف أنها محكمة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب ، وأفادت منها الناس أجمل الفوائد ، وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم ، حاسم فى إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق . كلا ، إن النظام الدقيق المختص فى طوايا الذرة ، مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾(١)

كما قال تعالى :

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢)

* يمسك الواحد منا بحبة الرمانة فينظر فى جمالها ونسقها ونظمها ، ثم يتساءل : من الذى نسقها ونظم حباتها وغلفها ؟ ولا يملك إلا أن يقول : سبحان الله !!

* وينظر إلى كوز الذرة ، وقد وضعت حباته صفا متقنا ، وأحيطت بأغلفة متعددة تحفظها ومنحتها هواء بواسطة أنابيب دقيقة " الشرابة " وثبتت فى " قولحته " ، فمن الذى أتقن هذا ؟

* ويد من التى امتدت إلى سنبلة القمح فغفلت حباتها حتى لا تتساقط ، وفى ورق غضروفى لا يتلفه المطر ، وحَصَّن كل حبة بشوكة حتى لا تكون غذاء للطير ، وهى مقدرة أن تكون غذاء للإنسان ؟

* وانظر إلى البرتقالة ، وإلى عنقود العنب ، وإلى التفاح ، وإلى وإلى ... ومن النبات والأرض وما فيها إلى الإنسان الذى يعيش عليها ونتساءل :-

* قدرة من التي امتدت إلى عين الإنسان فجعلتها فى علبة منخفضة من العظم لئلا تتعرض للتلف والمهالك ، وظللتها برموش تدفع عنها معاكسة

١- سورة الفرقان الآيات : ٦١ ، ٦٢ والمرجع عقيدة المسلم ص ١٦ ، ١٧ بتصرف

٢- سورة الذاريات الايات : ٢٠ ، ٢١

ضوء الشمس لها ، وحاطتها بأهداب تمنع تساقط العرق فيها وغطتها بأجفان ، وجعلت لها ماء ملحا " الدموع " حولها لئلا يلحقها النتن ؟

* ويد من التى جعلت ماء الأذن مرا لئلا تتسرب الحشرات إليها والإنسان نائم فتتلف طبلتها ، وجعلت ريق الفم عذبا مع أن الماء الذى تشربه واحد ؟ .

* وتدبير من الذى امتد إلى مفاصل الجسم فجعلت لكل مفصل قطعة شحم تسهل حركته بقدر معلوم ؟

* وعناية من التى أتقنت لسان المزمار " البلعوم " بحيث تسد قصبة الهواء عند دخول الطعام والشراب ، ويسد مسلك الطعام عند دخول النفس .

* وإبداع من الذى جعل اللسان عند خروج الهواء من الجوف يضغط عليه من جوانب الفم فينتج صفيرا ، وهذا الصفير يكون كلاما منظما يعبر عما فى الضمير من معان وخواطر ؟ وأى جهاز وضع فى الأنف حتى يميز بين الرائحة الطيبة والخبيثة ؟ وأى جهاز وضع فى الأذن حتى يميز بين الأصوات المتعددة ، وهى قطعة من اللحم ؟! ولو تأملت اللسان وخشونته لئلا ينزلق الكلام فيظهر غير مضبوط ، لأيقنت أن للكون إلها ، وصدق من قال " نظرك فيك يكفيك "[1] ماذا أقول : والظواهر التى تدل على الله أكثر من أن يحصيها عاد ، أو يحيط بها عالم ، وإنما هي أمثلة[2] .

ومما يرتبط بمعنى العناية والإبداع كذلك الهداية والإلهام .

١- للكون إله ، عبد العزيز كامل الشهابى ص ٢٥ - ٢٨ بتصرف

٢- من أراد المزيد فليرجع إلى كتاب : العلم يدعو للإيمان ، الله يتجلى فى عصر العلم ، هذا الكون

وسبحان الله العظيم

﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1]

ونوضح هذه الظاهرة بالأمثلة التالية :-

(أ) خطر لعالم أمريكى أن يستفرخ البيض فى جهاز خاص للتفريخ ، وذلك بوضع البيض فى نفس الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له . فلما جمع البيض ووضعه فى الجهاز ، نصحه فلاح أن يقلب البيض فى كل فترة ، إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسَخِرَ منه العَالِمُ وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطى الجزء الأسفل من حرارة جسمها ، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة .

واستمر العَالِمُ فى عمله ، حتى جاء دور الفقس ، وفات ميعاده ولم يفقس بيضة واحدة ، وكرر التجربة بلا جدوى ، وأخيرا استمع إلى نصيحة الفلاح ، فصار يقلب البيض حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريخ .. وآخر تعليل علمى لهذه الظاهرة أن الفرخ حينما يخلق فى البيضة ترسب المواد الغذائية فى الجزء الأسفل من جسمه إذا بقى بدون تحريك فيؤدى إلى موته .

ولولا هذه الهداية التي أودعها الله فى الدجاجة لما بقى نوع الدجاج فى العالم .

(ب) وانظر إلي هذا البيض ، وقد جاء موعد فقسه ، فتقوم الأم بنقر البيض ، ما تخطئ مرة فتفقأ عين الكتكوت ، أو تنقر أذنه ، فمن الذى هداها ؟

﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[2]

١- سورة طه الآية : ٥ .

٢- سورة الأعلى الآيات : ١ - ٣

(جـ) حيوان " الاكسيلوكوب " يعيش منفردا فى فصل الربيع ، ومن باض مات ، فالأمهات لا ترى صغارها ، ولا تعيش لتساعدها فى غذائها ودفاعها عن نفسها ، وهؤلاء الصغار لا يستطيعون الحصول على الغذاء لمدة سنة كاملة ، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق ، وتحشو بذلك الحفرة ثم تبيض بيضة ، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفا لهذه الحفرة فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة كاملة .

ولولا هذه الهداية التى أودعها الله فى هذا الحيوان لقضى على نسله نهائياً .

هذه بعض الأمثلة من أمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى ، قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية الموجودة فى الإنسان والحيوان والنبات على السواء فإذا التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ودقة واستيعاب ، يرى هذه الظاهرة فى كل شىء من هذا الوجود علي الإطلاق فهى ظاهرة تنظم شئون الكون كله بما فيه من الذرة إلى العناصر ، إلى الأرض ، إلى الشموس ، إلى المجرات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان . وما أجمل ما عبر به القرآن فى إثبات ظاهرة الإلهام والهداية حين قال :

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (١)

والذى نخلص إليه بعد ما تقدم أن ظاهرة الإلهام والهداية التى أودعها الله فى هذا الكون هى من أكبر الظواهر التى تدل على خالق حكيم مبدع ، أحكم كل شىء وأتقن كل شىء (٢) .

١- سورة طه الآية : ٥٠ .

٢- شبهات وردود ص ٣٣ - ٣٦ بتصرف

(٣) دليل النظام والحركة ، أو التقدير والتسوية

إن التأمل فى الكون كله علويه وسفليه ، يكشف عن حقيقة كبرى لا مجال لإنكارها أو تجاهلها والاغضاء عنها ، أو الغض من شأنها ، ألا وهى النظام الدقيق العجيب ، الذى ربطت به أجزاء الكون كله من الذرة إلى المجرة ، هذا النظام المدهش المحير للعقول ، الذى يحيل العقل البشرى السليم أن يكون ناجما عن صدفة وتلقائية ، أو عن تفاعلات كيميائية ، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون والمغرورون ، والمخدوعون ، إنه لمن أمحل المحال وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله من غير ذى إرادة وقصد وعلم وحكمة وتدبير .

إن نظرة إلى السماء ، إلى خلقها وتكوينها ، إلى الإحكام والإتقان فيها ، إلى أبعادها ، إلى سعتها ، إلى عدد نجومها ومواقعها ، إلى الأفلاك الدائرة فيها ، إلى ضوء شمسها ، ونور قمرها ، هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُرِى الإنسان العاقل من مظاهر القدرة والعلم والإرادة والقصد والتصميم ما يجزم معه ببطلان هراء الماديين ، وترهات الملحدين ، ويسلم بوجود إله عظيم ، متصف بصفات الربوبية ، ونعوت الألوهية [١]

* أما فكرت فى هذه السيارات المنطلقة . أعنى هذه الكواكب التى تخترق أعماء الجو ، والتى تلتزم مدارا واحدا ، لا تنحرف عنه يمينا ولا يسارا ، وتلتزم سرعة واحدة ، لا تبطئ فيها ولا تعجل ، ثم نرتقبها فى موعدها المحسوب فلا تختلف عنه أبدا .

إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوى بعد تحليق ، أما هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ، المضئ منها والمعتم ، فهى معلقة لا تسقط ، سائرة لا تقف .

١- عقيدة المزمن ص ٥٢ ، ٥٣

كل فى دائرته لا يعدوها . وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا ، وهم أصحاب عقل وبصر ، أما هذه الكواكب التى أزحم بها الفضاء فإنها لا تزيغ ولا تصدم

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1]

من الذى هيمن على نظامها ، وأشرف على مدارها ، بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة ؟ إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة ، ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدر الأعلى

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[2]

إنها قوانين تصرخ باسم الله ولكن الصم لا يسمعون [3] وأى نظرة فاحصة دقيقة على الأرض ، إلى خلقها وتكوينها ، إلى محيطاتها وأنهارها ، إلى جبالها ووهادها ، إلى مرتفعاتها وسهولها ، إلى النباتات والأشجار ، إلى التنوع فى الحيوانات ، وإلى الاختلاف في أجناس البشر ، لونا ولسانا . تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها ، ولا إخفاءها وجحودها ، وهى أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقا مبدعا عليما حكيما ،

١- سورة يس الايات : ٣٧ - ٤٠ .

٢- سورة فاطر الآية : ٤١

٢- عقيدة المسلم : ص ١٧ ، ١٨ بتصرف

وهو الله الذى لا اله إلا هو ولا رب سواه .[1]

قال الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[2]

إن نظرة عابرة فقط إلى النور والحلك ، وهذا الهواء المشترك ، إلى ائتلاف الهواء ، إلى عناصر الماء ، إلى النوعية والزوجية فى كل شىء ، فيها وعليها ، تكفى فى إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة ، وحكمة وتدبير ، وقدرة لا تحد ، وعلم لا يحيط به أحد ، ألا وهو الله العزيز الحكيم . الله الذى أوجبت العقول السليمة وجوده ، ودلت كل ذرة فى الكون على علمه وقدرته وتدبيره وحكمته .[3]

* وإذا كان الخلق يدل على الله ، فالتسوية أدل عليه ، والتسوية أخص من الخلق ، إذ من الممكن أن يخلق الشىء غير مسوى .

فمعنى تسوية الشىء : إحسان خلقه ، وإكمال صنعته . بحيث يكون مهيئا لأداء وظيفته ، وبلوغ كماله المقدر عنده ، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه ، وجعله مستويا معتدلا ، متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل

١- عقيدة المؤمن : ص ٥٣
٢- سورة ق الآيات : ٦ - ١١
٣- عقيدة المؤمن : ص ٥٣

بالمقصود منها .

وهذه التسوية ظاهرة فى الكائنات كلها على وجه العموم ، وفى الكائنات الحية على وجه الخصوص ، وفى الإنسان على وجه أخص . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾(1)

وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾(2)

وإليك هذا المثل الذى نتأمل به قدرة الله عز وجل فى تنظيم كونه ، وتقدير خلقه ، وتسوية حاله :-

" الجمل " قد أعطى الصورة الخلقية التى تلائم عيشته ، وأسفاره الطويلة فى الصحراء ، فلهذا خلق برقبة طويلة تعلى رأسه ، وتنأى بعينيه عن غبار الرمال ، كما منح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادى دون أن تؤذيه ، وأعطى سناما يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوما فى الصحارى القاحلة ، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمل كحوافر الخيل والبغال والحمير ، بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها ، ولهذا سموه " سفينة الصحراء " فسبحان الله !!

﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(3)

ثم سخر سبحانه هذا الجمل " الحيوان الضخم " لصبى صغير ، يقوده ويركبه ،

١- سورة السجدة الاية : ٧ ٢- سورة الإنفطار الآيات : ٦ - ٨

٣- سورة طه الآية : ٥ .

وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة المبثوثة فى الكون ، ولذا قال سبحانه :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[1]

هذا ونجد كل شىء فى الخلق له حساب وتقدير ، وميزان وترتيب ، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه ، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه ، والبعيدة عنه ، فلا يعطل وظيفتها أو يعوق سيرها لما خلقت له ، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ، ينتظم به سير الوجود كله ، فإذا كانت التسوية إعطاء كل شىء من الخلق والتصوير ما يؤدى به وظيفته على الوجه اللائق به ، فإن التقدير أن يكون بالقدر الذى ينفع فى نفسه ولا يضر غيره ، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى . وذلك يتم إذا ما وضع فى مكانه الملائم ، وزمانه المناسب ، وبالكم الذى يُصْلِح ولا يُفْسِدُ ، وعلى الكيفية التى يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه .

وهذا التقدير ظاهرة عامة فى كل شىء، كما نبه القرآن على هذه الحقيقة ، إذ قال تعالى :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[2] ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[3]

﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[4] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[5]

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[6]

١- سورة الغاشية الآيات : ١٧ - ٢٠.
٢- سورة الرعد الآية : ٨
٣- سورة الفرقان الآية : ٢
٤- سورة الطلاق الآية : ٣
٥- سورة القمر الآية ٤٩
٦- سورة الحجر الآية : ٢١

فالماء مثلا سواه الله بمعنى أنه أحسن خلقه ، وهيأه لأداء وظيفته من السقى والرى والتطهير والتنظيف ونحو ذلك ، ولكن الماء الذى خلقه الله وأسكنه فى الأرض خلقه بقدر ، وأنزله بقدر ، قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾[1]

هذا وقد جاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله : فأماط اللثام عن الحكمة البالغة ، والأسرار العجيبة وراء ، وما بين المخلوقات من مقادير وحدود . وضوابط وموازنات .

إن فى الفضاء الفسيح الذى لا نعرف له حدودا ، ملايين الملايين من النجوم السابحة فى أجوائه ، وبعض هذه أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها ، كالشعرى الذى هو أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها ضعف نور الشمس بخمسين مرة ، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة .. وهكذا . ويقول الفلكيون : " إن من هذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يُرَىَ إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يتقرب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى ، يسيران فى اتجاه واحد ، وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد ، وبعيد جدا . إن لم يكن مستحيلا " .

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخر ، فقد وضع كل نجم فى مكانه بحيث يتسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، وتؤدى جميعها مهمتها المنوطة بها فى بناء الكون وسير حركته .

---

[1] - سورة المؤمنون الآية : ١٨

ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينهم من علاقات مثلا لهذا التقدير المحكم ، والنظام الدقيق الذى كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم .

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم التى تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة . وإن حجمها ، وكثافتها ، ودرجة حرارتها ، وطبيعة أشعتها ، ودرجة بعدها عنا ، كل ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا الذى هو الأرض . وكذلك وضع القمر ، وحجم الهواء ، والغازات ، وعالم النبات والحشرات .[1] ترى من الذى وضع كل هذه المخلوقات فى مواضعها الصحيحة ، وقدر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونسبها وعلاقتها هذا التقدير المحكم العجيب ؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفى الصدور ؟ كلا . أما نحن فجوابنا : إنه " الله "

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[2]

إنه باختلاف التوازن في أى شىء تحدث كارثة تندثر بها المدنية ، وتتخبط البشرية ، إذا بقى أى شىء على قيد الحياة ، ترى كيف يتحقق كل هذا التقدير ، وكيف يتم كل هذا التدبير ، إذا لم يكن هناك خالق أعلى يقدر فيحسن التقدير ، ويدبر فيحسن التدبير ؟ !![3]

١- أنظر بتوسع : الله والعلم الحديث ، والعلم يدعو إلى الإيمان والله يتجلى فى عصر العلم .

٢- سورة الأنعام الآية : ٩٦

٣- أنظر بتوسع : وجود الله من ص ٣٢ - ٥٤

(٤) دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ

وإن كان هناك من الأدلة ما هو مبثوث في الكون ، خارج دائرة الإنسان ، فهناك أدلة ليست خارجة عن كيانه . ومنها الفطرة ، التى فطر الله عليها الناس ، إنه ذلك الشعور الطبيعى البصير الغامر ، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية كائنا غير محدود ولا متناه ، يهيمن على كل شيء ويدبر كل أمر ، يُرْجَى ويُخْشَى ، ويعظم ويقصد ، وهو شعور ينبع من أعماق الإنسان ، ويستمد من كيانه كله لا من عقله وحده ، ولا من وجدانه بمفرده ، شعور يجده الإنسان فى نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب .

يعبر الفيلسوف الشهير " ديكارت " عن هذا الشعور الفطرى ، فيقول : " إنى مع شعورى بنقص فى ذاتى أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة ، وأرانى إلى اعتقادى بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهى " الله " .

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكى نفسا ، رق حجابه ، وتفتحت عين بصيرته ، وارتفع عن جاذبية الطين ، وحلق فى أجواء الروح ، وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ، ويغمر كيانه كله ، فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربه - سبحانه - خارج عن ذاته وكيانه هو ، بل يشعر أن وجود الله أظهر من كل شيء

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١)

ويروون أن أحد العلماء الصالحين الموقنين ، قيل له يوما : إن فلانا من علماء " الكلام " قد أقام على وجود الله ألف دليل ، فقال : لأن فى نفسه ألف شبهة .

١- سورة فصلت الآية : ٥٣

وهذا جواب من وضح الأمر في نفسه بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان ، على نحو ما قال الشاعر :

وليس يصح فى الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل .

وسئل واحد من السلف : بم عرفت ربك ؟ فأجاب : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى !

ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى هذا المعنى ؟ " إلهى كيف يستدل عليك ، بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ " .

هذا ما نقصده : إن الإنسان - سواء أكان جاهلا أم عالما - لو جرد نفسه من آثار الوارثات المختلفة ، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذى يعيش فيه ، والمذهب الذى ينتمى إليه ، ثم يفكر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه ، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعا اضطراريا ليجد نفسه ساجدا خاشعا أمام ربه العلى العظيم . الرحمن الرحيم .

إن الذى علم الإنسان أن ١+١=٢ بدون برهان ولا مقدمات ، هو الذى علمه أن له إلها لا يستغنى عنه ، بدون حاجة إلى إستدلال ، ولا انتقال من معلوم إلى مجهول ، ومن مقدمات إلى نتائج .

هذا الشعور الفطرى قد يختفى في ساعات العافية والرخاء ، والغنى الذى يطغى الإنسان ويحجبه أحيانا عن رؤية نفسه على حقيقتها ، فإذا أنزل بالإنسان شدائد قاهرة ، داب الطلاء الكاذب الذى غش الفطرة الأصيلة ، ورجع الإنسان إلى ربه ضارعا داعيا منيبا إليه .

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن " الله " فقال له : ألم تركب البحر ؟ قال

بلى : فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح العاصفة ؟ قال : نعم ، قال : وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم . قال : فهل خطر ببالك ، وانقدح في نفسك ، أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء ؟ قال نعم ، قال جعفر : فذلك هو " الله " .

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم ، إذ يقول تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(1)

والقرآن الكريم يصور أصالة هذه الفكرة وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويرا بليغا ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسوقها إلى ربها سوقا حثيثا ، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها ، على أن تؤمن به وتعبده وتوحده ، فلنستمع إليه يقول :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾(2)

ولما كان هذا الشعور أمرا فطريا - كما تبين - وجدنا أصل الإيمان قدرا مشتركا بين جميع الأمم ، وفي مختلف الأقاليم . وفي شتى عصور التاريخ ،

١- سورة يونس الآية : ٢٢ — ٢- سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ ، ١٧٣

وإن كان الكثيرون قد انحرفوا عن الإيمان الصحيح ، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدرت نقاءه وأفسدت جوهره .

يقول الفيلسوف المعروف " هنرى برغسون " : " لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة . " ويقول المؤرخ الإغريقى القديم " بلو تارك " : " لقد وجدت فى التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا مدارس ، ومدن بلا قصور ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد " .

والدارسون لتاريخ الأديان ، يؤكدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغنى عن الإيمان والدين .

ويقول الفيلسوف " رينان " فى كتابه " تاريخ الأديان " إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حجة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة فى الحياة الأرضية " (١)

* هذا ، فضلا عن الوازع الأخلاقى المركوز فى النفس الإنسانية - كما قاله الفيلسوف الألمانى " عما نويل كانت " وجوهر هذا الدليل : أن الكون بما فيه من خلق وتسوية ، وما فيه من تدبير وهداية ، يدل على وجود " الصانع القادر " ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه " الإله " الذى يصدر منه الخير والنعم ، وتتجه إليه القلوب بالعبادة والحب والحمد والتعظيم .

وإنما يثبت وجود هذا " الإله " بدلالة وعلامة فى النفس الإنسانية ، لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله ، وتلك هى دلالة الوازع الأخلاقى ، أو دلالة الواجب ، أو دلالة الضمير .

١- وجود الله ، للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٩ - ٢٣ بتصرف .

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه ، إن لم يكن فى الكون قسطاس للحق ، يغرس فى نفسه هذا الوجوب ؟ ومن أين تقرر فى فطرة الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه ، وإن لم يطلع أحد على دخيلة سره ؟

إن وجود هذا الوازع الأخلاقى فى نفس الإنسان دليل على أن هناك غارسا غرسه فيها ليستقيم سير الحياة ، وينتظم أمر الجماعة ، وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال .

ويشير القرآن إلى هذا الدليل فيقول :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1]

وإلهام التقوى للنفس يعنى منحها الوازع الأخلاقى الذى يقاوم دواعى الشهوة والفجور . .

ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب ، إنما هى " عادة اجتماعية " رسخت فى النفس بمضى الزمن ، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب . وينسى هؤلاء أن العادة الاجتماعية " ليست بالتفسير الذى يعلل نشأة الأخلاق ، وإنما هى تكرير للمشاهدة ، كما رأيناها ، فإذا سألهم سائل : لم نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا : للمصلحة الإجتماعية . ولكنهم لا يسألون أنفسهم : لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمر مفروغا منه ، مقضيا بوقوعه ؟ [2]

إن ترجح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية الخاصة ، هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذى أنكروه [3]

١- سورة الشمس الآيات : ٧ ، ٨

٢- أنظر " الله " للعقاد ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ بتصرف

٣- وجود الله ص ٧٤ - ٧٦

« ادلة مبسطة لولدك الصغير »

قد يسألك ابنك الصغير : من الذى خلق الخلق ؟

فأنت تجيب : الله عز وجل هو الذى خلق الخلق .

فيقول لك : ولماذا لا نرى الله ؟

فقل له : هل أنت حى : فيقول لك : نعم ، فقل له : ما سر الحياة فيك ؟ يقول : الروح

فقل له : هل أنت تراها ، فيقول : لا : فقل له ، هذا مخلوق لم تستطع رؤيته ، فكيف تستطيع أن ترى الخالق عز وجل ؟!

ثم اسأله : هل أنت عاقل ؟ فيجيبك : نعم ، فقل له : هل رأيت عقلك ؟ فيقول : لا ، فقل له : ليس كل ما لا يرى ينكر . وكذلك اضرب له المثل بالجاذبية الأرضية ، وبالكهرباء ، وغير ذلك . وذكِّرهُ بمثل الأستاذ الملحد مع تلامذته ، وقد سبق ذكره .

فيسألك : ما الدليل على وجود الله ؟

فقل له قول الأعرابى ، حين سألوه عن " الله " كيف عرفه ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل ذلك على العلى الكبير ؟ !!

وقل له : من خلق كذا ؟ ومن خلق كذا ؟

فالإجابة منه : الله هو الخالق . ولكنه ربما يسأل : من الذى خلق الله ؟

فقل له : الخالق لا يخلق ، وإلا كيف يسمى خالقا ؟!!

فالله سبحانه وتعالى الكبير المتعال ، وهو خالق الخلق ، فلا يمكن أن يكون

مخلوقا ، إذ لابد للمخلوق من خالق وهكذا ، حتى تصل إلى الخالق الأول الذى لم يُخلَق ولم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، والذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير (١)

١- راجع ما ذُكِرَ من الأدلة ، وخذ البسيط منها تعلمه لولدك ، وتذكر به طفلك .

(٥) " الأدلة الشرعية أو الدينية "

وبعد أن ذكرنا شيئا من الأدلة العقلية ، توضيحا للقضية وردا على الملاحدة ، نذكر شيئا من الأدلة الشرعية التي أيقنا بها ، والأدلة الدينية التى آمنا بها ، وهو عندنا من أعظم الأدلة ، لأنه من عند الله ، وقد جاء به رسل الله ، وأثبته القرآن الكريم ، واتفقت عليه كلمة أهل الدين ، بلا خلاف أو نكير .

وهو دليل جمع بين أخبار الله تعالى ، والبراهين التى أقامها سبحانه وتعالى لمعرفته ، فهو مرتبط بسابقه من الأدلة العقلية ، ذلك أن الدين الصحيح لا يتناقض مع العقل ، بل هو الذى يدعو للنظر والتأمل ، وكذلك التدبر والتفكر .

وبذلك فهو أعظم طريقتى الهداية إلى معرفة الله تعالى ، والإيمان به ، عز وجل ، وهى التى تبعث المهتدى بها إلى العمل ، المزكى للنفس ، والمهيئ له سعادة الدارين ، بخلاف الهداية العقلية وحدها فإنها وإن أنقذت صاحبها من التمزق الشخصى ، والقلق النفسى ، والحيرة الفكرية ، فإنها لا تزكى نفسه ولا تُقَوِّمُ أخلاقه ، ولا تهيئه لسعادة الدنيا والآخرة ، كما أنها لا تخرجه من دائرة اللغز الموجب للعذاب الأخروى والخلود فيه .

وبادئ ذى بدء ، نذكر أن هناك حقيقتين ثابتتين ، ينبغى أن تكونا منطلق التعرف إلى الله تعالى ، والتعريف به سبحانه وتعالى ، هما :

الأولى : إنه لا يعرف الله كنفسه سبحانه وتعالى ، ولا يعرف بالله مثل الله جل جلاله ، وعَظُمَ سُلْطَانه .

والثانية : أن مصدر معرفة الله تعالى ، هو كتابه ورسوله ، فقد تعرف الله تعالى لعباده فى كتابه بما لا مزيد عليه ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأل جهدا فى التعريف بربه عز وجل ، بالحديث عنه ، وبذكر أسمائه وصفاته

وعَرَفَ المؤمنون ربَهَم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته .

ويحسن أن ننبه هنا إلى أن التعرف بالله عز وجل فى الكتاب له طرق مختلفة بأساليب متنوعة ، منها :

* أن يخاطب عباده كافة - مؤمنهم وكافرهم - ويتعرف إليهم ، فيأمرهم وينهاهم .

* وأن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام - فيناديهم ، ويخاطبهم ويوحى إليهم .

* وأن يتعرف إلى عباده المؤمنين به وبرسله ، فيخاطبهم ويأمرهم وينهاهم ، ويعدهم ، ويبشرهم ، وينذرهم ، ويحذرهم .

* وكذلك إرساله تعالى الرسل وإنزاله عليهم الكتب ، وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التى يعجز عنها البشر عادة ، ولا يقدرون على مثلها ، لكونها لا تخضع للسنن الكونية . [1]

وإذا تركنا تفصيل القول في ذلك - بالرجوع إلى مصادره - فإنه يحق لنا أن نتساءل :

من الذى أرسل الرسل ؟ ومنحهم تلك المعجزات التى عجزت عنها الخلائق واعترفوا بها ؟ وهل بعد أن أرسل الله عز وجل هؤلاء الرسل ومنحهم تلك المعجزات يطلب عاقل الدليل على وجود الله ، ووجوب الإيمان به ، وبمعرفته وعبادته ؟ اللهم لا .

* وهذه الكتب التى تلقاها الرسل - وحيا أوحاها الله تعالى إليهم ، وتلقاها أتباع الرسل عن رسلهم ، ولم يشك أحد فى أنها وحى الله ، وكتبه أنزلها

١- راجع بتوسع / عقيدة المؤمن ص ٥٧ - ٧٥

على رسله وفيها أمره ونهيه ، وأخباره ، ووعده ووعيده ، وشرائعه وأحكام دينه - وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف والزيادة والنقصان ، فإن القرآن الكريم - الكتاب الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو أحدثها نزولاً ، لم يزل غضا طريا كما نزل . لم ينقص منه حرف ، ولم يزد فيه آخر ، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأمى الذى لم يقرأ ، ولم يكتب ولم يجلس بين يدى أستاذ قط ، وقد اشتمل كتابه - صلى الله عليه وسلم - " القرآن " على علوم ومعارف ، بهرت العقول ، وأخذت بالمشاعر والقلوب ، فما من علم من العلوم الإلهية ، والإنسانية إلا وذكر فيه طرف منه ، وأشير إلى دقيقة من دقائقه ، أو جليلة من جلائله ، فسبق الزمان بإشاراته إلى شتى العلوم والمخترعات العصرية .

فذكر الذرة ، وتفتيتها ، كما قال تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾[1]

وذكر نظام الزوجية فى كل أجزاء الكون وذراته ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[2]

كما أشار إلى اتساع الكون ، فى قوله سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[3]

وكروية الأرض . فى قوله تعالى :

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[4]

وغيرها .

١- سورة الزلزلة الآية : ٧

٢- سورة الذاريات الآية : ٤٩

٣- سورة الذاريات الآية : ٤٧

٤- سورة الزمر الاية : ٥

وذكر مبادئ الصحة فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (1)

ووضع قواعد العدل والحكم فقال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (2)

وأسس الآداب الرفيعة والأخلاق البشرية الفاضلة ، وذلك بمثل قوله عز من قائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3)

وغير ذلك كثير ، الشيء الذى لم تعهده البشرية فى كتاب غيره . (4)

* فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية والكونية ، والقانونية و التشريعية فى كل مجالات الحياة - لم يدع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه ، أو تركيبه وتأليفه ، وكل ما فى الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهرا وصفاء وصدقاً ، وأمانة وعدلا ورحمة .

* فما مصدر هذا الكتاب ، ومن أنزله ، فهل يحسن السكوت عن الجواب . ؟

أو يحسن الكذب والمغالطة ، فنقول : هل فاض به وجدان " محمد " الأمى ؟ كما يقول المضللون !!

أو ماذا عن الإنسان العاقل أن يقول ؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف

١- سورة الأعراف الآية : ٣١

٢- سورة النساء الآية : ٥٨

٣- سورة النحل الآية ٩٠

٤- عقيدة المؤمن ص ٧١ ، ٧٢ بتصرف

بأنه تنزيل الله ، وكتاب الله ، ووحى الله ، ولازم ذلك أن الله - منزله - موجود ، وأنه عليم قدير ، وعزيز حكيم ، وأن من نزل عليه هو نبى الله ورسوله وأن كل ما جاء فى هذا الكتاب حق ، وصدق ، وعدل ، وأن الهداية البشرية متوقفة - لا محالة - عليه وأن السعادة الإنسانية منوطه بالإيمان به والأخذ بما فيه .

* وهذه المعجزات التى جعلها الله لأنبيائه ورسله ، - وجلها مذكور فى القرآن الكريم - وهى خارقة لسنن الكون ، وقوانين الحياة ، وهى دليل على صدق نبوتهم ، وثبوت رسالتهم ولازم ذلك أن الله عز وجل - صاحبها - موجود وهو واجد الوجود ، سبحانه وتعالى ، ولئن كان الكثير من المعجزات كان حسيا - انتهت بانتهاء عصر نبيها ، فإن المعجزة الخالدة الباقية وهى القرآن الكريم ، لا يزال يتحدى البشر ويعجز العالمين على أن يأتوا بمثله ولو مجتمعين ، كما قال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(1)

أو أن يأتوا بعشر سور منه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(2)

بل يتحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله ، ولو أقصر سوره منه ، كما قال تعالى :

1- سورة الإسراء الآية : ٨٨

2- سورة هود الآيات : ١٣ ، ١٤

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١)

فمن الذين يستطيع على مدى الزمان أن يبطل قوله تعالى « ولن تفعلوا » ؟ فهذه المعجزة الخالدة وغيرها من المعجزات السالفة ، وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية ، فهل تدل على غير وجود الله ربا وإلها ، ذا صفات متناهية فى الكمال ؟؟ .

اللهم إنها لا تدل إلا عليك ، ولا تعرف إلا بك ، يا رب العالمين . وإله الأولين والآخرين (٢)

* إن هذا القرآن الكريم . هذا الكتاب المعجز ، ليس آية ودليلا على نبوة محمد ﷺ ، بل هو آية ودليل على وجود الله سبحانه وتعالى ، وعلى واسع علمه وحكمته ، وكمال أسمائه وصفاته ، وكلما تقدم العلم واتسعت معارف البشر ، اكتشف العالمون فى هذا القرآن من الأسرار والكنوز ما يزيل شك الشاكين ، ويزيد الذين آمنوا إيمانا ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٣)

إن الرسالات السماوية آية من آيات وجود الله - تعالى - ووحدانيته وكماله ، فإن من رحمة الله أنه لم يكتف بما أودعه فى الفطر والعقول ، وفى

١- سورة البقرة الايات : ٢٣، ٢٤

٢- عقيدة المؤمن ص ٧٢ - ٧٤ بتصرف

٣- سورة فصلت الآية : ٥٣

الأنفس والآفاق من شواهد ، تهدى إليه ، وتدل عليه ، بل أرسل الرسل بالبينات ليهدوا الناس إلى صراط العزيز الحميد ، وليس مما يقبله العقل السليم أن يكون هؤلاء الرسل الكرام في مختلف الأمم ، وشتى العصور ، قد توافقوا على أنهم مبعوثون لإله ، لا وجود له ، ولو فرض هذا - وفرض المستحيل جائز جدلا - فمن الذى أيدهم ونصرهم ؟ وهم الفقراء مالا ، الضعفاء جاها ، القليلون أعوانا ؟ ومن الذى خرق لهم العادات ، وأمدهم بآيات معجزات ، آخرها وأعظمها هو القرآن العظيم ؟ من الذى أنزل هذا الكتاب ، وأنزل من قبل التوراة والإنجيل والصحف والزبور ؟ "

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1]

ا . هـ[2]

١- سورة الأنعام الآية : ٩١

٢- وجود الله ، للقرضاوى ص ٧٧ ، ٧٨ بتصرف

وأخيرا ....

والآن فليقل لنا المنصفون : بمن يجب أن يؤمن العقلاء : أبإله يخلق ويرزق ويدبر ، ويحيى ويميت ، ويضر وينفع ، ويُنَزِّل الكتب ، ويرسل الرسل ، ويضع الشرائع والقوانين ، ويهدى ويضل ، ويُسْعِدُ ويُشقى ، ويوالى ويعادى ، ويحب ويبغض ، ويعطى المعجزات ، ويهبَ الكرامات ، له تسعة وتسعون إسما وصفة ، كلها أسماء حسنى ، وصفات عليا ، يكلم ويعلم ، ويسمع ويجيب ، ويرفع ويضع ، ويعز ويذل ، يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الظلم والعدوان .

أم بطبيعة ميتة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا إرادة لها ولا اختيار ، لا تسمع دعاء ، ولا تجيب نداء ، لا تحب ولا تكره ، لا تضر ولا تنفع ، لا تعلم ولا تكلم ، لا تنزل كتبا ، ولا تبعث رسلا ، ولا تشرع ولا تقنن ، لا تهدى ولا تضل ، لا اسم لها ولا صفة سوى الحدوث والموت والصمم والبكم والعمى ؟!! ألا فليقولوا لنا !! أما نحن فقد آمنا بالله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ، خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه ، وخلق ذريته من ماء مهين ، وخلق كل شىء ، وملكه وخلق بقدرته ودبر بحكمته ، أنزل الكتب ، وأرسل الرسل يدعى فيجيب ، ويسأل فيعطى ، ويُسْتَنصَرُ فيَنْصُرُ ، يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بعدله ، فبمعرفته ومحبته تثلج الصدور ، وتمتلئ النفوس بالسعادة والحبور ، لا أنس بغير ذكره ، ولا سعادة بغير طاعته ، الحياة بدون الإيمان به موت ، والوجود بغير عبادته عدم ، رضاه أمل الآملين ، وغاية العاملين ، لا نرضى بغيره بدلا ، ولا ينبغى عن طاعته حولا ، معرفته ومحبته جنة القلوب ، لانصب فيها ولا لغوب .

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك ، وهديتنا إلى معرفتك ، فسخرنا لطاعتك ، وامنن علينا بمحبتك ، وأكرمنا بولايتك ، وألبسنا ثوب عافيتك ، واخلع علينا حلل رضوانك . آمين ... [1]

١- عقيدة المؤمن ص ٧٤ ، ٧٥

براءة واعتذار :

اللهم أنى أبرأ إليك من كفر كل من كفر بك ، ومن إلحاد من ألحد فى أسمائك أو صفاتك ، ومن شرك كل من أشرك بك فى ربوبيتك أو ألوهيتك .

وأعتذر إليك من كل استدلال استدللت به عليك ، ومن كل قياس عقلى وضعته تدليلا علي وجودك ، وأنت موجد كل موجود ، ومن كل برهان أتيت به على إثباتك ، وإثبات جلالك وكمالك ، ومن كل دليل مادى سقته لأثبت به وجودك ، لأنك يا ربى أنت الدليل على وجودك والبرهان على جلالك وكمالك ، فكيف يصح الدليل للدليل ، والاتيان بالبرهان على البرهان ؟

اللهم إننا لم نعرفك - وأنت تعلم - بقياس ، ولا بطلب منا لك والتماس ، لأنك سبحانك أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو تدركه الحواس ، وإنما عرفناك بما فطرت نفوسنا عليه من الإيمان بك ، والافتقار إليك ، والتوكل والاعتماد عليك ، فطرنا بوجودك ناطقة ، وأحوالنا المتبدلة المتغيرة بكمالك شاهدة ، هيهات هيهاتَ يا ربنا أن تعرف بالقياس ، وأنت رب الناس ، وملك الناس ، وإله الناس ، أو تثبت بالدليل ، وأنت خالق المستدل والدليل[1] .

رضى الله عن ابن عباس : قيل له : بماذا عرفت ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس ، لم يزل دهره في التباس ، خارجا عن المنهاج ، طاعنا فى الاعوجاج ، عرفته بما عرف به نفسه ، ووصفته بما وصف به نفسه .

ورحم الله شيخا عارفا ، قيل له في ذلك ، فقال : عرفت الأشياء بربى ، ولم أعرف ربى بالأشياء[2]

سبحانك ربى : أنت الظاهر الذى لا تخفى ، والموجود الذى قام به كل الوجود .

والله أعلم .

١- عقيدة المؤمن ص ٨١ ، ٨٢ بتصرف

٢- مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٢ ص ١٨ بتصرف

توحيد الله :

- توحيد الربوبية .

- توحيد الالوهية :

(العبادة - الوسيلة - الشفاعة - البركة الولاية - الكرامة)

- توحيد الذات . و الاسماء . والصفات

ثانيا : " لا إله إلا الله " تقتضى التوحيد ، بعد التخلى عن الشركاء والكفر بالطاغوت ، فما هو التوحيد ؟

التوحيد : مصدر وحد الشىء ، يوحده توحيدا ، إذا أفرده ، ونفى عنه التعدد ، والتوحيد في الشرع : نفى الكفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، ونفى الشريك في ربوبيته وعبادته " عز وجل " قال تعالى فى نفى الكفء :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[١]

وقال فى نفى الشريك فى الربوبية : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾[٢]

وقال فى نفى الشريك فى العبادة :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٣]

وقال سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤]

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام

(١) توحيد الربوبية

١- سورة الإخلاص بكاملها

٢- سورة يونس الآية : ٣١

٣- سورة محمد الآية : ١٩

٤- سورة الأنعام الآية : ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) توحيد الألوهية

(٣) توحيد الذات والأسماء والصفات والأفعال .

وهذا التقسيم ليس مقصودا لذاته وإنما هو من باب الإفهام والتعليم فقط . وإلا فالتوحيد لا يقسم ، وما لم تكتمل دائرته وجوانبه لا يسمى توحيدا . فالحصول على ثلثى التوحيد أو أكثر دون الباقى لا يسمى توحيدا ، ولا يسمى صاحبه موحدا .

وهذا على عكس الشرك ، إذ بالوقوع في جزء منه يسمى شركا ، وصاحبه مشركا ، وإن كان لا يحكم على صاحبه بالشرك ، أو يوصف بأنه مشرك حتى تقام عليه الحجة من قِبَلِ العلماء ،أصحاب الاجتهاد ، وأهل الحل والعقد ، وذلك بإقامة الأدلة ، ورد شبهات ، حتي يتبين ويعلم ، فإذا أُقيمت عليه الحجة ، وعاد إلى وقوعه فى الشرك مرة أخرى وكان ذلك عن علم - لا عن جهل - وعن عمد - لا عن خطأ - وعن قصد - لا عن تأويل - وعن حرية - لا عن إكراه - وعن تذكر - لا عن نسيان - وبتعقل - لا عن جنون - فإنه يحكم بعد ذلك عليه بالكفر والردة ، ويقام عليه حد الردة ، وتطبق عليه أحكامه .

ولا يكون ذلك إلا فى ظل تطبيق شرع الله ، أما ما دامت الشريعة معطلة ، ولم يوجد من يقيم الحجة ، ولم يعين من قِبَلِ الحاكم المسلم جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو أهل الحسبة ، فإن هذه الأحكام ترجئ حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

* التوحيد وضده الشرك ، وهو فى اللغة : الاسم من شركه فى كذا ، يشركه ، شركا وشركة ، وهو إذا جعل له نصيبا قليلا أو كثيرا فى ذات أو معنى ، بقدر كبير أو صغير فى ذات أو وصف .

والشرك شرعا ضد التوحيد ، كالكفر ضد الإيمان . ويكون فى ربوبية الله

تعالى أو أسمائه وصفاته ،كما يكون في عبادته تعالى إن كان الفاعل عالما ومصرا عليه كفر بذلك ، إذ الشرك فى ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى وكذب عليه عز وجل ، والشرك فى عبادته تعالى تأليه لغيره سبحانه ، وتأليه غير الله تعالى كفر ، وتكذيب لله تعالى فى قوله :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]

وفى قوله

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]

...

وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك[3] ويختلف الشرك مع الكفر فى أن من الشرك ما لا يكون كفرا ، وذلك كالشرك الأصغر والشرك الخفى ، لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك وسماعه من بعض أصحابه . ولم يعتبر فاعله كافرا ، ولم يحكم بردته ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله تعالى : إذا جزي الناس بأعمالهم ، اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون من جزاء »[4] وقوله لمن قال له : ما شاء الله وشئت ، قال : " أجعلتنى لله ندا ؟ قل ما شاء الله وحده "[5] والند : الشريك

وقوله لأصحابه لما قالوا : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، قال : « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله »[6] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد أشرك »[7] وقوله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقيل له : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟

١- سورة آل عمران الآية : ١٨
٢ - سورة محمد الآية : ١٩
٣- أنظر عقيدة المؤمن ص ١٠٥ بتصرف
٤- رواه أحمد بإسناد جيد
٥- رواه أحمد وابن ماجه والدارمى
٦- رواه أحمد والطبرانى بسند لا بأس به
٧- رواه الترمذى وحسنه ، والحاكم .

قال : قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .[1]

ولم يحكم صلى الله عليه وسلم في كل هذا بردة فاعله ، ولا بتكفيره ، ومن أجل هذا قيدنا الكفر في شرك العبادة بكون فاعله عالما به أنه شرك وأصر عليه عنادا ومكابرة ، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال ، أو جاه أو سلطان .[2]

ولعل قائلا يقول : وهل العذر بالجهل في شرك العبادة فقط ؟

فنقول : وبالله التوفيق : لا عذر بالجهل في أصل التوحيد ، فمن اعتقد أنه لا إله ، أو أنه مع الله إله آخر ، أو له ابن وزوجة ، أو أنه لم يخلق هذا الكون ، أو أعانه فيه غيره ، أو أن معه من يتصرف في الكون بغير إذنه ، أو أنه شبه الله بأحد من خلقه ، أو جعل له من عباده كفوًا وندا ، ومثيلا وشبيها ، أو قال : إن الله فى صورة إنسان - ومثل هذا ، فإنه لا عذر فيه بجهل ، وإلا لعذر اليهود والنصارى والمشركون !!

وأما توحيد العبادة ، وصور التوحيد وفروعه فإنه يشتمل على العذر بالجهل فيه ويندرج تحته عامة المتصوفة ، وجهلة المسلمين الذين يقعون فى شرك العبادة[3] وإن كان المطلوب منهم التعليم والعمل بما أمر الله عز وجل به ، والحذر من الوقوع فيما نهى عنه ، كما قال تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[4]

وكما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[5]

١- رواه أحمد وكذا الطبرانى
٢- عقيدة المؤمن ص ١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف
٣- راجع بحث العذر بالجهل في كتابنا " شبهات التفكير "
٤- سورة الكهف الآية ١١٠.
٥- سورة الزمر الآيات : ٦٥ ، ٦٦

فهذا نـهى من الله عز وجل عن الشرك في عبادته - وهو من الشرك الأكبر ، إلا بعـض صوره التى ذكرناها - بعد أن نهـى عن الشرك به سبحانه فى قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1]

وبعد أن عرفنا هذه المقدمة حول معنى التوحيد وأقسامه ، والشرك وانواعه ، يحسن بنا أن نتعرف - بشىء من التفصيل - على التوحيد ، وكيف يكون الشرك فيه ، من باب تعليم الأمة ، وانقاذها من وهدة الضلال ، وها هى خطوة على طريق البناء ، فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك .

١- سورة النساء الآية : ٤٨

توحيد « الربوبية »

معنى " الرب " : إن مادة كلمة الرب فى اللغة (الراء والباء المضعفة) تأتى عنها هذه الإستعمالات :-

١- رب الولد ، ورب الضيعة ، إذا رباه وأصلح من شأنه ، أو تعاهدها وأصلح أمرها ورعاها .

٢- رب فلان قومهم وربيب القوم : إذا حكمتهم وسستهم فانقادوا لك واجتمعوا عليك ، ومنه " فلان يرب الناس " أى يجمعهم ، ويسمى مكان الاجتماع " المرب " .

٣- رب الدار ورب الابل : أى صاحبها ومالكها ومنه الحديث " أرب غنم أم رب إبل ؟ " أى أمالك .

ويلاحظ الترابط بين هذه المعانى ، فالمالك يسوس ، ويتعهد ويصلح ويربى ، والمربى له سلطان وسيطرة ونوع ملك .

وبالنسبة للذات الالهية ، فالله على الحقيقة هو مالك كل شىء ، وهو السيد والحكم وليس لغيره من سيادة ولا حاكمية وهو خَلَقَ وربّى وأصلَح شأن الكون ويرعاه .

وإذا تأملنا القرآن نجد أن القرآن ذكر أن هذه الخصائص كلها للذات الالهية وإضافتها إلى الغير على سبيل المجاز ، ولا تنطق مفردة ، فيقال رب البيت ، رب الدار ، رب القوم ، وهكذا ، أما ذكرها مفردة " رب " فهى لا تطلق إلا على الله عز وجل . ولذلك نعرف أن الربوبية أو توحيد الربوبية يستلزم هذه المعانى وجعلها لله وحده ، أنه هو الخالق الرازق المالك المربى الحاكم السيد المتصرف .

قال سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾[1]

لقد بين سبحانه أنه خالق الخلق ، ومالك الملك ، فقال تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]

كما قال :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[3]

وهل هناك خالق مع الله ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[4]

وما دام ليس هناك خالق غير الله ، فليس هناك رازق سواه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[5]

كما قال سبحانه :

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[6]

خلق ورزق إذاً يأمر ويحكم ، قال تعالى :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[7]

وحكمه مبنى علي علمه

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[8]

١- سورة الناس الآيات : ١- ٣
٢- سورة الفاتحة الآية : ٢
٣- سورة الشعراء الآيات : ٢٣ ، ٢٤
٤- سورة فاطر الآية : ٣
٥- سورة الذاريات الآية : ٥٨
٦- سورة الذاريات الآية : ٢٢
٧- سورة الأعراف الآية : ٥٤
٨- سورة الملك الآية : ١٤

بلى يعلم ، فلما علم حكم فقال :

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1)

له السيادة العظمى " فالسيد على الإطلاق هو الله " ، والتصرف المطلق فى كونه سبحانه

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(2)

فهذا اعتقادنا فى ربوبية الله عز وجل وهو من التوحيد .

أما نقيض ذلك وعكسه فهو الشرك فى الربوبية كمن يزعم أن له خالقا غير الله ، أو رازقا سواه ، أو مالكا للملك غيره ، أو متصرفا فى الكون إلا بإذنه ، أو حاكما بغير شرعة الله ، أو أن شرعا يصلح الناس ويربيهم غير شريعته ، أو دينا غير الدين الذى ارتضى لهم .

والربوبية تقابلها العبودية ، والرب هو المعبود ، فماذا تعنى هذه الكلمة ؟ إن مادة " عبد " فى اللغة هي " العين والباء والدال " يأتى منها :

١- العبد هو المملوك وهو خلاف الحر ، وقد ورد في القرآن :

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(3)

١- سورة يوسف الآية : ٤٠ .

٢- سورة آل عمران الآيات : ٢٦ ، ٢٧

٣- سورة الشعراء الآية : ٢٢

أى اتخذتهم عبيدا .

٢- العبادة هى الطاعة مع الخضوع . وقد ورد فى القرآن

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾[١]

أى لا تطيعوه

﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾[٢]

أى خاضعون مطيعون .

٣- المعبد هو المكرم المعظم ، قال الشاعر " أرى المال عند الباخلين معبدا " .

٤- عبد به : لازمه فلم يفارقه .

٥- ما عبدك عنى : ما حبسك عنى .

ولو أنك تأملت هذه المعانى المختلفة لهذه المادة ، فإنك تجد الترابط التام بينها ، فلا يحبس إلا من يستعبد بنوع من العبودية ، ومن استعبدت له لزمته وعظمته وأطعته ، وخضعت له ، وتنازلت له عن كثير من حريتي .

فصارت كلمة المعبود تتضمن معاني : المالك - المطاع - المعظم - المستمسك به . فعندما قلت : لا معبود إلا الله أى لا مالك لى ولغيرى ، ولا مطاع ولامعظم ومستمسك به إلا الله .

وإذا تأملنا القرآن وجدنا فعلا أن من خصائص الذات الالهية هذه المعانى

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾[٣]

١- سورة يس الآية : ٦٠.   ٢- سورة المؤمنون الآية : ٤٧

٣- سورة الناس الآيات : ١ - ٣

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١)

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾(٢)

وطاعة الرسول هى طاعة لله على الحقيقة

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(٣)

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٥)

ويلاحظ أن الطاعة والعبادة كلمتان مترادفتان ، بينهما عموم وخصوص ، فالعموم بمعنى واحد،وأما الخصوص ، فالعبادة لا تكون إلا لله

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٦)

وأما الطاعة فإنها كلمة مشتركة ، فنقول : طاعة الله ، وطاعة الرسول ، وطاعة أولى الأمر ، وطاعة المعلم ، وهكذا ، ومنه قوله تعالى :-

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(٧)

والذى يهمنا هنا أن توحيد الربوبية لابد من اكتماله بالتحلى بالعبودية ، ولكن فريقا من الناس اعتقدوا بالربوبية ، وأبوا إخلاص العبودية ، فلم ينفعهم إيمانهم ولا اعتقادهم ، فهم على الرغم من اعترافهم كما حكاه القرآن ، إلا إنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى فى عبادته ، وقالوا على حد زعمهم :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾(٨)

١- سورة آل عمران الآية : ١٨٩
٢- سورة آل عمران الآية : ٣٢
٣- سورة النساء الآية : ٨٠
٤- سورة البقرة الآية : ٢٥٥
٥- سورة آل عمران الآية : ١٠٢
٦- سورة الفاتحة الآية : ٤
٧- سورة النساء الآية : ٥٩
٨- سورة الزمر الآية : ٣

لقد اعترف المشركون بالربوبية فقط ، قال تعالى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١)

وقال سبحانه :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (٢)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣)

ويقول عز من قائل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٤)

وهكذا توالت اعترافاتهم بربوبية الله عز وجل ، واعتقادهم به ، ولكنهم لما طلب منهم إخلاص التوحيد وإفراد الله بالعبادة والحكم ، أبوا ذلك وأنكروه ، فلم ينفعهم إيمانهم وظلوا على الشرك إلا من هداه الله للإسلام وشرح صدره له ،

١- سورة يونس الآية : ٣١
٢- سورة المؤمنون الآيات : ٨٤ - ٨٩
٣- سورة الزخرف الآية : ٨٧
٤- سورة الزخرف الآية : ٩

ونور قلبه بهذا الحق . ولذلك لا يصلح التوحيد إلا إذا اكتملت جوانبه ، فلا توحيد بالربوبية إذا لم يتبعه توحيد العبودية ،فكلاهما أمر لا يتجزأ ، وعروة لا تنفصم ولا تقسم .

واستمع إلي هذا الفيض القرآنى والبيان الرحمانى ، من الله عز وجل ، وهو يقول : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ

عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ

أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا

رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ

مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى

ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ

رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ

أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١)

صدق الله العظيم

١- سورة النمل الأيات : ٥٩ - ٦٤

توحيد الألوهية

" إله " مادة كلمة الإله فى اللغة (الألف ، واللام ، والهاء) جاءت من هذه المادة كما يلى :-

ألهت إلي فلان : إذا سكنت إليه واطمأننت ، إله الرجل يأله : إذا استجار ، أله الرجل إلى الرجل : اتجه إليه لشدة شوقه ، أله الفصيل بأمه ، إذا ولع بها . أله الاهة وألوهة : عبد، لاه يليه ليها : إذا احتجب .

والقاعدة فى اللغة العربية أن الكلمات ذات المادة الواحدة يكون فيما بينها ترابط ، ولو أننا تأملنا مدلولات المادة السابقة ، فإننا نجد الترابط واضحا فيما بينها ، فأنا لا أستجير إلا بمن أسكن إليه وأحبه ، وأعتبره أقوى منى ، بحيث يقدر على إجارتى ، وعلى هذا ، فالاله يُسْكَنُ إليه ويُطْمأن ، ويُستَجَارُ به ، ويُسْتَعَاذُ به ، ويُحَبُ ويُشْتَاقُ إليه ويُعْبَدُ وهو محتجب . فإذن نحن عندما قلنا : لا إله إلا الله - دخل فى ذلك ضمنا معان معينة ، فكأننى قلت : لا مُطْمَأن إليه ، ولا مُستَجار به ، ولا محبوب ، ولا معبود إلا الله .[1]

وفعلا فإن القرآن علمنا أن هذه المعانى كلها من خصائص الذات الالهية ، ومن واجبات العبودية ، ولذلك فإنه يصح لنا أن نسمى هذا " توحيد الألوهية " من جانب ، " وتوحيد العبودية " من جانب آخر ، وبما أن هذه المعانى التى ذكرت ، إنما هى تفصيل واشتقاق لمعانى العبودية ، والعبادة ، فما هى العبادة إذن ؟

لقد ذكر لها سلفنا الصالح تعريفا مقتبسا من القرآن يبين معناها ، ويصحح مفهومها قالوا : العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . ولذلك فهى لا تقف عند حد أصول العبادات فقط ،

١- الإسلام للشيخ سعيد حوى ص ١٨ ، ١٩ بتصرف

أو أعمال الجوارح فحسب ، لا ، ولكنها تشمل :-

الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين ، والمملوك من الآدميين والبهائم . وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هى من العبادات لله تعالى ، فهى تشمل حياة الإنسان وتتعداها إلى موته ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1]

فالعبادة لله جامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه ، فيخرج منها ما يبغضه الله ويسخطه كالشرك والمعصية . والعبادة لله هى الغاية المحبوبة له والمرضية كذلك التى خلق الخلق لها ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]

هكذا بأداة النفى والاستثناء ليفيد الحصر والقصر . وبها أرسل جميع الرسل إلى أقوامهم ، فما من نبى إلا وقد دعا إليها قائلا :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[3]

وأجمل القرآن ذلك بقوله :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾[4]

١- سورة الأنعام الآيات : ١٦٢ ، ١٦٣ — ٢- سورة الذاريات الآية : ٥٦

٣- سورة الأعراف الآيات : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ (على لسان نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم)

٤- سورة النحل الآية : ٣٦

كما قال سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1]

وقد أمرنا ربنا بالعبادة فى قوله :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2]

كما أمر بها الرسل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[3]

وجعل ذلك لازما لرسله إلى الموت

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[4]

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه،فقال تعالى :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾[5]

وذم المستكبرين عنها بقوله :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[6]

١- سورة الأنبياء الآية : ٢٥
٢- سورة الأنبياء الآية : ٩٢
٣- سورة المؤمنون الآية : ٥١
٤- سورة الحجر الآية : ٩٩
٥- سورة الأنبياء الآية : ١٩
٦- سورة غافر الآية : ٦٠

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له - لأنها شرف - فقال تعالى :

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (١)

وقال :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٢)

كما حكاه الله عز وجل عن كل خلقه :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (٣)

فالدين كله داخل في العبادة ، وقد ثبت في الصحيح فى حديث جبريل عليه السلام - فى آخره - قال : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » (٤) فجعل هذا كله من الدين .

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال دنته فدان ، أى أذللته فذل ، ويقال : ندين الله ، وندين لله ، أى نعبد الله ونطيعه ونخضع له ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له . ولذا فشرطا العبادة : الذل - الذى هو أصل معناها - ، والحب هو المعنى المتمم لها ، فهى تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ... (٥)

فإن آخر مراتب الحب هو التتيم ، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها التتيم ، يقال " تيم الله " أى عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه .

ومن خضع لإنسان مع بغضه فلا يكون عابدا ، ولو أحب شيئا ولم يخضع

١- سورة الإنسان الآية : ٦
٢- سورة الفرقان الآية : ٦٣
٣- سورة مريم الآية : ٩٣
٤- متفق عليه
٥- العبودية لابن تيمية ص ٤ - ٦ بتصرف

له لم يكن عابدا له . كما قد يحب ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء وأن يكون الله عنده أعظم من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله ، فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيما باطلا ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[1]

فجنس المحبة يكون لله ورسوله ، كالطاعة تكون لله ورسوله ، والإرضاء لله ورسوله[2]

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[3]

فالتوحيد أن يكون أكبر الحب لله ، والشرك تقديم محبة الغير علي الله ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

هذا شرك

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[4]

هذا توحيد .

ولذلك فحب الله عز وجل أولا ، ثم حب النبى صلى الله عليه وسلم وإخوانه

١- سورة التوبة الآية : ٢٤

٢- رسالة العبودية لابن تيمية ص ٤ - ٦ بتصرف

٣- سورة التوبة الآية : ٦٢

٤- سورة البقرة الآية : ١٦٥

من الأنبياء ، ثم حب الصحابة رضى الله عنهم بدءاً بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وبقية العشرة المبشرين بالجنة ، ثم آل البيت ، والمهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم عموم الصحابة ، ومن تبعهم بإحسان ، ثم يحب الرجل والده وأولاده وإخوانه وزوجه وعشيرته وماله وتجارته ومسكنه ، وليست هذه كتلك ، ولا يجوز تقديم هذه على تلك .

هذا ، وللعبادة ركنان أساسيان ، لابد منهما :

أحدهما : إخلاص النية . وذلك بأن لا يعبد إلا الله ، ولا يقصد إلا وجهه ولا يبتغى إلا مرضاته ، ولا يريد بعمله أحداً سواه ، كما قال تعالى :

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (١)

وكما قال سبحانه :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (٢)

وكقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسى - فيما يرويه عن ربه عز وجل « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برئ وتركته وشركه » - وفى رواية . وشريكه ، وفى رواية : وإنما هو للذى أشرك (٣)

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، .. الحديث » (٤)

ثانيهما : أن يعبده بما أمر وشرع ، لا بغير ذلك من الأهواء والبدع ،

١- سورة الزمر الآيات : ٢ ، ٣
٢- سورة البينة الآية : ٥
٣- حديث قدسى صحيح ، رواه مسلم
٤- أخرجه الستة .

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]

وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »[3] أى باطل .

فلا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا ينفع أحدهما بدون الآخر ولا يقبل ، ولذا جمع الله بينهما فى كثير من آى القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾

(أى صحيحا)

﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

(أى لابد من النية الخالصة) .

كما قال تعالى :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[4]

وقد سئل الفضيل بن عياض عن أحسن العمل ؟ فقال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا على : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن

١- سورة الكهف الآية : ١١٠

٢- سورة البقرة الآية : ١١٢

٣- متفق عليه

٤- سورة الملك الآية : ٢

يكون على السنة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .[1]

وخلاصة القول : أنه لابد للعبادة من ركنين أساسيين :

(١) نية خالصة . (٢) صورة عمل مشروعة .

فلابد أن يبتغى بنيته وجه الله وحده ، وأن يكون عمله موافقا للكتاب والسنة . ولا تجزئ واحدة عن الأخرى ، فلا تسعفه النية الخالصة وحدها ويخطئ فى العمل . ولا يكفيه عمل صحيح والنية قد شابتها شائبة شك أو شرك أو رياء ، كما قال تعالى :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2]

على نحو ما قد وضحناه .

نوعا العبادة : للعبادة نوعان : (١) قلبية (٢) بدنية . أو ظاهرة وباطنة .

(١) فعبادة القلب ، أو العبادة الباطنة تتمثل فى الإيمان ، والإنابة ، والاستسلام ، والحب ، والرجاء ، والخوف ، والرغبة والرهبة ، والتوكل ، والخشية .

والمراد بعبادة القلب : العبادات التى يقوم بها قلب العبد ، دون دخل للجوارح فيها ، وهى من جنس العبادات ، بل أصلها ، ولكن يغفل الكثير عنها ، ويظن أن ذلك لا دخل له بالعبادة ، فيوجهها لغير الله ، فيقع في لون من ألوان الشرك .

وعلى رأس هذه العبادات القلبية :

١- رسالة العبودية لابن تيمية ص ١٧ ، ١٨ بتصرف . ٢- سورة الملك ، الآية : ٢

١) الإيمان : وهو تصديق القلب بوجود الله تعالى وربوبيته لكل شيء ، وألوهيته للأولين والآخرين ، مع التصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به ، واعتقاده من الملائكة والكتب ، والرسل ، والمعاد ، والجزاء ، والنعيم ، والشقاء ، والقدر والقضاء ، لأمر الله تعالى بذلك ، في قوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[١]

وهذا الإيمان محله القلب ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[٢]

كما قال تعالى :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾[٣]

وهذا الإيمان الذى محله القلب هو الركيزة التى يرتكز عليها ما بعده ، فهو أساس الدين ، ورأس الدين ، ورأس العبادات .

٢) المحبة : وهى حب الله تعالى وحب كل من يحب من عباده ، وما يحب من عقائد عباده ، وأقوالهم وأعمالهم ، وذلك لقول الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[٤]

١- سورة النساء الآية : ١٣٦
٢- سورة الحجرات الآية : ٧
٣- سورة المجادلة الآية : ٢٢
٤- سورة البقرة الآية : ١٦٥

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقنى حبك وحب من ينفعنى حبه عندك ، اللهم ارزقنى مماأحب فاجعله قوة فيما تحب ، وما زويت عنى فاجعله فراغا لى فيما تحب » (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف به فى النار » (٣) .

وعليه فمن أحب الله تعالى ، وأحب من يحب من عباده ، وما يحب من اعتقاداتهم وأقوالهم وأفعالهم، ولم يشرك فى هذا الحب أحداً فقد وحد الله تعالى فى العبادة ، ومن أحب غير الله تعالى حبا لم يأذن فيه الله تعالى ، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه ، أو حَرَّمَه كحب ما يُعبد من دون الله تعالى ، وحُبُ الرؤساء ، وحب الدنيا حبا يجعل المحب على طاعة المحبوب فى معصية الله تعالى ، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى تعظيمه وإجلاله ، وإكباره ، والذلة له والخضوع ، والخنوع ، فمن أحب بهذا الحب غير الله تعالى فقد أشرك فى عبادة الله تعالى التى هى حب الله والحب لأجل الله تعالى ...(٤)

٣) الخشية والخوف : إن خشية الله تعالى والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين ، فقد أمر بخشيته ، ونهى عن خشية غيره ، فى قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (٥)

١- سورة آل عمران الآية : ٣١
٢- رواه الترمذى بسند حسن ، كتاب الدعوات (٧٣)
٣- متفق عليه
٤- عقيدة المؤمن ص ١١٠ ، ١١٢ - بتصرف
٥- سورة المائدة الآية : ٤٤

كما أمر بالخوف منه ، و نهى عن خوف غيره فى قوله :

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]

وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[2]

فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يفرد بهما الله عز وجل ، وتختص به ، فمن خاف غير الله تعالى ، أو خشيه معظما له ، مستكينا ، يذل له ويطيعه فى معصية الله تعالى ، وهو غير مُكرِه له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله فى هذه العبادة .

٤) الرجاء والرغبة : الرجاء هو الأمل فى الخير ، وترقب حصوله . وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاه منه ، والرغبة : حب الخير وإرادته ، والطمع فى تحصيله ممن يملكه ، ويقدر على إعطائه وهبته ، فهى مثل الرجاء ، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنين حيث قال تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[3]

وقال تعالى :

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[4]

وقال :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[5]

١- سورة آل عمران الآية : ١٧٥ ٢- سورة الملك الآية : ١٢ ٣- سورة الكهف الآية : ١١٠.
٤- سورة الأحزاب الآية : ٢١ ٥- سورة الأنبياء الآية : ٩٠.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرغبة إليه تعالى فى قوله :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾[1]

ولما كان الخير كله بيد الله تعالى وليس بيد أحد سواه ، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده ، كان رجاء الخير ورغبته من غير الله تعالى ضلالا وباطلا ، وكان فاعله مشركا فى هذه العبادة القلبية غير ربه عز وجل .

٥) الإنابة : وهى الإقبال على الله تعالى ، والتوبة إليه . والإنابة عبادة أمر الله تعالى بها فى قوله :

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾[2]

وأخبر أنه يهدى إليه من ينيب ، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه ، جاء ذلك كله فى كتابه القرآن الكريم .

ولما لم يكن فى الخلق كله من يعطى أو يمنع ، أو يضر أو ينفع إلا بإذن الله ولا من يسعد أويشقى إلا الله سبحانه وتعالى ، كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير الله رغبة أو رهبة ، خوفا أو طمعا ، وكانت الإنابة إلى غير الله عز وجل باطلا وشركا ، وكان من أناب إلي غير الله تعالى تائبا إليه - أى إلى ذلك الغير - راجيا الخير منه ، خائفا من سخطه أو عقابه فقد أشرك .

٦) التوكل : وهو الاستسلام لله تعالى ، وتفويض الأمر إليه ، اعتمادا ووثوقا به ، أمر الله تعالى به ، فى غير آية من كتابه ، وجعله آية الإيمان

١- سورة الشرح الآيات : ٧ ، ٨

٢- سورة الزمر الآية : ٥٤

وعلامته ، فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

وقال :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

ووعد بالكفاية للمتوكلين عليه في قوله :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٣)

وخص التوكل به فقال :

﴿ وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٤)

فالتوكل إذا عبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفاية الله ، وتفويض الأمور إلى الله تعالى لكفايته والاعتماد عليه تعالى لعلمه وقدرته .

ولما كان لا كافى إلا الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله تعالى باطلا وشركا ، وكان المتوكل على غير الله تعالى سكونا ، ووثوقا واعتمادا ، مشركا . (٥)

(٢) وعبادة البدن ، أو العبادة الظاهرة للجوارح تتمثل فى القول والفعل ، فالقول يتمثل فى الدعاء ، والاستعانة والاستغاثة ، والحلف ، وطلب المدد ، وذكر الله عز وجل ، والفعل يتمثل فى الصلاة والركوع والسجود والطواف ،

١- سورة الأحزاب الآية : ٢١

٢- سورة المائدة الآية : ٢٣

٣- سورة الطلاق الآية : ٣

٤- سورة إبراهيم الآية : ١٢

٥- عقيدة المؤمن ص ١١٢ - ١١٤ بتصرف

والزكاة ، والنسك ، والنذور ، والتقبيل ، والحلق ، والهدى ، وسائر أنواع العبادات البدنية والمالية .

وهذه العبادات لا يجوز أن تكون إلا لله عز وجل ، وفق ما شرعه سبحانه ونبيه صلى الله عليه وسلم في سنته .فلا يجوز أن تكون لملك مقرب ولا نبى مرسل ، ولاولى صالح . إذ لا يعبد إلا الله عز وجل ، كما قال تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]

وقال سبحانه:

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[2]

ونوضح القول فى هذه العبادات بأدلتها من القرآن والسنة - مختصرا - فنقول - وبالله التوفيق :

(أ) العبادات القولية : ومنها

(١) " الدعاء " وهو سؤال الرغائب ، وطلب الحاجات فى جلب نفع أو دفع ضر ممن يملك ويقدر . والدعاء من أعظم مظاهر العبادة ، وأوضح صورة من صورها حتى قيل فيه " الدعاء مخ العبادة " وكما قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة »[3] وكما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[4]

فعبر القرآن الكريم عن الدعاء بأنه هو العبادة ، وحذر من الاستكبار عنه ، ولذلك كانت العبادة بدونه ليست شيئا ، أولاتستقيم ولا تتم إلا به ، وهو

١- سورة الفاتحة الآية : ٥
٢- سورة الزمر الآية : ٦٦
٣- رواه الترمذى بسند حسن وأبو داود بسند صحيح
٤- سورة غافر الآية : ٦٠.

كذلك إذ فى الدعاء الذل للمدعو ، والافتقار إليه والاستكانة له وتعظيمه ، واستشعار غناه ، وإحاطة علمه بالداعى ، وقدرته على إعطائه ما سأله فيه مع تمجيده ،والتوسل إليه بأسمائه وصفاته إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التى لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا فى الدعاء ، وحال السجود ، ولذا كان الدعاء فى السجود مستجابا ، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه .

وهذه العبادة لا تجوز إلا لله وحده . فبما أنه عبادة فلا يكون إلا لله .

وفى الدعاء جلب نفع ودفع ضر ، وجلب خير ، ودفع شر ، والنافع والضار ، هو الله عز وجل ، قال تعالى :

﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(1)

كما بين سبحانه وتعالى عجز المخلوقات عن استجابة دعاء أو سماعه ، فقال عز من قائل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(2)

كما قال جل وعلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾(3)

١- سورة الزمر الآية : ٣٨ ٢- سورة الأعراف الآية : ١٩٤ ٣- سورة فاطر الآية : ١٣ ، ١٤

فالذى يملك تحقيق الرغائب ، وقضاء الحوائج ، واستجابة الدعوات ، الذى يعلم حال السائل الداعى ، يسمع كلامه ويرى مكانه ، ولا يخفى عليه شىء فى أمره ، لذا لم يحتج الدعاء رفع الأصوات والاستعانة بالأموات ، أو اللجوء إلى وساطة وشفاعات ، أو كرامة ولى أو بركات ، وإنما كما قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1]

٢) الاستعانة : هى طلب العون ، والمعونة على قضاء حاجة ، أو خروج من محنة وهى نوع من الدعاء والاستغاثة ، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة ، ولا من ميت لا يسمع المستعين به ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاجته وحاله ، ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء ، ورؤية الداعى ، وإعانته على ما هو فى حاجة إلى المعونة فيه ، كحال من ينادى على شخص قريب منه من أجل أن يعينه فلا بأس ، على أنه سبب من الأسباب ، وليس هذا كالذى ينادى على ميت أو شخص بعيد .

وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون سواه ، بعد أمره لهم بعبادته ، فالعبادة أولا والاستعانة ثانية ، وبالعبادة يأتى العون قال تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]

وتقديم المفعول على الفعل يفيد الاختصاص ، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله ، وهذا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما - «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله » .[3]

١- سورة البقرة الآية : ١٨٦

٢- سورة الفاتحة الآية : ٥

٣- رواه الترمذى وصححه .

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم ، وانقطاعهم عن الحياة ، كان ضلالا وباطلا ، وكان فاعله مشركا بالله تعالى فى هذه العبادات من عبادات الله التى لا تنبغى لأحد سواه .

٣) الاستغاثة : هى طلب الغوث والغياث ، وهو ما يغاث به المضطر ، ويعان به من طعام ، أو شراب ، أو نصر أو تأييد ، أو خلاص من شدة ، أو إنقاذ من محنة . وهى - أى الاستغاثة - من جنس الدعاء ، فمن لا يُدْعَى لفقره وعدم قدرته وجهله بحال الداعى ، وعدم سماع دعائه - وعدم معرفة مكانه وحاله ، لا يستغاث به كذلك ، قال تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

كما قال سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (٢)

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لا يسمع كلامه ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاله من حى غائب بعيد ، لا يرى المستغيث ، ولا يسمع استغاثته ،أو ميت انقطع عمله من الدنيا ، سواء كان نبيا من الأنبياء ، أو صالحا من الصالحين ، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى .

وليعلم المؤمن هنا أن سؤال الحى من الناس واستغاثته - أى طلب الغوث منه - إذا كان قادرا على العطاء والغوث ، وكان قريبا من الداعى المستغيث

١- سورة النمل الآية : ٦٢

٢- سورة الأحقاف الآية : ٥

يسمع كلامه ويرى مكانه ، قد أذن الله فيه ، وأباحه لعباده ولم يجعله عبادة تخصه ، يحرم إشراك غيره فيها ، وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

(٤) وكذلك " المدد " وهو طلب العطاء لا يملكه إلا الله ، فلا يكون من ميت أو بعيد لا يسمع ولا يجيب ، وبما أن العطاء لا يملكه إلا الله ، فلا يكون طلب المدد إلا منه سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[١]

فيجب أن نقول مدد يا الله ، مدد يا رب ، ولكن يأبى جهلة المسلمين ، وعامة الصوفية ، إلا أن يقولوا : مدد يا رسول الله ، مدد يا آل البيت ، مدد يا أولياء الله ، وبعد الإجمال يأتى الذكر بالتفصيل أو بالأسماء . وهذا منهم خلط وشرك . فلا يطلب المدد إلا من الله .

(٥) تعظيم الله بالحلف به عز وجل : إن تعظيم الله عز وجل بالحلف به ، وإجلاله تبارك وتعالى عبادة تعبد الله بها المؤمنون من عباده ، فلذلك كان الحلف به سبحانه ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت »[٢] ولا يجوز الحلف بغير الله سبحانه وتعالى ، لا بنبى ولا ولى ، ولا والدِيْن ، ولا الأمانة ، ولا شيء من المخلوقات ، وذلك لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » ومثل هذا الحلف من الشرك ، كما قال صلى الله عليه وسلم " من حلف بغير الله فقد أشرك " - وفى لفظ - " فقد كفر "[٣] وقال « من حلف فقال فى حلفه واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله »[٤] ولا يجوز لإنسان أن يقول : أقسم الله عز وجل بالليل والضحى والشمس

١- سورة الأنفال الآية : ٩
٢- متفق عليه
٣- رواه الترمذى ، وقال هذا حديث حسن ورواه أحمد والحاكم
٤- متفق عليه

والفجر والبلد ، وأمثال هذا من المخلوقات ، كما أقسم بالنبى ﷺ فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1]

فلماذا لا نقسم نحن بالنبى وبغيره مما أقسم الله به ، ونقيس عليه أمثاله ؟ فنقول : إن الله عز وجل يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وكيفما شاء سبحانه ، أما نحن فلا نقسم إلا بما شرع لنا ، ولا قسم إلا بالله ، وفى مظانه ، ولأسبابه بدون التعرض لكثرة الحلف ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾[2]

فإذا حلف الإنسان بغير الله - فهو من قبيل الشرك فى الألفاظ - فعليه أن يقول : لا إله إلا الله ، كما يقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه »[3]

ومثله كل لفظ يخطئ الإنسان فيه ، مما يوقعه فى الشرك الأصغر ، كأن يقول : اعتمدت على الله وعليك ، وتوكلت على الله وعليك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، وما شاء الله وشئت ، وليس لى إلا الله وأنت ، وأمثال هذا من الشرك فى الألفاظ عليه أن يُكَفِّر عن خطئه هذا بقوله : " لا إله إلا الله " تجديدا للإيمان ، وفى ذات الوقت يصوب اللفظ ، وفق ما جاء فى دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : اعتمدت على الله ثم عليك ، وما شاء الله ثم شئت ... وهكذا

ومن الشرك الأصغر " التسمي بأسماء الله تعالى ، أو بما لا ينبغى إلا لله . لما روى أبو داود عن أبى شريح أنه كان يُكَنَّى أبا الحَكَم ، فقال له النبى ﷺ : إن الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ ، ثم كُنِيَ بولده " شريح " أكبر أولاده .

١- سورة الحجر الآية : ٧٢
٢- سورة البقرة الآية : ٢٢٤
٣- من حديث رواه أحمد وكذا الطبرانى

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى شاهنشاه أى ملك الملوك ، ولا ملك إلا الله . وفى رواية : أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه ، ومنه أيضا : أن يسمى الإنسان باسم معبد لغير الله ، كعبد الكعبة ، أو عبد النبى ، أو عبد الحسين ، أو عبد المسيح ، ونحو ذلك ، فقد نقل ابن حزم الإجماع على تحريم التسمية بذلك ، باستثناء " عبد المطلب " .

ومن ذلك : سب الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس ، فإن سب الدهر حينئذ يكون نوعا من شكوى الله تعالى أو السخط عليه ، فإنه هو الذى يدبر الأمر ، ويقلب الليل والنهار ، وهوالفاعل لكل ما فى الكون من أحداث [1] .

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : قال الله تعالى : « يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار » [2] .

وإن الدقة فى هذا الدين هى التى جعلت ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول : الشرك أخفى فى الأمة من دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الملساء ، في الليلة الظلماء ، ومثاله أن يقول الرجل : لولا كلب فلان لسرق الدار ، ولكن ليقول : لولا أن الله سخر الكلب لسرق الدار .. !! فإذا كانت الدقة إلى هذا الحد ، وتلك الدرجة ، فكيف يجوز لإنسان أن يطلق لنفسه العنان فى أن يقول ما يشاء ، ويحلف بمن شاء ، ويدعو من يشاء ، ويستغيث بمن شاء ؟ !! ألا إن هذا الدين مرتهن بإخلاص النية ، وصحة العمل ، فلا يغن أحدهما عن الآخر ، ولذلك فالذى يذكر الله عز وجل لابد أن يذكر الله بنية خالصة لا يقصد رياء ولا سمعة ، ولابد أن يذكره وفق ما شرع له ، وبيّنَ نَبِيَه صلى الله عليه وسلم ، لا بمكاء ولا تصدية ، أو طبل وزمر ، أو الحاد فى أسماء الله ، أو ذكر اسم الله مفردا ، أو تغنج وتغنى ، وتمايع وتمايل ، فليس

١- حقيقة التوحيد ، د/ القرضاوى ص ٧٧ بتصرف

٢- أخرجهه البخارى

هذا من ذكر الله فى شىء ، ولا من العبادة فى شىء ، فكل عبادة مرتهنة بما ذكرناه من أركان وشروط .

ب) العبادات الفعلية ، ومنها :

- أصول العبادات " الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج " وحتى تكون هذه العبادات لله لابد فيها من إخلاص النية وصحة العمل ، مع كمال الحب وتمام الذل ، كما وضحناه .

- ويندرج تحت الصلاة بعض أركانها " كالركوع والسجود " ، لابد أن يكون ذلك لله وحده ، فلا ركوع لعظيم ، ولا سجود على سبيل التحية والتكريم ، فضلا عن العبادة والتعظيم ، إنما يكون ذلك لله وحده ، كما قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٢)

فلا سجود لنبى ، ولا ولى ، ولا لحاكم ، أو زوج ، أو والِدين ، وإن كان ذلك يجوز فى شرائع سابقة ، فقد نسخ ذلك فى شريعة الإسلام الخاتمة .

ولذلك فالذى يسجد على أعتاب الأولياء ، والحكام والعظماء وغيرهم ، فقد أشرك بالله تعالى . ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء ، والسجود وهووضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغى لأحد مهما كان شأنه إلا الله تعالى ، فمن ركع لأحد أو سجد له ، معظما إياه ، أو طامعا فيه ، أو خائفا منه ، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه ، وعبد مع الله غيره ، وكان فعله شركا أكبر .

١- سورة الحج الآية : ٧٧

- ومما يأخذ حكم الصلاة " الطواف " لأنه عبادة تضاهى الصلاة ، ويأخذ حكمها فى كثير من الحيثيات ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " الطواف صلاة ، إلا أن الله أحل فيه الكلام ، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير " . [1]
حقيقة فالطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده ، وأمرهم بها ، وقصرها على بيته العتيق ، فى قوله تعالى :

﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [2]

وعليه ، فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر أو ضريح ، أو مشهد ، أو صنم ، أو بيت أبيض أو أسود ، أو غير ذلك ، معظما لما يطوف ، متقربا إليه ، أو به إلى غيره ، حتى ولو كان إلى الله تعالى ، فقد ابتدع وأشرك ، وطوافه ذلك شرك أكبر ، وبدعة وضلالة من أشنع البدع وأقبحها ، لما فيها من التشريع ، وهوحق الله تعالى وحده دون سواه .

فالطواف بالكعبة فقط ، والتقبيل للحجر الأسود فقط ، عبادة شرعها الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وبفعله ، فلم يشرع لهذه الأمة تقبيل حجر آخر ، ولا ركن ولا جدار ، ولا قبر ولا ضريح ولا تابوت ، وعليه فمن قَبَّل عتبة ، أو جدارا ، أو بابا ، أو حلقة فى باب ، أو قبرا ، أو مشهدا قائما من المشاهد ، فقد ابتدع ، وإن فعل ذلك تعظيما لما قَبَّله وتقديسا ، راجيا منه النفع ، دافعا به الضر ، فقد أشرك .

- ومن بعد الصلاة تذكر النسك كما هو فى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [3]

ومن النسك " النذور ، وذبح القربان " !

١- أخرجه البخارى وغيره
٢- سورة الحج الآية : ٢٩
٣- سورة الأنعام الآية : ١٦٢

النذر وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات ، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقربا إلى الله تعالى ، أو بشرط أن يقضى الله له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها ، كأن يقول فى تعهده : اللهم إن شفيت مرضى ، أو رددت غائبى ، أو قضيت حاجتي فى كذا ... لك على أن أتصدق بكذا ... أو أصوم أو أصلى كذا وكذا .. والنذر مما تعبد الله به عباده المؤمنين ، وقال تعالى مثنيا عليهم بالوفاء به :

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾[1]

وقال مرغبا فيه :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾[2]

وخير النذر ما كان بغير شرط لكراهة النبى صلي الله عليه وسلم النذر المشروط فى قوله « النذر لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به مال البخيل »[3].

وهذا فيه استشعار قدرة الله وغناه ، وإظهار الناذر عجزه وضعفه ، وافتقاره إلى من نذر إليه .

وهذا - وأيم الله - لا يليق إلا بالله تعالى ، ويا ويل أولئك الذين ينذرون إلى الأولياء ، الصالحين ، من أموات المسلمين وأحيائهم ، فقد وقعوا فى هلكة وهم لا يشعرون ، وأشركوا بعبادة ربهم غيره وهم لا يعلمون . ثم تعطى تلك النذور لمن لا يستحقون ، ولا يؤجرون عليها ، بل يأثمون . !!

ومن هذه النذور ما يقدم فى صورة نقدية كالمال ، أو عينية كالذبائح ، وهى من جنسها .

١- سورة الإنسان الآية : ٧

٢- سورة البقرة الآية : ٢٧٠.

٣- متفق عليه بمعناه

- وذبح القربان وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدى فى الحج ، وضحايا يوم عيد الأضحى ، وشاة العقيقة يوم سابع المولود ، وذبائح وليمة العرس ، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين . كل هذا قد شرعه الله تعالى فى كتابه ، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا الذبح تقربا وعبادة لا تنبغى إلا لله تعالى ، ومن ذبح لغير الله تعالى معظما له ، خائفا منه ، راجيا ما عنده ، فقد عبده بهذه العبادة وأشركه فى عبادة ربه عز وجل .

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معا بما يفعله أهل الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور فى أيام الموالد والمواسم تعظيما لمن يذبحون لهم ، وتقديسا ، ورغبة فى شفاعتهم ، وطمعا فيهم ، وتوسلا بجاهلهم .

ولعل قائلا يقول : إنما نحن نذبحها لله - لا لهم - وإنما نرزعها على الفقراء . كفقراء الحسين والسيدة مثلا . فنقول : شرط الذبح أن يكون لله ، فى مكان لا يذبح فيه لغير الله . أو فيه عيد من أعياد الجاهلية ، وفى الحديث (لعن الله من ذبح لغير الله) [1] وكذلك عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة فسأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبَد ؟ قالوا : لا ، قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا ، فقال : أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم[2] .

ثم من الذى يزعم أنهم فقراء ؟ بل محترفون ، نصابون - فى غالب الأحيان !!

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد ذبائح الزار ، والنشرة . [3]

١- أخرجه مسلم - بتمامه ٢- رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما .

٣- النشرة : حل السحر عن المسحور

وعلى حافات الآبار ، وعتبات المنازل خوفا من الجن ، إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر ، والعياذ بالله من ذلك[1]

- ثم لابد من أن تكون حياة الإنسان لله ، ومماته لله ، وما بين الحياة والممات لله ، لا يشرك مع الله فيها أحدا ، ولا يعبده بغير شرعه ، ولا يقصد سواه ، معتقدا أن النافع والضار هو الله ، فلا يجوز أن يقول رقية شركية ، ولا يعلق تميمة أو تولة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك »[2] ومعناه : إن الرقى التى تسمى بالعزائم - ما لم تكن قرآنا وسنة - فهى من الشرك ، والتمائم : شىء يعلق على الأولاد من العَين ، ورخص بعض السلف إذا كان المعلق قرآنا ، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهى عنه ، والتولة: شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة لزوجها ، والرجل إلى امرأته ، فكل هذا من الجاهلية ، والتعلق به باطل وشرك و " من تعلق شيئا وكل إليه "[3] وكذلك ورد " من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعه فلا ودع الله له "[4] والودعة : شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين ، والتمائم ، إما أحجبة أو خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم خشية السحر ، ومعنى : لا أتم الله له ، ولا ودع الله له ، دعاء عليه .[5]

وكما حرم الإسلام لبس الحلقة ، والخيط وتعليق التمائم ، والرقى الشركية حرم كذلك من باب أولى ، السحر والتنجيم ، والكهانة والعرافة ، والطيرة فقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، ومصدق السحر ، وقاطع الرحم »[6] وقد ذهب كثير من أئمة السلف إلى أن

---

١ - راجع عقيدة المؤمن ص١١٧ - ١٢٠ بتصرف
٢ - رواه أحمد وأبو داود
٣ - رواه أحمد والترمذى
٤ - رواه أحمد وأبو داود
٥ - انظر : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٩٨ - ١٢٧ بتصرف
٦ - رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه

الساحر كافر ، وأن السحر كفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رضى الله عنهم ، وجاء عن عدد من الصحابة أن عقوبة الساحر ضربة بالسيف ، ففى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال : كتب إلينا " عمر بن الخطاب " ، «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر » وصح قتل الساحر عن حفصة أم المؤمنين ، وعن جندب من الصحابة رضى الله عنه .

وكما أن السحر حرام ، فإن المصدق لأهله ، الساعى لعمل السحر شريك لهم فى الإثم ، كما سبق فى الحديث . ومن أنواع السحر " التنجيم "والمراد به هنا ما يزعم أهله أنهم يعرفون ما يخبئه المستقبل من أحداث عامة وخاصة عن طريق النجوم والنظر فيها ، وهذا ضرب من السحر والدجل ، جاء فى الحديث « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر »[1]

ومثل المُنَجِم (الكاهن والعراف) ، والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل ، أو هو الذى يخبر عما فى الضمير . والعراف اسم للكاهن والمنجم والرَمَّال ومن شابه هؤلاء من كل من يدعى معرفة المغيبات ، سواء ما يُكنُه المستقبل أو ما يُكنُه الضمير ، وسواء أكان ذلك عن طريق الاتصال بالجن ، أم النظر ، أو الخَط فى الرمل ، أو قراءة الفنجان ، أو خلاف ذلك .

روى مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرافا ، فسأله عن شىء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوما » ، وروى أبو داود عنه صلى الله عليه وسلم « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول : فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » وذلك لأن مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، قال تعالى :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]

---

١ - رواه أبو داود باسناد صحيح

٢ - سورة النمل الآية : ٦٥

وقال سبحانه :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾[1]

وأيضاً :

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾[2]

حتى النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن ليعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله عن طريق الوحى ولهذا خاطبه بقوله :

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[3]

كما أن الجن الذين يستعين بهم السحرة والكهنة ليس لهم قدرة على معرفة الغيب ، فحكى الله عن جن سليمان أنهم لم يعلموا بموت سليمان

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾[4]

ولهذا كان تصديق الكهنة والعرافين فى زعمهم معرفة الغيب كفر بما أنزل الله من آيات بينات ، وإذا كان إتيان هؤلاء وتصديقهم بهذه المنزلة من الشناعة فى الدين ، فما بالك بهؤلاء الكهنة والعرافين أنفسهم ؟ إنهم براء من الدين ، كما أن الدين برئ منهم ، جاء فى الحديث « ليس منا من تَطَيرَ أو تُطِيرَ له ، أو تَكَهَنَ أو تُكْهِنَ له ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له »[5]

---

١ - سورة الأنعام الآية : ٥٩
٢ - سورة الجن الآيات : ٢٦ ، ٢٧
٣ - سورة الأعراف الآية : ١٨٨
٤ - سورة سبأ الآية : ١٤
٥ - رواه البزار بإسناد جيد

فالطيرة ومعناها التشاؤم ببعض الأصوات المسموعة ، أو الأشياء المرئية ، أو نحو ذلك من الشرك الخفى ، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التى عزم عليها كسفر أو زواج أو تجارة أو نحو ذلك فقد دخل فى الشرك ، لأنه لم يخلص توكله على الله ، ولأنه التفت إلي سواه ، وجعل للتطير في قلبه نصيبا ، روى الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، فقالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن نقول : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » وأما ما يجده الإنسان فى نفسه من انقباض ، أو توجس للشر من بعض الأشياء فلا يؤثر ولا يضر ، إذا مضى فى طريقه متوكلا على الله ، ولم يرده التطير عن قصده وغايته قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (١)

وضد الطيرة : الفأل : وهو توقع الإنسان الخير ، بناء على كلام سمعه ، أو شيء أبصره ، أو نحو ذلك ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ، ففى الحديث « ويعجبنى الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال الكلمة الطيبة » .

مثال التفاؤل : أن يكون رجل مريضا ، فيسمع آخر يقول : يا سالم ، فيتفاءل بالسلامة والصحة ، وهذا أمر حسن ، لأنه داع إلى سعة الأمل ، وحسن الظن بالله تعالى ، بخلاف الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله تعالى ، وتوقع البلاء من غير سبب يفضى إليه . (٢)

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص ، وحارب الشرك ، أكبره وأصغره ، وحذر منه أشد التحذير ، واتخذ لذلك وسائل شتى ، أبرزها سد كل المنافذ التى تهب منها ريح الشرك . ومن هذه المنافذ ما يأتى :-

١ - الغلو فى تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم : فقد نهى صلى الله

---

١ - سورة الطلاق الآية : ٣

٢ - حقيقة التوحيد : يوسف القرضاوى ص ٥٤ - ٥٩ ، ٦٣ - ٦٥ بتصرف

عليه وسلم عن الغلو فى تعظيمه ومدحه فقال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقالوا : عبد الله ورسوله »[1] والقرآن الكريم أثنى عليه بشرف العبودية فى أشرف المقامات ، تأكيدا لهذا المعنى ، كقوله تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾[2]

وقوله جل وعلا :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[3]

وقوله سبحانه :

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[4]

وقوله عز وجل :

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[5]

وقوله عز من قائل : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[6]

وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا رأى أو سمع ما يؤدى إلى الغلو فى شخصه ، زجر من قال ذلك أو فعله ،ونبهه إلى الحق والسداد ، ومثاله من قال له : أنت سيدنا ، وكذلك ، ما شاء الله وشئت ،وقوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ،وسجود معاذ للنبى صلى الله عليه وسلم على سبيل التحية والتكريم .

---

١ - متفق عليه
٢ - سورة الكهف الآية : ١
٣ - سورة الإسراء الآية : ١
٤ - سورة النجم الآية : ١٠
٥ - سورة الجن الآية : ١٩
٦ - سورة البقرة الآية : ٢٣

٢ – الغلو فى الصالحين : ومما نهى عنه الإسلام وحذر منه ، الغلو فى شأن الصالحين . فقد غلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه ابنا لله ، أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم : إن الله هو المسيح ابن مريم . وغلا قوم فى أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربابا من دون الله . وأول شرك وقع فى الأرض كان سببه الغلو فى الصالحين ، جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس فى الحديث عن آلهتهم ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق، ونسر » قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِدَتْ »وقال بعض السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» .

ومن هنا نعلم أن غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم لله ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات يؤدى إلى أنواع من الشرك ، كالنذر لهم ، والذبح لهم ، والاستعانة بهم والإقسام بهم على الله ونحو ذلك ، وقد يفضى بهم الغلو إلى الشرك الأكبر ، وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيرا فى الوجود ، وراء الأسباب والسنن الكونية ، فيُدْعَوْن من دون الله أو مع الله ، وهذا هو الإثم العظيم ، والضلال البعيد .

٣ – تعظيم القبور : ومما حذر منه الإسلام أشد التحذير ، تعظيم القبور وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضى إلى تعظيم القبور منها :-

أ – اتخاذها مساجد : روى مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يموت بخمس : « ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم

عن ذلك » وعن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي فى حالة الاحتضار - طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم كشفها ، فقال وهو كذلك « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا »[1]

ب - الصلاة إليها : ففى الحديث « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها »[2] أى لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة .

جـ - إضاءتها وإيقاد السُرُج عليها ، وفى الحديث « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج »[3]

د - البناء عليها وتجصيصها ، روى مسلم عن جابر قال « نهى رسول الله صلي الله عليه وسلم عن تجصيص القبر ، وأن يُقْعَدَ عليه ، وأن يُبْنَىَ عليه بناء » .

هـ - الكتابة عليها ، لحديث جابر « أنه صلى الله عليه وسلم نهى أن تجصص القبور ، وأن يكتب عليها »[4]

و - تعليتها ورفعها ، لحديث على « أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره ألا يدع قبرا مشرفا إلا سواه »[5] كما جاء فى سنن أبى داود نهيه عليه الصلاة والسلام أن يزاد عليها غير ترابها من الأحجار والآجر ونحوها ، ولهذا كان السلف يكرهون الآجِرَ على قبورهم .

ز - اتخاذها عيدا ، روى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعا « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا علىَّ فإن صلاتكم

---

١ - متفق عليه

٢ - أخرجه مسلم

٣- رواه أبو داود والترمذى

٤- رواه البخارى

٥ - رواه مسلم

تبلغنى حيث كنتم »

وروى أبو يعلى بسنده عن على بن الحسين ، أنه رأى رجلا يجئ إلى فرجة كانت عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها ويدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته عن أبى هريرة عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا قبرى عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، فإن تسليمكم يبلغنى حيث كنتم »

ومعنى اتخاذ القبر عيدا ، قصده للاجتماع فيه والقعود عنده ، ونحو ذلك وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أفضل قبر على وجه الأرض ، فإذا نهى عن اتخاذه عيدا ، فقبر غيره أولى بالنهى كائنا من كان . ويكفى أن يصلى ويسلم على الرسول ، فتصله صلاته وسلامه حيثما كان .[1]

الحكمة فى هذا التحذير : والحكمة فى نهى الإسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر - كما رأينا فى قوم نوح ، وكما هو مشاهد إلي اليوم . فالغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا معبودة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .[2]

ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه أن ما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام ، فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادا ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقباب ، وأوقدوا عليها السرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها لمسا وتقبيلا ، ومنهم من يسجد لها ، ويعفر الخدود على ترابها ، ويقف خاشعا

---

١ - حقيقة التوحيد ص ٦٧ بتصرف

٢ - رواه مالك

مستكينا ، يستغيث بأصحابها ، يسأله مشافهة قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء . وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة فى رقام إلى صاحب القبر ، وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .[1]

سائر أنواع العبادات

– إن كل ما شرعه الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقربا إليه – تعالى – وتزلفا ، من صلاة وصيام وحج واعتمار وصدقات وزكوات واعتكاف وجهاد ورباط وفعل خير من بر وصلة وذكر ودعاء وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتعليم علم وتعلمه ، كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعله لغير الله تعالى – يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد ، الدالة عليه كلمة الإخلاص " لا إله إلا الله " .

– وكذلك ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة : لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، بقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[2]

فطاعة الله وطاعة رسوله فى الأمر والنهى عبادة تَعَبدَ الله تعالى بها المؤمنين من عباده، فمن ترك طاعة الله ورسوله غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائنا من كان، رغبة فيما عنده، أو رهبة مما لديه فقد أشرك، وتركه لطاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو غير مكره رغبة أورهبة فيمن أطاعه شرك ، إذ الطاعة فى المعروف فقط ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[3]

---

١ – حقيقة التوحيد ص ٧٢ ، ٧٣

٢ – سورة محمد الآية : ٣٣

٣ – عقيدة المؤمن ص ١٢٠ ، ١٢١

ولكن قوما رفضوا هذا ، وأبوا الا التوجه بهذه العبادات القلبية والبدنية للأولياء والصالحين باسم الوسيلة والشفاعة والبركة ، وكذلك باسم الولاية والكرامة ، فما معني ذلك ؟[1]

---

١ - راجع المبحث القادم

« الوسيلة أو التوسل »

(معناها - أركانها - المشروع منها والممنوع - شبهات المتوسلة)

(أ) تعريف الوسيلة :

الوسيلة : لغة : اسم فعله ، وسل إليه بكذا ، يسل وسيلة فهو واسل ، تقرب ورغب ، ومثله توسل إليه بكذا توسلا ، وتوسيلا ، إذا عمل عملا تقرب إليه ، فالمتوسل والواسل بمعنى واحد فهى تعنى الواسطة التى تقرب العبد من طلبه .

ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك ، وعلى الدرجة والقربة ، وأطلقت كذلك على أعلى درجة فى الجنة ، وهى التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها « ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة »[1]

وأما الوسيلة فى الشرع : فهى العمل يقدمه المؤمن بين يدى رغبته ليتوسل به إليها ، فيفوز بمرغوبه ويحصل على مطلوبه .

(ب) أركانها : والوسيلة هي التقرب إلى الله تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى ، والحظوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى ، أو لقضاء حاجة بحصول نفع ، أو دفع ضر .

هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور :

الأول : المتوسل إليه وهو الله ذو الفضل والإنعام .

والثانى : المتوسل ، وهو العبد الضعيف ، المحتاج ، الطالب القرب من الله ،

---

١ - رواه مسلم

والراغب فى قضاء الله حاجة له .

والثالث : المتوسل به ، وهو العمل الصالح المتقرب به إلى الله تعالى ، أو هو الوسيلة المشروعة .

ولكى تكون الوسيلة مجدية نافعة ، يحصل بها القرب ، أو تقضى بها الحاجة ، لابد من مراعاة ما يلى كشروط أساسية لابد من توافرها للواسل الذى يريد أن ينتفع بوسيلته :-

(١) أن يكون العبد الواسل إلى الله- المتوسَل إليه - مؤمنا صالحاً .

(٢) أن يكون العمل المتوسل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه .

(٣) أن يكون العمل المشروع قربة موافقاً فى آدائه لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤديه عليه ، فلا يزاد فيه ولا ينقص عنه ، ولا يفعل في غير زمانه الذى شرع له ، ولا فى غير مكانه الذى عين له وحدد .

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبدا ، كما لا تكون البدعة قربة إلى الله تعالى ، ولا وسيلة ، بحال من الأحوال ، والوسيلة بهذا المعنى مشروعة ، مندوب إليها فى كل مكان وزمان ، كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(١)

وقال عز وجل :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾(٢)

---

١ - سورة المائدة الآية : ٣٥

٢ - سورة الإسراء الآية : ٥٧

ففى الآية الأولى أمر فيه ترغيب للمؤمنين فى طلب القرب من الله تعالى بفعل الطاعات ، الزائدة عن الفرائض والواجبات ، وفى الآية الثانية إخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن ، وأسلم النفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعمال ، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم ، فأخبر تعالى عن حالهم ، منبها إلى خطأهم ، وضلالهم .[1]

هل كل وسيلة جائزة ومشروعة ؟ أو هل الغاية تبرر الوسيلة ؟

ليست كل وسيلة جائزة ومشروعة ، وإلا لكانت الغاية تبرر الوسيلة ، فالوسيلة منها ما هو جائز ، ومنها ما هو ممنوع ، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ولا فرق فى ذلك بين التوسل فى الأمور الدنيوية ، أو الأمور الأخروية فلابد من إذن الشارع فى جواز الوسيلة وإلا حرمت .

وقد يتم الاتفاق على جواز الغاية ، ومشروعيتها ، ولكن ما مدى مشروعية الوسيلة إليها ؟ وهذه بعض الأمثلة - فى أمور دنيوية - توضح المراد :

(١) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية ، فبحث عن وسيلة تحقق له الثراء ، وهى غاية مقبولة ، فرأى قتل أخيه الغنى الذى لا وارث له غيره ، فقتله ، فهل هذه الوسيلة مشروعة .

أو أنه سرق ، أو اختلس ، أو ارتشى ، ونصب ، فهل هذه وسائل جائزة ؟ والجواب : قطعا ، لا : لأنها محرمة فإذا عمل وتعب وكدح ، وحصل على المال المطلوب ، وأدى حق الله فيه ، فهى وسيلة مشروعة .

(٢) رجل خطب امرأة في نفسها ، فأبت الزواج منه ، فرأى أن الوسيلة لقبولها أن يذهب إلى ساحر أو دجال يكتب له حرزاً ، أو يجلب له ودعة ، أو

١ - عقيدة المؤمن ص ١٢٣ - ١٢٥ بتصرف

يعلق له تميمة ليحببه إليها حتى تتزوجه ، فهل هذه الوسيلة جائزة ؟ والجواب لا ، بل هي محرمة شرعاً .

فإن سلك الطريق المستقيم الذى شرعه الإسلام فى الخِطْبَةِ والزواج ، فهذه وسيلة مشروعة .

(٣) رجل مرض أخوه ، فأراد أن يعالجه ، فقيل له : اذهب إلى الضريح الفلانى ، واستشفع بصاحبه ، وناده واستغث به ، فإن أخاك يبرأ من مرضه ، أو قيل له : ما عنده ؟ فقال الحصوة مثلا ، فقال : اسقه خمرا أو بيرة ، تفتت الحصوة ، ويبرأ من علته !!

فهل هذا أو تلك وسيلة صحيحة ؟ ، بالطبع لا ، فالأولى شرك ، والثانية معصية من الكبائر . وإنما إذا ذهب إلى الطبيب المسلم الحاذق الذى يشخص الداء ويصف الدواء ، فتلك هى الوسيلة المشروعة ، وهكذا ، فتلك أمثلة للتوضيح والبيان ، يقاس عليها أمثالها .

والمراد منه بيان أنه ليست كل الوسائل مشروعة ، تعمم فيها الآيات والأحاديث ،وإنما الوسيلة منها ما هو مشروع ، ومنها ما هو ممنوع .

والمشروع منها لا يكون بهوى أو مزاج ، أو تعصب ، وإنما بما شرعه الله لعباده وأذن لهم فيه ، والممنوع منها هو غير ما شرعه الله من العبادات والقربات فهو توسل باطل ، وضار غير نافع ، ومن هنا تعين - بعد ذكر تلك الأمثلة فى الأمور الدنيوية - أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية والمباحة - فى الأمور التعبدية - النافعة للمتوسلين ، ثم نتبعها بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة ، تعليما وتحذيرا ، حتى نوفى هذا البحث حقه .

فما هى الوسائل المشروعة ، وما هى الوسائل الممنوعة ؟ [1]

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٢٧ - ١٢٩ - بتصرف .

(جـ) الوسائل المشروعة :

لقد شرع الله عز وجل وسائل كثيرة لعباده يتقربون بها إليه ، وينالون الحظوة لديه ، والمنزلة العالية عنده ، وكذلك يقضون بها حاجاتهم ، ويحصلون على مرغوبهم وينجون من مرهوبهم ، وهذه الوسائل المشروعة ، نستطيع أن نلخصها فيما يلى :-

(١) الإيمان : ويعنى به الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، وهو أفضل الأعمال وأشرف الوسائل ، إذ هو إخلاص التوحيد وصفاء العقيدة .

هذا وقد رضيه الله تعالى وسيلة إليه وأثنى على المتوسلين به ، في قوله تعالى :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾(١)

وقوله تعالى :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٢)

ومنه : التوسل بأسماء الله الحسنى ، كما قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾(٣)

وفى الحديث « أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو ـ متوسلا بالإيمان بالله وبأسمائه الحسنى - يقول : اللهم أنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن

١ - سورة آل عمران الآية : ١٩٣
٢ - سورة آل عمران الآية : ١٦
٣ - سورة الأعراف الآية : ١٨٠.

له كفوا أحد » فقال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى » .(١)

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله ملكا موكلا بمن يقول : يا أرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثا قال الملك : إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل »(٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم لمن سمعه يدعو ويقول : « اللهم إنى أسألك بأن الحمد لك ، لا إله إلا أنت ، يا حنان يا منان ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام » فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى » .(٣)

وقوله صلى الله عليه وسلم : إذا قال العبد : يا رب ، يا رب ، يا رب ، قال الله تعالى : « لبيك عبدى ، سل تعط » .(٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم ، « دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شئ قط إلا استجاب الله تعالى له »(٥)

– ومن هنا كان لأى مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها ، فيقول : مثلا – اللهم إني أسألك بإيمانى بك وبرسولك أو بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، أن تغفر لي وترحمنى ، أو تقضى حاجتى فى كذا ..

---

١ – رواه الترمذى وحسنه ، وأبو داود ، وإسناده صحيح ، وأحمد – وابن ماجه

٢ – رواه الحاكم عن أبى أمامة

٣ – رواه أحمد وغيره ، بسند صحيح ، عن أنس رضى الله عنه

٤ – رواه ابن أبى الدنيا ، وسكت عنه المنذرى ولم يذكر له علة ، عن عائشة رضى الله عنها

٥ – رواه الترمذى والنسائى وأحمد ، وسنده لا بأس به .

وكذلك بأسماء الله تعالى ، وهى تسعة وتسعون اسما ، كلها يُدعىَ بها الرب تبارك وتعالى ، ويُتَوسَلُ بها إليه، فيستجيب للداعين ويُعْطِى السائلين ، وهو البر الرحيم ، والجواد الكريم ، فيدعو الله بأسمائه الحسنى ، وأجلها اسم الله الأعظم ، كما ورد فى الأحاديث .

(٢) من الوسائل المشروعة : (العمل الصالح)

وهذه الوسيلة لابد أن تكون من العمل المشروع قربة ، الموافق فى آدائه لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤديه ، مع إخلاص النية لله عز وجل .

وهذا العمل يتمثل فى أداء الفرائض والواجبات ،وفعل الطاعات الزائدة عن ذلك ، والنوافل ، وكذلك بتقوى الله عز وجل التى تتحقق بفعل المأمور ، وترك المنهى ، وتترقى حتي درجة الإحسان ، وبها تتحقق النجاة من العذاب ، وتحصيل الثواب . إن شاء الله تعالى .

ومثال هذا العمل الصالح :

الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، فرضاً ،ونفلاً ، كالسنن فى الصلاة ، والصدقة ، والتطوع فى الحج والعمرة ، والإكثار من صيام النوافل ، والجهاد والرباط ، وتلاوة القرآن الكريم ، والذكر والتسبيح ، والتوبة ، وعموم الطاعات ، وفعل الخيرات ، وكذلك ترك المحرمات ، هكذا مجملاً .

والدليل على مشروعية هذه الوسيلة - فى القرآن - قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(١)

وفى السنة - قوله صلى الله عليه وسلم « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم

١ - سورة المائدة الاية : ٣٥

حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى[2] بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح[3] عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقها ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فلبثت[4] والقدح على يدى ، انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، والصبية يتضاغون[5] عند قَدَمَّى ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون منه الخروج .

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم، كانت أحب الناس إليٍّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت ، حتى ألمت بها سنة من السنين[6] ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة ديناراً على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى قَدِرْتُ عليها - وفى رواية : حتى وقعت بين رجليها - قالت : يا عبد الله ، اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، فَفُرِجَ لهم .

وقال الآخر : اللهم إني كنت استأجرت أجيرا ، بفرق[7] أرز ، فلما قضى

---

١ - أغبق : بفتح الهمزة ، وكسر الباء وضمها ،والغبوق هو الذى يشرب بالعشى ، ومعناه كنت لا أقدم عليها فى الشرب أحدا .
٢ - فنأى : أى بَعُدَ
٣ - أرح : بضم وكسر الراء - أى لم أرد الماشية عن المرعى اليهما حتى ناما
٤ - فلبثت : أى فمكثت واقفا ، والقدح : الإناء الذى يشرب فيه
٥ - يتضاغون : أى يصيحون من الجوع
٦ - ألمت بها : أى نزلت بها سنة مقحطة .
٧ - الفرق : بفتح الفاء - مكيال ضخم ،قاله صاحب لسان العرب

عمله قال : اعطنى حقى ، فعرضت له فرقه ، فرغب عنه [1] فلم أزل أزرعه حتى جمعت بقرا ورعاءها فجاءنى بعد حين ، فقلت : كل ما ترى من البقر ورعاءها من أجرك ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى ، فقلت : إني لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها ، فأخذه فذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى ، ففرج الله ما بقى ، فخرجوا يمشون . [2]

وإذا علمت هذا كله فاعلم أن التوسل المشروع الذى شرعه الله على لسان نبيه المتبوع ، إنما هو التقرب إلى الله تعالى بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من علم أو عمل قلبى أو بدنى ، أو ترك وكف عن عمل محظور ، فيدخل فيه جميع الطاعات ، وترك جميع المعاصى امتثالا لأمر الشارع .

وهذه بعض الأدلة لجزئيات من العمل الصالح ، المشار إليها مجملا .

حول الصلاة ، قوله صلى الله عليه وسلم : لمن سأل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى « الصلاة على وقتها » [3] فمن أراد المنزلة عند الله تعالى ، والظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى ، فليحافظ على الصلوات الخمس ، ونافلتها ، كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الضرير بأن يتوضأ ويصلى ركعتين ، ويسأل الله تعالى ففعل ودعا له الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرد الله عليه بصره [4]

وقوله ﷺ - عن الصيام : « ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا » [5] ولمن سأله ، يا رسول الله : دلنى على عمل أدخل به الجنة ؟ قال : عليك بالصوم

---

١ - رغب عنه : أبى أن يأخذه
٢ - رواه الشيخان وغيرهما ، عن ابن عمر رضى الله عنهما
٣ - رواه البخارى
٤ - رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه
٥ - متفق عليه

فإنه لا مثل له »[1] وصح أيضا « أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[2]

هذا ورد فى التوسل بالصيام للحصول على القرب من الله تعالى ، وأما التوسل به لقضاء الحاجات ، واستجابة الدعوات ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، والمظلوم »[3]

كما ورد « للصائم دعوة لا ترد » وهو بسند ضعيف ، ولكن يشهد له الحديث السابق . وعن الصدقة قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة » وقال: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» وقوله ﷺ «صنائع المعروف تقى مصارع السوء،وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر » .

وعن الحج بين صلى الله عليه وسلم أن « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[4] وأنه « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[5]

وعن الاعتمار ، قال صلى الله عليه وسلم : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفى الكير خبث الحديد، والذهب والفضة » .[6]

وعن الجهاد والرباط، قال صلى الله عليه وسلم: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء

١ - رواه النسائى فى سننه
٢ - متفق عليه
٣ - رواه الترمذى بسند حسن ، وأحمد
٤ - متفق عليه
٥ - متفق عليه
٦ - حديث صحيح
٧ - متفق عليه

والأرض »[7] ويقول : " مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة "[1] ويقول : « الغازى فى سبيل الله ، والحاج إلى بيت الله والمعتمر ، وفد الله ، دعاهم فأجابوه ، إن دَعَوْهُ أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم[2] ، وعن الرباط ، يقول صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »[3] ويقول : « حرمت النار على عين العبد دمعت أو بكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »[4]

وعن تلاوة القرآن الكريم ، بين صلى الله عليه وسلم أن قراءة الحرف منه بعشر حسنات ، وذكر فضله ، ومنه « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[5] « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » ، كما يقال له إذا دخل الجنة : « اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »[6]

وعن الذكر والتسبيح ، ما ذكره صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه عز وجل : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه »[7] وقوله صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم عملا أنجى من العذاب من ذكر الله تعالى »[8] وقد بين صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر وأحسنه .

وعن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صلي عَلَىَّ صلاة

---

١ - رواه الدارمى ، وأحمد ، والحاكم ، وقال صحيح على شرط البخارى

٢ - رواه النسائى ، وابن ماجه ، وغيرهما ، ولم يعل بأية علة تقدح فيه

٣ - رواه البخارى

٤ - رواه أحمد ، وأصله فى الصحيحين

٥ - البخارى

٦ - رواه الترمذى بسند صحيح

٧ - متفق عليه

٨ - رواه الطبرانى بإسناد صحيح ، وكذا أحمد

واحدة صلى الله عليه بها عشرا » [١]

وقوله للذى قال له : أجعل لك صلاتى كلها : « إذاً تُكْفَى همك ، ويُغْفَرُ ذَنْبُك » [٢] وقد بَشَرَّه جبريل عليه السلام أن الله عز وجل يقول : « من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه » [٣]

وعن الاستغفار ، قال صلى الله عليه وسلم « من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، غُفِرَ له ، وإن كان قد فر من الزحف » [٤] وقوله صلى الله عليه وسلم : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » [٥]

وعن الدعاء قال:«ما على الأرض مسلم يدعو الله دعوة إلا آتاه الله تعالى إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » [٦] وقوله : « ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل وسأله إلا أعطاه إياه ، إما أن يُعَجِلها له ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذا نكثر ! : قال : الله أكثر » [٧] كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله حَيىٌ كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين » [٨] .

وكذلك فعل الخيرات - عموما - كما بين صلى الله عليه وسلم : « أن رجلا من بنى إسرائيل أماط غصن الشوك من الطريق خشية أن يصيب أحداً ، فشكر الله تعالى له - ذلك العمل القليل - فغفر له وأدخله الجنة » [٩] و«أن

١ - رواه البخارى
٢ - رواه أحمد والترمذى وصححه
٣ - رواه أحمد والحاكم بسند صحيح
٤ - رواه أبو داود ، واسناده جيد
٥ - رواه أبو داود وهو صحيح الاسناد وأحمد والترمذى
٦ - رواه الترمذى وصححه
٧ - رواه أحمد باسناد لا بأس به
٨ - رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين وغيرهما
٩ - متفق عليه

امرأة بغيا من بنى إسرائيل ، سقت كلبا عطشان يأكل الثرى من شدة العطش - سقته لوجه الله تعالى - فشكر الله لها وأدخلها الجنة »[1] وما ورد فى البرِّ - أى بالوالدين - فى حديث الثلاثة . وكذلك ترك المحرمات ، والبعد عن المنكرات ، وذلك بترك الإثم خوفا من الله ، كما جاء ذلك فى الحديث أيضا ، وترك معصية الله تعالى خوفا من الله وحياءً منه .

كان ذلك بيانا - على عجالة - فى مشروعية التوسل بالعمل الصالح، كما أشار إليه القرآن ، ووضحته سنة النبى العدنان ، عليه الصلاة والسلام .[2]

(٣) من الوسائل المشروعة : " دعاء المؤمنين "

إن من بين الوسائل المشروعة التى تُرفَعُ بها الدرجات ، وتُقْضَىَ بها الحاجات ، دعاء المؤمن لأخيه المؤمن ، فقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يأتونه فيطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم ، فيدعو ، فيستجيب الله تعالى له فيهم ، فتُقْضَى حاجاتهم ، فكم من مرة توسلوا - رضى الله عنهم - بدعاء نبيهم فى طلب الغيث ، فيستجيب الله تعالى ، ويُسْقَونْ ، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه ، وقد تقدم خبر الضرير وأنه توسل بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ادْعُ الله يا رسول الله أن يرد علىَّ بصرى ، فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرد الله عليه بصره ، وعاد كأن لم يكن قد مسه ضر » .[3]

كما صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمرَ بن الخطاب - رضى الله عنه - وهو يريد العمرة - « لا تنسنا يا أخى من دعائك » - وفى لفَظ - « أشركنا يا أخى فى دعائك » .[4]

١- متفق عليه

٢- راجع بتوسع القاعدة الجليلة فى التوسل والوسيلة لابن تيمية ، وكذلك عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائري

٣- رواه الترمذى وأحمد وابن ماجة

٤- رواه أبو داود والترمذى

وتوسل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بدعاء العباس - رضى الله عنه - لهم في صلاة الاستسقاء ، فاستجاب الله تعالى له ، وسقاهم بعد قحط شديد .[1]

وقد أشار القرآن الكريم لهذا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[2]

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضا ، فيقول المؤمن لأخيه : ادْعُ الله لى يا فلان ، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه ، وقد صرح النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله » .[3]

وبهذه العجالة - أخا الإسلام - أكون قد وقفت معك على الوسيلة المشروعة ، فى دين الله ، الواردة فى كتاب الله ، والتى صحت فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فما هى الوسيلة الممنوعة ؟

(د) الوسائل الممنوعة :

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة من الوسائل المشروعة ، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة ، والتى شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة وصرفتهم عنها ، فحرموا من التوسل المشروع ، بسبب انشنالهم

---

١ - رواه البخارى من حديث أنس
٢ - سورة الحشر الآية : ١٠ .
٣ - رواه مسلم

بالممنوع ، فخابوا فى سعيهم وخسروا . ونحن نذكر هذا نصحا للمسلمين ، وتبليغا لرسالة الإسلام ، وتعريفا بالعقيدة الصحيحة ، ورداً للعقيدة الزائفة ، وتوحيدا لكلمة المسلمين ، على دين رب العالمين .

* وإذا كان ما ذُكِرَ من وسائل هو المشروع فمعناه - بمفهوم المخالفة - أن ما سواه ممنوع ، ومثاله : التوسل بالأشخاص بعد موتهم ، أيا كانت منزلتهم ، لا من الأنبياء أو الأولياء ، وذلك بدعائهم ، أو رجائهم ، أو النذر لهم ، والطواف حول قبورهم ، والسجود على أعتابهم ، والتمسح بأبوابهم ، والتبرك بأخشابهم ، وسَوْق الهَدْى والقرابين إليهم ، وحلق الرأس - وخاصة الأولاد - عندهم ، وشد الرحال إلى مزاراتهم ، وبناء المساجد على قبورهم ، ورفع الصوت بالدعاء عند مقاصيرهم ، وسؤال الله بجاههم ، والاستشفاء بالعكوف عند أضرحتهم ، والقَسَم على الله بهم ، ودعاؤه بحقهم . وطلب المدد والعون منهم ، أو خوف أذيتهم لمن لم يعتقد فى كرامتهم ، ويؤمن بدولتهم ... الخ .

فقد عرفت - أخا الإسلام - أن هذه الأمور هى من العبادة الصرفة - ومثلها لا يوجه إلا إلى الله عز وجل ، فلا يجوز أن تكون لملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو ولى صالح ، وجعلها لأحد غير الله ، شرك أكبر . لم يشرعه الله ، ولم يأذن فيه ، بل حَرَمَه ومَنَعَه وتوعد عليه بمثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[1]

فكل ما يفعله جهلة المسلمين - اليوم - وعامة المتصوفة ، من دعاء الصالحين والاستغاثة بهم ، كمن يقول : يا سيدى فلانا خذ بيدى ، ومولاى فلانا أنا فى حماك ، وأنا بك وبالله .. وغير ذلك ، ثم يقدم لهم النذور ويقول :

---

١ - سورة المائدة الآية : ٧٢

يا سيدى فلانا إن رزقنى الله كذا ، أجعل لك كذا .

وهذا نذر لغير الله تعالى ، وعبادة صرفت لغيره ، ومال ذهب فى غير محله وغير وجهه ، والإسلام برئ منه فلا يجوز نذر فى صندوق يذهب لغير مستحقيه ، ولا ذبح لغير الله فى مكان يذبح فيه لغير الله ، ولا العكوف حول قبور الصالحين ، أو السؤال بجاه فلان وحقه ، وأمثال هذا ، مما سبق القول فى حديثنا عن توحيد الألوهية فارجع إليه .

(هـ) شبهات المتوسلة :

هذا .. وبعد عرضنا لمسألة " الوسيلة " والمشروع منها والممنوع ، رأى بعض المسلمين - من العامة أو العلماء المتصوفة - أن الوسيلة جائزة بالأنبياء والأولياء والصالحين ، سواء فى محياهم أو بعد مماتهم .

وذلك لشبهات عرضت لهم ، تُذْكَرُ عند كلامهم عن الوسيلة ، ويستكثرون منها إيهاما للعامة ، أن الأدلة التى تبيح الوسيلة - على عمومها - كثيرة جداً ، وهى فى القرآن والسنة ، وأقوال الصحابة وأفعالهم .

* والناظر فى تلك الأدلة أوالشبهات يرى أن أصحابها خلطوا فى فهمها ، وضلوا فى معرفتها ، وجمعوا غثها على سمينها ، انتصارا لما هم عليهم ، وإيهاما للعامة بصدق قولهم وطرقهم . فما هى هذه الشبهات .

نقول - وبالله تعالى التوفيق : لقد أباح المتوسلة كل نوع من الوسيلة ،لعموم الآية

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]

---

١ - سورة المائدة الآية : ٣٥

وقوله تعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1]

وأجازوا التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته بهذه الأدلة ، - قوله تعالى :

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾[2]

وذكروا معها قصة العتبى مع الأعرابى .

وكذلك : توسل الأعمى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فرد الله عليه بصره ، وحديث « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم ، تُحدثُونَ ويُحدَثُ لكم ، فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم ، تعرض على أعمالكم ، فإن رأيت خيرا حمدت الله ، وإن رأيت شرا استغفرت لكم » وهذا مع قولهم بحياة النبى !! ، وحديث « توسلوا بجاهى ، فإن جاهى عند الله عظيم » وتوسل آدم بالنبى صلى الله عليه وسلم . وجواز التوسل بالأنبياء ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم توسل بهم فى حديث فاطمة بنت أسد إذ الرسول صلى الله عليه وسلم قال - بعد أن اضطجع فى قبرها ، ودعا لها - بحق نبيك والأنبياء الذين قبلى ، فإنك أرحم الراحمين »

وحديث « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك » فلماذا لا نقول بحق فلان وفلان ؟ وحديث « أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ، ثم بنوح ، ثم بإبراهيم ، ثم بموسى ، ثم بعيسى ، ثم بالنبى صلى الله عليه وسلم . »

كما أجازوا التوسل بآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى

---

١ - سورة الإسراء الآية : ٥٧

٢ - سورة النساء الآية : ٦٤

يقول :

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[1]

وفسروا معنى المودة فى القربى ، هو التودد إلى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك استشهدوا بتوسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالعباس - عم النبى صلى الله عليه وسلم - فى حضرة الصحابة ، رضى الله عنهم ، وقال عمر : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون » .

وأباحوا التوسل بعموم الصالحين ، بعد موتهم ، لأن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾[2]

فى قصة الغلامين اليتيمين . وحديث « إذا أعيتكم الأمور ، فاستعينوا بأهل القبور » وهذه أهم ما عندهم من الأدلة . وللرد على تلك الشبهات ، نقول - وبالله التوفيق :

أولا : الآيات القرآنية الكريمة :-

أ) قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[3]

معناه الوسيلة المشروعة ، وليست الممنوعة ، - علي نحو ما وضحناه - ولا يجوز إساءة فهم الآية حتى تشمل كل وسيلة ، الجائز والباطل ، والمشروع والممنوع !!

---

١ - سورة الشورى الآية : ٢٣

٢ - سورة الكهف الآية : ٨٢

٣ - سورة المائدة الآية : ٣٥

فهذا ما لم يقل به عاقل ، فضلاً عن عالم .

وهى وإن كانت تدل على الوسيلة المشروعة - على سبيل العموم - فإنها تدل على التوسل بالعمل الصالح - على سبيل الخصوص - كما هو واضح من نص الآية - بالأمر بالتقوى والجهاد ، والتقوى هى جوهر هذا الدين ومنزلة رفيعة فيه ، ثم وصولا إلى ذروة سنام الإسلام . وهو الجهاد فى سبيل الله .

فهل يجوز تفسير الآية على أن الوسيلة التى تبتغى إلى الله هي عباد أمثالهم ، يسألون الله تعالى بذواتهم ، ويتوجهون إليه بأشخاصهم ، ويقسمون عليه بحقهم ؟ !! « ايتونى بأثارة من علم إن كنتم صادقين ؟ !! »

ب) قوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾[1]

تعالوا بنا نقرأ الآية بتمامها - مع سياقها - حتى يتضح معناها - وهو واضح بحمد الله .

قال تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[2]

فلعلها الآن قد وضحت ، ونزيد الأمر وضوحا ببيان معناها .

كما قال المحققون من المفسرين : يقول تعالى : يا محمد ، قل لهؤلاء

---

١ - سورة الإسراء الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

المشركين الذين عبدوا غير الله ادعوا الذين زعمتم من دونه من الأصنام و الأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا يملكون كشف الضر عنهم بالكلية ، ولا تحويلا بأن يحولوه إلى غيرهم ، إذ لله وحده لا شريك له - الخلق والأمر ، والنفع والضر ، وهؤلاء المشركون كانوا يعبدون الملائكة أو الجن أو المسيح وعزيرا فهؤلاء الذين يدعون أولئك - أى الجن والملائكة أو غيرهم - وفى الصحيح : كانوا يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن . وتمسك هؤلاء بدينهم ولا يشعرون بإسلامهم ، وفى الوقت ذاته ، إذ هم يعبدونهم ويتزلفون إليهم ويتقربون بهم ، وكانوا - أى الجن - بعد إسلامهم ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويتقربون إلى الله ، ويرجون رحمته بإسلامهم ، ويخافون عذابه لما كانوا عليه . وإذا كان هذا حالهم يطلبون ذلك من الله ، فكيف يملكونه لغيرهم ، وفاقد الشىء لا يعطيه .

ثم إن الله عز وجل يسأل هؤلاء - المتوسلة بالعبادة - أيهم أقرب ؟ الله عز وجل أم هؤلاء العباد ، الذين لا يملكون شيئا ولا نفعا أو ضرا ؟ بل الله عز وجل هو أقرب كما قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(١)

وكما قال :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾(٢)

ثم ذكر الرجاء والخوف ولا تتم العبادة إلا بهما (٣)

فالآية حجة على القوم ، لا لهم ، ولكنهم لما ذكر لفظ الوسيلة بها ، أرادوا أن يضحكوا بها على العامة والدهماء ، والجهلة والبسطاء . !!

---

١ - سورة البقرة الآية : ١٨٦
٢ - سورة ق الآية : ١٦
٣ - تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤٦ ، ٤٧ بتصرف

جـ) قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1]

* ووجه الشبهة فى الآية : أن الآية تأمر بالذهاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل به أو طلب الاستغفار ، فهو وسيلتنا إلى الله عز وجل ، ولا فارق فى ذلك بين حياته وموته ، إذ ثبت أن رجلا أعرابيا قدم على قبر النبى صلى الله عليه وسلم وتلا الآية ، ثم قال : وقد ظلمت نفسى ، وجئتك تستغفر لى ، فنودى من القبر أنه قد غُفِرَ لك - وفى رواية أخرى - أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إلى العتبى ، وقال : الحق بالأعرابى ، وبشره بأن الله قد غفر له . ا . هـ .

* والرد على ذلك : بأن هذا الذى ذُكِرَ لم يصح ، ولا دليل عليه ، بل لا وجه له فى الآية . إذ معنى الآية - كما ورد فى كتب التفسير الصحيحة - هو أن هذه الآية نزلت فى توبة المنافقين ، وقد جاءت بين الآيات التي تتحدث عن صفات المنافقين .

وتفسيرها : ولو أنهم ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت ، جاؤك تائبين من النفاق ، متنصلين عما ارتكبوه فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص ، وبالغوا فى الاعتذار إليك من إيذائك ، برد قضائك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفرا لوجدوا الله توابا ، أى لعلموه توابا ، أو لتاب عليهم ،ولم يقل : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعة من الرسول ﷺ تقع من الله بمكان .[2]

وإذا قيل : العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، فهى على المعنى العام - كالآتى :

---

١ - سورة النساء الآية : ٦٤

٢ - أنظر : الزمخشرى فى الكشاف

يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين ، إذ وقع منهم الخطأ والعصيان ، أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه ، أو يستغفر لهم - فإنه مجاب الدعاء - فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغَفَر لهم ، وهكذا كان يفعل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، لا فى الاستغفار فقط ، وإنما فى قضاء حوائجهم أيضا ، كمن كان يطلب الشفاء ، أو الاستسقاء ، أو المال ، أو غير ذلك[1]

فالتوسل الوارد والمشروع بالدعاء لا بالأشخاص ، على الرغم من منزلتهم ومكانتهم عند الله تعالى ، وحكاية العتبى مع الأعرابى لم تصح ، ولا يستشهد بمثلها فى أمور العقيدة والأحكام .

د) وقوله تعالى :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾

الواردة فى الآية

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[2]

ووجه الشبهة فيها . أن فى الآية ما يفيد أن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء ، ومنهم من يقول : أن التوسل بأصحاب القبور واجب ، فإن لصاحب القبر تأثيرا أقوى من تأثير الحى ، ولا حرج فى ذلك ما دام المتوسل يعتقد أن الله هو الفاعل . !!

والرد على ذلك : نقول : ما علاقة التوسل بالآية الكريمة ؟ وإن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد نفعه إلى الذرية والأبناء ، كما أن فسادهم ينتقل خطره

---

١ - تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥١٩ بتصرف

٢ - سورة الكهف الآية : ٨٢

إليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[1]

فالصالحون بعد موتهم قد يظهر فى أعقابهم أثر من بركة استقامتهم ، ونقول : " قد " لأن للوراثة قوانين سنها رب الوجود الأعلى ، ولا نعرف بالضبط اتجاهاتها ، وقد كان إبراهيم من نسل رجل كافر ، وكان لنوح ابن عنيد فى الضلال ، والله يقول - فى ذرية إبراهيم وإسحاق :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾[2]

ومن المنتسبين إلى الأسرة النبوية فى هذا العصر من أساءوا إلى الإسلام أشنع الإساءة .

فإن كان السائل يقصد أن هؤلاء هم أصنام العصر الحديث الذين يتوسل بهم المتوسلون فقد كفرنا بهم وآمنا بالله وحده .

إن الحسين رضى الله عنه ، لم يدفع عن نفسه وهو حى ، فكيف يدفع عن غيره وهو ميت ؟ وأما ذلك الذى يوجب التوسل ، ويرى أن تأثير الميت أقوى من الحى ، فهو رجل مخبول . وزعمه بانتفاء الشرك ما دام الاعتقاد أن الفاعل هو الله ، كلام فارغ ، وقد أبنا أن المشركين القدماء كانوا يعرفون أن الفاعل هو الله ، وأن توسلهم كان من باب :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[3]

وأن ندمهم يوم القيامة إنما هو على تسويتهم المخلوق بالخالق

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4]

---

١ - سورة النساء الآية : ٩

٢ - سورة الصافات الآية : ١١٣

٣ - سورة الزمر الآية : ٣

٤ - سورة الشعراء الآيات : ٩٧ ، ٩٨

وهناك عشرات الآيات تؤكد هذا المعنى .

سيقول بعض النـاس : إن القـدماء كانـوا يعـبدون ، أما عـوام الـيوم فهـم يدعـون ويسألون فقط ، وشتان بين عبادة الجاهلين . وتوسل المُحَدثين بأولياء الله !!

ونقول: هذه مغالطة، فالسؤال أو الدعاء ـ بنص القرآن والسنة ـ عبادة محضة:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1]

وفى الحديث « الدعاء هو العبادة »[2] فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية ؟ وإذا وقع الجهال فى تلك الخطايا بعبادتهم ، فلماذا لا نسارع إلى انقاذهم منها ، بدل تزوير الفتاوى ؟ .[3]

هـ) قوله تعالى :

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾[4]

ووجة الشبهة فيها : أننا نتودد إلى قرابة النبى صلى الله عليه وسلم ، وآل بيته وذلك بالتوسل بهم ، والاحتفال بموالدهم وتعظيم قبورهم وتخليد ذكراهم . !!

* وهذا عجب ، وأعجب منه أن الآية ، لا تتحدث عن آل البيت ، ولا التوسل بهم ، إذ تفسير الآية - كما جاء - قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش ، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ، مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى وتذرونى أبلغ رسالات ربى ، إن لم تنصرونى

١ - سورة غافر الآية : ٦٠.
٢ - سبق تخريجه
٣ - عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٧٩ - ٨٢ بتصرف.
٤ - سورة الشورى الآية : ٢٣

فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة ، قال البخارى : يحدث عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى : « إلا المودة فى القربى » فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ، فقال ابن عباس : عجلت ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة ، وانفرد به البخارى ، ورواه غيره ، بروايات مختلفة .

والزعم بأن القرابة هم آل البيت ، أو فاطمة وولدها - رضى الله عنهم - قول لا دليل عليه ، وإنما عرف عن شيخ شيعى مخترق ، وهو " حسين الأشقر " ولا يقبل خبره فى هذا المحل ، وذكر نزول الآية فى المدينة بعيد ، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة - رضى الله عنها - أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلى - رضى الله عنه - إلا بعد " بدر " من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن " عبد الله بن عباس " - رضى الله عنهما - كما رواه عنه البخارى .

ولا ننكر الوصاة بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة ، الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين .[1]

وليس هذا من ذاك ، فليس الحب كالتوسل ، فحب آل البيت آية الإيمان، وبغضهم آية النفاق، ولا ينكر هذا إلا جاحد معاند ، أو جاهل ضال .

وأما الوسيلة فهى وفق ما حكم الله عز وجل وبيّن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا تجوز بهم بعد مماتهم ، والزعم بأنهم أطهرالناس نسبا ، وأرقاهم

---

١ - تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١١١ - ١١٣ بتصرف

درجة ، ولهم عند الله دولة ، وكذلك لهم ما يشاؤن عند ربهم ، كل ذلك لهم ، وليس لمن يتوسل بهم ، وقصور انسان أو تقصيره ، لا يجبره طاعة إنسان آخر وقربة .

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[1]

ثانيا : الأحاديث النبوية الصحيحة :

أ) حديث الأعمى : « أن رجلا ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : أدع الله أن يعافينى . قال : إن شئتَ دعوتُ لك ، وإن شئتَ صبرتَ ، فهو خير لك ؟ فقال : أدعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء فيصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة ، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى ، اللهم شفعه فىّ ، قال : ففعل الرجل فبرأ .[2]

ووجه الشبـهة فى الحديث : أن يقول المرء : ما دام الضرير قد علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة .. الخ ، فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجى ؟ .

والجواب : أن نقول : إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ،ولا يتم إلا بها ، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو دعاء الرسول لأحدنا اليوم وشفاعته لنا عند الله تعالى فى قضاء حاجتنا ، وذلك لوفاته صلى الله عليه وسلم والتحاقه بالرفيق الأعلى ، فلو قام أحدنا اليوم يقول : يا رسول الله أدع الله لى أن يقضى حاجتى ، لكان قوله باطلا وضلالا ، ولا معنى له ، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم ليس أمامه يسمعه ويراه ولا يدعو الله تعالى له أبدا ، ولو قال أحدنا اليوم هذا الدعاء

---

١ - سورة العنكبوت الآية : ٤٣

٢ - رواه الترمذى وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به

لكان كاذبا فى قوله ، لأنه لم يقدم بين يدى دعائه الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يقول لله تعالى ، اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك ، اللهم شفعه فى ، إنما يقول هذا من قام الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى له ، كما دعا الضرير .

ومن هنا لم يبق هذا التوسل بتلك الكيفية جائزا ولا نافعا ،لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره ، وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمتوسل ، وعلى فرض أن مؤمنا قام فتوسل به ، وبرأ من مرضه أو قضيت له حاجته ، فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر . كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتا ، ويتشفع به فتقضى حاجته ، ويقول سيدى فلان قضى حاجتى . والحقيقة أن وسيلته شرك محرم وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط ، لا أن السيد دعا له ، وأن الله تعالى قد استجاب له .

هذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلي الله تعالى وهو يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين ، ويقول اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيمانى وحبى لنبيك نبى الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تقضى حاجتى ،ويسمى حاجته فإنه يرجى أن يستجيب الله تعالى له ، ويقضى حاجته .[1]

هذا وليس فى حديث الأعمى أى توسل شركى مما عليه العامة أو يطلبه الجهال ، إذ كل طلبه وتوجهه كان إلى الله عز وجل يطلب الأمر ممن يملكه والشفاعة ممن يأذن بها ، ومعنى : أتوجه إليك بنبيك ، أى بدعائه ، لا بشخصه ، وإلا ما ذهب إليه ، وتوسل بشخصه من أى مكان . ، والله أعلم .

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٤٧ ، ١٤٨

ب) حديث توسل عمر " رضى الله عنه " بالعباس رضى الله عنه :

ونصه : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون »[1]

ووجه الشبهة فى هذا الحديث أن يقال : ما دام عمر - رضى الله عنه - قد قال « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا » وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك توسله بالعباس رضى الله عنه ، يدل على جواز التوسل بآل البيت والصالحين . !!

وكل من ترجى بركته . وفيه إظهار الإكرام لآل البيت فى صورة العباس رضى الله عنه !![2]

والجواب عن هذه الشبهة : أن توسلهم - رضى الله عنهم - بالنبى صلى الله عليه وسلم كان بطلبهم منه أن يدعو الله تعالى لهم بالغيث فيدعو فيستجيب الله دعوته ، ويسقيهم ، كما قد حصل مرارا ، لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبى أو بجاهه صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك ، والنبى غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم ، إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس - رضى الله عنهما - وإنما كان يقول : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أوبجاه نبيك فاسقنا ، لم

---

١ - أخرجه البخارى

٢ - إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء ، تأليف السيد عبد الله الصديق الحسنى الغمارى ص ١٩ ، ٢٠ .

يقل عمر هذا ، لأنه يعلم أن التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم ، ولما توفى صلى الله عليه وسلم لم يبق ليدعو لهم ، فتوسلوا بالعباس ليدعو الله لهم ، فكان يدعو ويستجيب الله له ، فيسقون . ثم هم في توسلهم بالعباس هل قالوا بجاه العباس ، وبحقه ، وقربه من النبى صلى الله عليه وسلم كالذي يقوله العامة فى زماننا ؟ بالطبع : لا ؟ وهذا هو الخطأ فى المسألة .

وكذلك ، أساس الخلاف ، فى من مات لا من هو من الأحياء ، وتوسلهم بالنبى صلى الله عليه وسلم كان فى حياته ، وتوسلهم بالعباس بدعائه ، وفى حياته ، ولو كان التوسل جائزا بالأموات ، لتوسلوا بخير من مات صلى الله عليه وسلم ، وهو قريب العهد بهم ، زمانا ومكانا .

ثم ماذا قال العباس رضى الله عنه ؟ لقد قال : « اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك . وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث » فهذا من دعاء المسلم لإخوانه المسلمين وهو من الجائز المشروع ، واختيار " العباس رضى الله عنه " ليس لأنه من أهل البيت فقط ، وإلا لكان على وفاطمة وأولادهما رضى الله عنهم أولى بالاختيار منه لمكانة " على بن أبى طالب " رضى الله عنه - فى الإسلام ، وبين آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما لأن " العباس " كان كبيرًا فى السن ، وكذلك كان مجتهدا فى الطاعة والتقوى بعد إسلامه ، وقد يقدم المفضول مع وجود الفاضل وليس ذلك مقصورا على أن يدعو من تتوسم فيهم الصلاح لمن نظن بهم التقصير فهذا خطأ ، بل الأمر أعم ، وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من عمر - رضى الله عنه - أن يدعو له ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم جمهور الأمة أن يدعوا له ،

أو لسنا نصلى عليه كما أمر الله ؟ فما صلة ذلك بالتوسل على هذا النحو المجنون الذى سقط فيه العامة ، وجاراهم عليه الكسالى والمرتزقة والقاصرون من أدعياء العلم ؟ .[1]

ثالثا : أحاديث ضعيفة ، استشهدوا بها كذلك ، ومنها :

(أ) قوله صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته إلى الصلاة ، فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاى هذا ، فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، وأسألك أن تعيذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك » .[2]

ووجهة الشبهة أن يقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنى أسألك بحق السائلين عليك ، فلمَ لا نتوسل نحن بمثل ذلك ، ونقول : اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان ؟

والجواب : أن نقول : إن الحديث الذى ورد فيه هذا اللفظ ، حديث ضعيف ، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام فضلا عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه ، مع أن هذا اللفظ - لو صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان ، لأن معنى بحق السائلين عليك . اللهم استجب لى كما تستجيب للداعين لإنك قلت أدعونى استجب لكم ، وذلك لأنه ما دام تعالى قد أمر عباده بدعائه ووعدهم بالاستجابة : فقال عز وجل :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[3]

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٤٩ ، ١٥٠ بتصرف - وعقيدة المسلم ص ٧٨ ، ٧٩ بتصرف

٢ - رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة ، وقال عبد الله الصديق صححه ابن خزيمة وحسنه الحافظ أبو الحسن المقدسى والحافظ العراقى ، هذا قوله ، وضعفه الألبانى فى السلسلة جـ ١ ص ٣٤ - ٣٨

٣ - سورة غافر الآية : ٦٠.

أصبح لكل داع الحق أن يطلب من ربه بما وعده به لينجزه له ، فمن هنا لما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزا ربه وعده « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا » فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية ، وهى الإجابة للداعين ، والمثوبة للعاملين بطاعته الماشين إلى بيوته لأداء عبادته .

قلنا هذا من باب التنزل والفرض ، وإلا فما دام الحديث ضعيفا ، فإنه لا يلتفت إليه ولا إلى من يحتج به .

(ب) حديث فاطمة بنت أسد - أم علي رضى الله عنها : « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها فقال : يرحمك الله يا أمى ، كنت أمى ، تجوعين وتشبعيننى ، وتعرين وتكسينى ، وتمنعين نفسك طيبا وتطعميننى ، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ، ثم أمر أن تُغَسَل ثلاثا ، فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم بيده ، ثم خلع قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه ، ثم دعا أسامة بن زيد ، وأبا أيوب الأنصارى ، وعمر بن الخطاب وغلاما أسودَ يحفرون ، فحفروا قبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ، وقال : الله الذى يحيى ويميتِ وهو حى لا يموت ، اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين ، وكَبَّر عليها أربعا ، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر رضى الله عنهما » .[1]

فهذا الحديث حكم عليه أهل الحديث بالضعف ، فلا يلتفت إليه ، ولا يعول عليه ، أو يحتج به . وفيما صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم من التوسلات

---

١ - رواه الدار قطنى وضعفه ، وابن حبان ، أنظر الألبانى فى السلسلة جـ ١ ص ٣٢ - ٣٤

المشروعة كفاية ، فلنأخذ ما صفا ، ولنترك ما كدر ، وأمثال هذا لا يستدل به فى العقائد .

(جـ) وقوله صلى الله عليه وسلم « حياتى خير لكم ، تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتى خير لكم ، تعرض علىّ أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله عليه . وما رأيت من شر استغفرت الله لكم . »[1]

لقد حاول الشيخ أبو عبد الله محمد بن الصديق الغمارى المغربى - فى كتابه - نهاية الآمال في صحة حديث عرض الأعمال - تصحيح الحديث ، وكذلك الشيخ عبد الحليم محمود ، والشيخ صالح الجعفرى ، والشيخ محمد علوى المالكى - وكلهم أئمة التصوف فى العصر الحديث .

هذا ولقد حاول المتصوفة من خلال هذا الحديث - على الرغم من الاختلاف فى صحته - على أقل الدرجات - إثبات حياة النبى صلى الله عليه وسلم حياة كاملة ، مع أن ذلك يتعارض مع ظاهر النص " ووفاتى خير لكم " وفى رواية ، « ومماتى خير لكم » وكذلك " فإذا مت أنا كانت وفاتى خيرا لكم " فما معنى هذا ؟ .

الا أن تكون حياة برزخية معلومة ، وكالتى نعرفها عن سائر الموتى وتبقى الخصوصيات التى جعلها الله عز وجل للأنبياء ، كقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[2] أو ما اختص به صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يرد على روحى فى كل ليلة جمعة ويومها ، فأسمع صلاة من يصلى علىّ فأردّ عليه »[3] ولماذا نذهب بعيدا

---

١ - أخرجه البزار والنسائى . وقد حاول البعض تصحيح الحديث فذكر غير واحد منهم ، قاله الحافظ العراقى والهيثمى ، والقسطلانى ، والسيوطى ، وتعقب الألبانى ما صححوه حتى ضعف الحديث بجميع طرقه ، وخير طرقها مرسل . فهو من قسم الضعيف ، انظر السلسلة الضعيفة جـ ١ ص ٤٠٤ - ٤٠٦

٢ - حديث صحيح ٣ - صحيح

والقرآن الكريم قد حكم على النبى صلى الله عليه وسلم بالموت ، شأنه فى ذلك شأن كل البشر - فقال تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1]

وقال سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾[2]

ووجه الشبهة فى الحديث - عندهم : أنه يدل دلالة صريحة على أن النبى صلى الله عليه وسلم يشفع لأمته بعد انتقاله باستغفاره لهم ، وعلى هذا يجوز التوسل به لأنه استشفاع ، وهو الشفيع المشفع المجاب .

وجواب هذه الشبهة أولا : ضعف الحديث لا ينبنى عليه حكم ، لا فى العقائد أو الأحكام .

ثانيا : إنه - على فرض صحته - لا يدل على ما ذهبوا إليه من جواز التوسل والاستشفاع .

ثالثا : استغفار النبى صلى الله عليه وسلم لأمته وسيلة مشروعة ، كما بيناها .

رابعا : ما معنى عرض الأعمال على النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وهل الاستغفار للمذنبين من أمته شفاعة لهم فى الدنيا قبل الآخرة .

خامسا : ألا يتعارض هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم - فى حديث الحوض « فقيل لي : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك »[3] فلو صح الحديث لعلم ما عليه أمته من خير أو شر .

سادسا : لست أدرى .. ما يعنيه المتصوفة بحياة النبى ﷺ ، وما المراد من ذلك ؟

---

١ - سورة الزمر الآية : ٣٠.　　٢ - سورة الأنبياء الآية : ٣٤

٣ - حديث صحيح

رابعا : أحاديث موضوعة مكذوبة وهى :-

(أ) « توسلوا بجاهى ، فإن جاهى عند الله عظيم »

وهو حديث موضوع لا أصل له ، ذكر ذلك الشيخ الألبانى [1] ونص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية [2] ومما لا شك فيه أن جاهه صلى الله عليه وسلم ومقامه عند الله عظيم . ولكن هذا شيء ، والتوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم شيء آخر ، فلا يليق الخلط بينهما ، كما يفعل البعض .

(ب) لما اقترف آدم الخطيئة ، قال يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال : يا رب لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك ، رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلىّ ، ادعنى بحقه ، فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك .

وهو حديث موضوع ، أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وكذا البيهقى [3]

وحاول الحاكم تصحيحه ، فتعقبه الذهبى بقوله : بل موضوع ، وذكر علة وضعه ، وكذلك العسقلانى .

(جـ) « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور ، أو فاستعينوا بأهل القبور » .

فهذا الحديث كذب مفترى على النبى صلى الله عليه وسلم ، بإجماع العارفين بحديثه ،لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد فى شيء من كتب

---

١ - السلسلة الضعيفة للألبانى جـ ١ ص ٣٠ ، ٣١

٢ - قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٤١ ، ١٦١

٣ - السلسة الضعيفة والموضوعة جـ ١ ص ٣٨ - ٤٢ بتصرف

الحديث المعتمدة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1]

وهذا مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عما هوأقرب من ذلك - عن اتخاذ القبور مساجد ، ونحو ذلك .[2]

واعلم - أخا الإسلام - أن هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة - لها الآثار السيئة التى تركتها فى التوسل ، أنها صرفت كثيرا من الأمة عن التوسل المشروع إلى التوسل المبتدع .

ومهما قيل فى التوسل المبتدع فإنه لا يخرج عن كونه أمرا مختلفا فيه ، فلو أن الناس أنصفوا لانصرفوا عنه احتياطا وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[3] إلى العمل - بما أشرنا إليه - من التوسل المشروع ، ولكنهم مع الأسف أعرضوا عن هذا وتمسكوا بالتوسل المختلف فيه ، كأنه من الأمور اللازمة التى لابد منها ولازموها ملازمتهم للفرائض ، حتى ندر التوسل الصحيح المشروع ، وكثر التوسل الباطل الممنوع . وذلك من آثار انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الناس ، وجهلهم بالسنة الصحيحة ، فعليكم بها - أيها المسلمون - علما وعملا تهتدوا وتَعِزُّوا .[4]

خامسا : أدلة عقلية :

(أ) جمهور الناس عصاة ، والله إنما يتقبل من المتقين ، فلو ذهب الإنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤلا ، ولم يسق له فضلا ، ومن ثم

---

١ - سورة الفرقان ، الآية : ٥٨

٢ - قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٤١ ، ١٦١

٣ - أخرجه البخارى

٤ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ص ٤٣ بتصرف .

فعلى الإنسان أن يبحث عن وساطة مقبولة ، كولى صالح مثلا .

(ب) لا يسوغ القول بأن هذا شرك لأن النية هي الحكم على الأعمال والمتوسلون لم ينووا شركا أو يرضوا به .

والجواب على هذه الشبهة وتلك :

(أ) فأما إن العاصى ليس له اللجوء إلي الله مباشرة ، وأنه أولى به أن يستصحب أحد المقربين قبل مناجاة رب العالمين ، فكلام لا أصل له فى الإسلام قط . وذلك لأن إبليس دعا ربه مباشرة وأجيب

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾[1]

والمشركون دعوا الله مباشرة وأجيبوا

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[2]

فهل عصاة المسلمين يحرمون من حق أخذه إبليس وجنوده ؟!

إن أى مسلم يقع فى خطأ فعليه أن يجأر بالدعاء إلى الله على عجل ، من غير توسيط نبى ولا ولى ، ولا إنسان ولا شيطان .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[3]

---

١ - سورة الحجر الآيات : ٣٦ - ٣٨

٢ - سورة يونس الآيات : ٢٢ ، ٢٣

٣ - سورة آل عمران الآية : ١٣٥

ثم إن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها ، فلن يقبل فيه دعاء غيره له ، ولو كان سيد الأنبياء ، ألا ترى كيف رفض استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبىّ بن سلول ؟

فأما المسلم المعتاد ، فله - بل عليه - أن يدعو الله ولا ينظر فى هذا الضرب من العبادة إلى مخلوق أبدا .

وصحيح أن إجابة الدعاء تقتضى الإخلاص والتقوى ، ولكن ما صلة ذلك بما نحن فيه ؟

أنظن أن الرجل إذا فقد الحرارة والصدق والتقى ، يذهب إلى ميت أو حى ليجد لديه العوض عما فقده .!!

هذا زعم باطل ، وليس فى دين الله ما يؤيده ، بل إن دين الله ضده .

(ب) والقول بأن العمل لا ينظر إليه ، وإنما تعتبر النية المصاحبة له ، غير صحيح ، فالعمل المقبول - دينا - يجب أن تتوافر فيه - أولا - النية الصالحة ، - وثانيا - الصورة المشروعة ، وفقدان العمل لأحد هذين الركنين يبطله .

فالعمل المتفق ظاهره مع الشرع إذا كان صاحبه مرائيا أو منافقا يحبط أجره .

والقصد الصالح إذا لم يجر فى طريقه الذى رسمه الدين فلا قيمة له ولا يلتفت إليه [١] ولماذا نستحى من وصف القبوريين بالشرك ، مع أن الرسول صلى الله عليه و سلم وصف المرائين به ؟ فقال : " الرياء شرك " . [٢]

إن واجب العالم المسلم أن يرمق هذه التوسلات النابية باستنكار ويبذل جهده فى تعليم ذويها طريق الحق ، لا أن يفرغ وسعه فى التمحل والاعتذار .!

---

١ - عقيدة المسلم للغزالى ص ٥٧ - ٧٧ بتصرف

٢ - حديث صحيح ، سبق تخريجه

ولست ممن يحب تكفير الناس بأوهى الأسباب ، ولكن حرام أن ندع الجهل يفتك بالعقائد ونحن شهود .

أية جريمة يرتكبها الطبيب إذا طمأن المصدور " المريض " ومنع عنه الدواء ، وأوهمه أنه سليم معافى : إن ذلك لا يجوز .....

رزقنا الله صدق التوحيد ، وأحيانا وأماتنا عليه .

جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا ، فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور . وأن تبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض ؟ ، ثم تلا قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(1)

يعنى أن إخلاص التوحيد يقتضى محبة العدل ، وكراهية الظلم .

فإذا أحب الإنسان جائرا ، وكره عادلا فقد أشرك .

فإذا كان حس الإسلام مرهفا إلى هذا الحد من تمحيص القلوب ، ونقد اتجاهاتها الخاطئة، فكيف يسوغ أن تأتى إلى رجل يجهر بالدعاء لغير الله ، ويخاف ويرجو غير الله ، ثم نقول له : لا بأس عليه ؟ !!

إن موقف العالم المسلم فى القضية ليس موقف المحامى الذى يدافع عن المجرم ، فيقف ساعة أو أكثر ليزيف التهمة ويؤول القانون .. بل موقف الزائد عن معالم الإسلام . فإذا كان لا يعاقب المتهم ، لأنه جاهل - كما يقولون - فليعلمه دين الله ، ولا يتركه نهبا للشياطين .

(جـ) ويقولون : الآيات التى استشهدنا بها على نفى هذه المزاعم نزلت فى

---
١ - الحديث صحيح والآية من سورة آل عمران الآية : ٣١

المشركين خاصة . فلماذا تسحبونها على المسلمين ؟ !!

نقول : إن القول بأن الآيات نزلت فى أهل الجاهلية وحدهم ، جهالة لا نأبه لقائلها ، ولا نقيم لها اعتبارا ، وقد حرم الله الشرك على العرب ، فهو علي غيرهم حرام .

وآيات القرآن ينظر فيها إلى عموم اللفظ ، لا إلى خصوص السبب .[1]

(د) ويقولون : إذا كان الناس يستشفعون - فى الدنيا - بالوزراء ، عند الملوك ، وبالوجهاء عند الولاة ، فلماذا لا نفعل نحن ذلك ؟ وإذا كان الناس - فى الآخرة - يستشفعون بالأنبياء ، كما ورد فى حديث الشفاعة الصحيح ، فلماذا تحرمون علينا ذلك ؟

وهذه الشبهة العقلية والتى أردفها الحديث الصحيح ، ما سنعرفه فى حديثنا عن الشفاعة والاستشفاع في المبحث القادم : إن شاء الله .

---

١ - راجع : عقيدة المسلم ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣

« الاستشفاع أو الشفاعة »

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم فى أمور عظيمة من الباطل : معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة

فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى ، ويستغيث بغيره عز وجل ، ولا يحسب هذا الدعاء لغير الله و لا يعده شركا في عبادته سبحانه وتعالى ، وإذا قيل له في ذلك ، وأنكِرَ عليه ، قال : هذا ليس بدعاء لغير الله ولا شرك فى عبادته ، وإنما هو استشفَاع وتشفع فقط .

فما معنى الاستشفاع ، وما حكمه ، وما أنواعه ، وما المشروع منه وما الممنوع .

هذا ما نحاول فى هذا البحث بيانه إن شاء الله تعالى - بيانا للحق فيه ، تعليما وتحذيرا .

أولا : معنى الاستشفاع :

الاستشفاع والتشفع والشفاعة ، هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد ، ومعناها لا يختلف وهو : أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذى ملك أو سلطان ليقضى له حاجته فى اعطائه ما هو فى حاجة إليه أو فى التجاوز عنه فى ذنب قارفه ، أو جريمة ارتكبها .

والكلمات الثلاثة مشتقة من لفظ " الشفع " الذي هو خلاف الوتر " الفرد " وبيان ذلك أن صاحب الحاجة كان واحدا فضم إليه الواسطة ، وهو من استشفع به ، وطلب شفاعته فكان معا شفعا أى اثنين بعد أن كان فردا ، من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة .

ثانيا : حكم الاستشفاع : (أ) " فى الدنيا "

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذى منصب أو مال أو سلطان ، ليشفع له عنده ، يرفع حاجته إليه ، حيث عجز هو عن رفعها إليه لخموله أو قصوره .

وذلك لقوله تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾[1]

ويؤجر الشافع على شفاعته ولو لم تقضى حاجة من شفع له ، وذلك لقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى موسى « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء »[2]

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون فى حق ضاع ، أو حق يخشى ضياعه ، أو فى شيء مباح ينتفع به ، أو نصرة مظلوم ، أو أداء واجب ونحو هذا .

أما أن يكون فى إثم باسقاط حق من الحقوق ، أو تعطيل حد من الحدود ، أو ظلم إنسان ، أو تعدى على حق ، وعلى حد فلا ، وذلك لبيان الآية أن هذه شفاعة سيئة ، ولقوله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[3]

ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع »[4]

---

١ - سورة النساء الآية : ٨٥

٢ - متفق عليه

٣ - سورة المائدة الآية : ٢

٤ - رواه البخارى بمعناه والموطأ بنصه لكن موقوفا . وهو فى حكم المرفوع .

ولم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم شفاعة أسامة فى المرأة المخزومية - التي سرقت - وقال : « أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ »[1] فهذا استشفاع فى الدنيا ، كما عرفته ، وهو لا تقاس عليه العبادات .[2]

* قياس خاطئ :

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه ، فقاسوه - سبحانه وتعالى - على بعض عباده فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين ، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى ، فكانوا يقولون : يا فلانا اشفع لى عند ربك فى قضاء كذا وكذا - ويا مولاى فلانا توسلت بك إلى ربى فادع لى يفعل بى كذا وكذا .

ولما يُنْكَرُ عليهم ذلك يقولون : إن الذى لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة !! فجمعوا بذلك بين عظيمتين : الأولى : دعاء غير الله تعالى ، وهو شرك أكبر ، والثانية : قياس الخالق على المخلوق ، وتشبيه به ، حيث طلبوا له واسطة كما تطلب للمخلوق من ذوى السلطان .

وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان ، فيحتاج إلى من يعلمه به ، وينبهه إليه ، بخلاف الرب تبارك وتعالى ، فإنه عليم بأحوال عباده ولا يخفى عليه من أمرهم شيء فما هو فى حاجة إلى من يعلمه بأحوال عباده أو ينبهه إليها .

وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة ، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف تمام الاختلاف إذ العبد مع الله تعالى يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة ، لعلمه تعالى بأحوال عباده ، وقربه منهم ، بخلاف المخلوقين

---

١ - رواه البخارى   ٢ - عقيدة المؤمن ص ١٥٣ ، ١٥٤ بتصرف

فإنهم لجهلهم بأحوال الناس وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجتهم إليهم ليعلموها . وتؤثر عليهم ليقضوها ، وهذا المعنى منتف مع الله تعالى تماما ، ومن هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه ، وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة ، إذ لو غلقت عليه كل الأبواب فلن يغلق عليه باب الله ، وإذا جهله الناس فإن الله يعلمه ،وإذا ظلمه الناس فإن الله لا يظلمه .

وإذا بعد عن الناس فإن الله قريب منه ، يستجيب له ويرحمه ، وكيف لا ، والله تعالى يقول :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1]

كما يقول جل وعلا :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2]

وإن قيل : كيف جاز لنا أن يقول بعضنا لبعض : يا فلان أدع الله تعالى لى بكذا ؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء ؟

قلنا : إن هذا ليس من جنس ذاك أبدا ، وذلك لأمرين : أولهما : أن هذا قد أذن فيه الشارع لنا ، بما سبق ذكره [3] وثانيهما : طلبنا الدعاء من عبد صالح حـي يسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا وهو كطلبنا منه أن يناولنا شيئا أو يعطينا آخر ، أفليس هذا جائزا ؟ بلى قطعا . وإذاً فأى مانع فى أن نقول لمؤمن صالح : أدع الله لنا يا فلان ، رجاء أن يستجيب الله له فينا . وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين ، من أولياء وصالحين ، إذ

---

١ - سورة البقرة الآية : ١٨٦ ٢ - سورة غافر الآية : ٦٠.

٣ - بحث الوسيلة ، المشروع منها ، دعاء المسلم لأخيه المسلم .

هم أموات ، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه ، ولا يعرف من يستشفع به . فنداؤه وطلب الدعاء منه باطل والاستشفاع به ضلال عقلى ، وخطأ فكرى وفساد دينى يبرأ منه الإسلام وأهله ، وهذه أقل أحواله ، وإلا فهو شرك فى عبادة الله ، والعياذ بالله تعالى .[1]

(ب) الشفاعة فى الآخرة :

وإذا كان ما تقدم من أحكام عن الاستشفاع فى الدنيا ، فإن الشفاعة فى الآخرة تختلف عنها اختلافا كبيرا ، وذلك لأن الأمر يومئذ كله لله ، وليس لأحد غير الله تعالى منه شىء ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ
يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[2]

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجرى على خلاف ما تكون عليه اليوم في الدنيا ، وهذا بيانها :

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين :

١- شفاعة منفية تماما لا حقيقة لها ولا واقع ولا وجود .

٢- وشفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة ووجود .

(١) الشفاعة المنفية هى :

(أ) شفاعة الآلهة التى عبدت من دون الله أو معه ، فهذه شفاعة لا وجود لها البتة ، كما قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[3]

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٥٤ - ١٥٦ بتصرف
٢ - سورة الإنفطار ، الآيات : ١٧ - ١٩
٣ - سورة الزمر الآيات : ٤٣ ، ٤٤

كما قال تعالى : ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾[2]

(ب) شفاعة الكفار والمشركين ، إذ لا شفاعة لكافر ، لقول الله تعالى :

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[3]

وقوله تعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[4]

وهذه قطعا نفس الكافرين والمشركين ، وكما قال تعالى أيضا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5]

---

١ - سورة يونس الآية : ١٨
٢ - سورة الأنعام الآية : ٩٤
٣ - سورة المدثر الآية : ٤٨
٤ - سورة البقرة الآية : ١٢٣
٥ - سورة البقرة الآية : ٢٥٤

وقوله تعالى :

﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[1]

بطلت الشفاعة الشركية ، وانهارت معها آمال المشركين .

(جـ) شفاعة بدون إذن الله تعالى ، أو بدون رضاه ، هى شفاعة منفية لا تحدث ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[2]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[3]

وقوله جل وعلا :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[4]

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[5]

(٢) الشفاعة المثبتة ، قسمان :

القسم الأول : شفاعات النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

القسم الثانى : شفاعات غيره من الأنبياء والملائكة والأولياء والشهداء والصالحين من عباد الله .

---

١ - سورة غافر الآية : ١٨
٢ - سورة البقرة الآية : ٢٥٥
٣ - سورة الأنبياء الاية : ٢٨
٤ - سورة النجم الآية : ٢٦
٥ - سورة سبأ الآية : ٢٣

(ا) فأما شفاعاته صلى الله عليه وسلم فهى كثيرة ، ومنها :

١- الشفاعة العظمى ، وهى الشفاعة فى فصل القضاء . وهى المقام المحمود الذى ذُكِرَ له فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾[1]

ووردت كذلك فى حديث الشفاعة ، كما هو ثابت فى الصحيحين .

٢- شفاعته فى أناس من أمته ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، وذلك فى حديث الشفاعة أيضا حيث ورد فيه « أدْخِلْ الجنةَ من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن ... »

٣- شفاعته لأهل الأعراف - الذين استوت حسناتهم بسيئاتهم - كما ورد ذكرهم فى القرآن :

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴾[2]

٤- شفاعته صلى الله عليه وسلم في أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم فلا يدخلوا النار ، ولعلهم أصحاب الصغائر التى ماتوا عليها دون توبة منها .

٥- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته صلى الله عليه وسلم ، للحديث الصحيح « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى اختبأت دعوتي لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا » .[3]

---

١ - سورة الإسراء الآية : ٧٩
٢ - سورة الأعراف الآية : ٤٦
٣ - متفق عليه

(ب) الشفاعات الأخرى للملائكة ، والأنبياء ، والشهداء ، والأولياء ، والعلماء ، وكذلك للقرآن والصيام - كما قال تعالى - عن شفاعة الملائكة :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[1]

وكذلك :

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[2]

وأما شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فهى ثابتة بعموم القرآن ، وخصوص السنة ، ففى القرآن الكريم يقول تعالى :

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[3]

فهى بمفهومها أثبتت وجود الشفعاء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾[4]

وكذلك :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[5]

فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها وبمفهومها .

وفى السنة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ، ثم الشهداء » ،[6] وقوله صلى الله عليه وسلم :

---

١ - سورة النجم الآية : ٢٦

٢ - سورة الأنبياء الآية : ٢٨

٣ - سورة المدثر الآية : ٤٨

٤ - سورة مريم الآية : ٨٧

٥ - سورة البقرة الآية : ٢٥٥

٦ - رواه ابن ماجة والبيهقى والبزار واسناده حسن

« يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته »[1]

وعن الصيام والقرآن ، قال صلى الله عليه وسلم : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوات بالنهار ، فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : أى رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، قال : فيشفعان[2] وقوله صلى الله عليه وسلم « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه . »[3]

(فوائد حول الشفاعة)

- هذه الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء والشهداء مقيدة بإذن الله تعالى ورضاه عن المشفوع فيه بارتضائه قوله وعمله ، ولا تكون لمن مات على الشرك أو الكفر

- الذى يملك الشفاعة هو الله عز وجل :

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[4]

فمن أرادها فليسأله إياها ، فمن أراد شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فليسألها من الله تعالى ، وليقل : اللهم شفع فىَّ نبيك ، أو اللهم ارزقنى شفاعة نبيك ، أو يا رب اجعلنى ممن تشفع فيهم نبيك صلى الله عليه وسلم ونحو هذا .

- الذى يطلب الشفاعة يؤدى من العمل ما يوجبها ويقتضى تحقيقها ، ومنه :

١- الإخلاص لله تعالى فى العبادة ، ونفى الشرك عنه تعالى ، للحديث

---

١ - حديث صحيح

٢ - حديث صحيح

٣ - رواه مسلم

٤ - سورة الزمر الآية : ٤٤

الصحيح : « من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ فقال : من قال لا إله إلا الله ، خالصا من قلبه ، أو من نفسه »[1]

٢- كثرة الصلاة ، لما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سأله أحد الصحابة مرافقته فى الجنة فقال له : « فأعنى على نفسك بكثرة السجود »[2]

٣- الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وسؤال الوسيلة له ، وذلك للحديث « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة ، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة »[3] ا . هـ .[4]

« من أحاديث الشفاعة »

ما ورد فى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بلحم فَرُفِعَ اليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهس منها نهسة[5] فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بما ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعى وينفذ فيهم البصر ، تدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض :ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : ائتوا آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون ، يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى

---

١ - رواه البخارى ٢ - رواه مسلم ٣ - رواه مسلم

٤ - أنظر كتاب الشفاعة للشيخ أبو الوفا محمد درويش ص ٣٢ - ٨٣ وعقيدة المؤمن ص ١٥٧ - ١٦٣ .

٥ - فنهس : أى أكل منها بمقدم أسنانه .

ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا - عليه السلام - فيقولون : يا نوح أنت أول رسل الله إلى الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا عند ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة فدعوت بها على قومى،نفسى نفسى ، اذهبوا إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - وذكر كذباته - نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى عليه السلام ، فيقولون : يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله تعالى برسالاته ، وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى عيسى .

فيأتون عيسى عليه السلام ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ،وكلمت الناس فى المهد ،وكلمة منه ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر له ذنبا - نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

فيأتوننى ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر

الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش ، فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله تعالى عليَّ ، ويلهمنى من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلى ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعط ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذى نفسى بيده أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى . »[1]

وفى الصحيحين كذلك - عن أنس رضى الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعتنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا - فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربك ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ويقول : ائتوا نوحا ، أول رسول بعثه الله ،فيأتونه فيقول: لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا ابراهيم ، الذى اتخذه الله خليلا . فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا موسي الذى كلمه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى ، فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى فأستأذن على ربى ، فإذا رأيته وقعت له ساجدا فَيَدَعُنِى ما شاء الله ، ثم يقال لي : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، فأحمد ربى بتحميد يعلمنى ، ثم أشفع ، فيحد لى حدا ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدا مثله فى الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن . وكان قتادة يقول : عند هذا - أى وجب عليه الخلود .[2]

---

١ - متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

٢ - متفق عليه ، واللفظ للبخارى

وفى بعض رواياته ، (فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقول عز وجل : يا محمد ، ما تريد أن أصنع فى أمتك ، فأقول يا رب عجل حسابهم) وفى رواية ، : « فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد : أين محمد وأمته ؟ » .

وفى حديث أنس - السابق - وقع اشكال ، فهو - أى راوى هذا الحديث ، ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن فى أول الحديث ذكر الشفاعة فى الإراحة من كرب الموقف ، وفى آخره ذكر الشفاعة فى الإخراج من النار ، يعنى ذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط وسقوط من يسقط فى تلك الحالة فى النار ، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة فى الإخراج ، وهو إشكال قوى ، يتفق مع ما يذكر فى بقية الأحاديث ، قال عياض : فبهذا يتصل الكلام ، لأن الشفاعة التى لجأ الناس إليه فيها هى الاراحة من كرب الموقف ، ثم تجئ الشفاعة فى الإخراج بعد ذلك ، فقد وقع فى حديث أبى هريرة . بعد ذكر الجمع فى الموقف الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد ، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين ، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف ، قال : وبهذا تجتمع متون الأحاديث وترتب معانيها .

قلت . فكأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر ، وثبت أنه صلي الله عليه وسلم ، أول ما يشفع ليقضى بين الخلق ، وقد وقع ذلك صريحا فى حديث ابن عمر ، وفيه : « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ، فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محموداً يحمده أهل الجمع كلهم .

ثم الشفاعة فيمن يدخل الجنة من أمته بغير حساب ، فيقول الله له : قد شفعتك فيهم ، وأذنت لهم فى دخول الجنة حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وإن لم يعمل خيراً قط .

فعلى هذا قوله " حبسه القرآن " يتناول الكفار وبعض العصاة ممن ورد فى القرآن في حقه التخليد ، ثم يخرج العصاة في القبضة ، ويبقى الكفار ، ويكون المراد بالتخليد فى حق العصاة المذكورين ، البقاء فى النار بعد إخراج من تقدمهم ، وفي الحديث « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة ، يسمون الجهنميين »[1] وفى الحديث أيضا « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ، فيعرفونهم فى النار ، يعرفونهم بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم كل شيء إلا أثر السجود ، حرم الله النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار .. » .

وكذلك « حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار نصف ساقيه وركبتيه ، ثم يقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا ، ثم يقول ارجعوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ، ثم يقول : إرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا ، وكان أبو سعيد الخدرى يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[2]

---

١ - أنظر بتوسع ، فتح البارى ، شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى جـ ٢٤ ص ٢٤٦ إلى ص ٢٨٢

٢ - سورة النساء الآية : ٤٠

فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوما لم يعلموا خيرا قط ، قد عادوا حمما ، فيلقيهم فى نهر فى أنهار الجنة ، يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحَجَرِ أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض - فقالوا يا رسول الله : فإنك كنت ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كاللؤلؤ ، فى رقابهم الخواتم ، يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون ، يا ربنا أى شىء أفضل من هذا ، فيقول : رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا . »(1)

وإذا كان ما ذكرناه فى الصحيحين . فقد وردت أحاديث أخرى فى غيرها ، ذكرت تلك الشفاعات المثبتة كما بيناها ، وزاد البعض عليها ، شفاعة زيادة الدرجات فى الجنة ، وفصلوا القول فى غيرها .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(2)

حديثا مطولا - مرويا عن الطبرانى فى كتابه المطولات - وفيه ذكْر أنواعا من الشفاعة ، ومنه « ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتونى فأنطلق فأخر ساجدا قدام العرش حتى يبعث الله إلىّ ملكا فيأخذ بعضدي ويرفعنى ، فيقول : يا محمد ، فأقول : نعم يا رب ، فيقول الله عز وجل : ما شأنك - وهو أعلم - فأقول : يا رب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك ،

---

1 - انظر بتوسع : صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ١٥ - ٣٨ ، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ ١ ص ٤٢ - ٥٦

2 - سورة الأنعام الآية : ٧٣

فاقضي بينهم ، قال الله : قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضى بينكم - ، فإذا أفضى أهل الجنة إلي الجنة ، قال أهل جهنم ، من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون :.. حتى يأتونى ولى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن ، فأنطلق فآتي الجنة ، فآخذ بحلقة الباب فأستفتح .. فأقول يا رب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى أهل الجنة ، فيقول الله قد شفعتك .. وقد أذنت لهم فى دخول الجنة .. فأقول يا رب شفعنى فيمن وقع فى النار من أمتى فيقول : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يأذن الله فى الشفاعة ، فلا يبقى نبى ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله : أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة دينار إيمانا ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد وحتى لا يبقى فى النار من عمل لله خيرا قط ، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع حتى إبليس يتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له ، ثم يقول : بقيت وأنا أرحم الراحمين ، فيدخل يده فى جهنم ، فيخرج منها ما لا يحصيه غيره كأنهم حمم ، فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل . مكتوب فى رقابهم " الجهنميون " عتقاء الرحمن ، يعرفهم أهل الجنة بذلك ، ما عملوا خيرا لله قط فيمكثون فى الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب فى رقابهم ، ثم يقولون : ربنا امح عنا هذا الكتاب ، فيمحوه الله عز وجل عنهم .

وبعد ما ذكره بطوله ، قال : هذا حديث مشهور وهو غريب جدا . ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة وفى ألفاظه نكارة ، تفرد به اسماعيل بن رافع قاض أهل المدينة ، وقد اختلف فيه . ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقا واحدا ، فأنكر عليه ذلك[1] .

هذا ومثل هذه الأحاديث في الشفاعة لا يقاس عليها التوسل والاستشفاع بالأنبياء والأولياء فى الدنيا ، كما زعم المتصوفة ، وعلى نحو ما قد بيناه ، والله أعلم بالصواب . ا . هـ .

---

١ - تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٤٦

« التبرك أو البركة »

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها أسئ فهمها ، وجهل الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين في أخطاء كبيرة أخلت بالمعتقد الإسلامى ، وأساء للحياة الإسلامية أيما إساءة . فباسم التبرك وتحت شعاره عبدت الأشجار والأحجار ، وانتهكت الحرمات ، وضيعت الفرائض ، وأُسقطت الواجبات ، كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى واستغيث بغيره عز وجل ، وبالجملة فإن ما وقع من الشرك فى هذه الأيام من هذه الأمة - أيام جهلها بكتاب ربها وسنة نبيها ، وبعدها عنها - إنما كان فى الغالب عن طريق التوسل والتشفع والتبرك .

ولهذا رأينا مما ينبغي أن يبحث فى هذا المعتقد ليكون المسلم فيه على علم كامل وبينة تامة وبعد أن بحثنا الأول والثانى ، ها نحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى ، فما هو التبرك ؟ وبم يكون ، وكيف يكون ؟ وما حكمه ؟

فنقول وبالله التوفيق :

التبرك مصدر تبرك بالشىء تبرك به تبركا ، إذا تيمن به ، والتيمن بالشىء هو طلب اليمن وهو البركة . والبركة هى النماء فى الخير والزيادة فيه مع لزومه واستقراره ، ويطلق لفظ البركة على كل كثرة فى الخير ، واشتقاقها من بروك البعير وهو استناخته فى موضع ولزومه فيه ، فالخير الدائم الثابت فى الشىء والنامى فيه هو البركة .

والبركة فى عرف الدين - ما جعله الله تعالى من الخير فى الشىء الذى يباركه ، فقد أخبر تعالى أنه بارك فى أرض الشام أى جعلها مباركة فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(1)

---

١ - سورة الأنبياء الآية : ٧١

وعن المسجد الأقصى :

﴿ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾[1]

وعن الأرض عموما :

﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾[2]

وأخبر أنه جعل كتابه مباركا ، في قوله تعالى :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾[3]

وكذلك :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4]

وأخبر عن عيسى عليه السلام - عند تكلمه فى المهد - أنه تعالى جعله مباركا أينما كان ، فقال :

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[5]

وعن إبراهيم وإسحاق قال :

﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾[6]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[7]

---

١ - سورة الإسراء الآية : ١

٢ - سورة فصلت الآية : ١٠

٣ - سورة الأنعام الآية : ١٥٥

٤ - سورة ص الآية : ٢٩

٥ - سورة مريم الآيات : ٣١ ، ٣٢

٦ - سورة الصافات الآية : ١١٣

٧ - سورة الأعراف الآية : ٩٦

وعن المسجد الحرام ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

وعن المطر :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ (٢)

وعن الطور :

﴿ نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (٣)

وعن ليلة القدر :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (٤)

ومن الأدعية المأثورة : « وبارك لى فيما أعطيتنى » وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعا ، لأنه من طلب الخير والتماسه ، ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة الله ؟ ولكن بم يكون التبرك ، وكيف يكون ؟

أما بم يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما عُلِمَ شرعا أن فيه بركة ، وأذن الشارع فى طلبها منه والتماسها فيه ، وذلك - كذكر ما سبق - كبيت الله الحرام وزمزم ، والمساجد الثلاثة أو المساجد عموما ، وكالأرض المقدسة ، والأنبياء ، والقرآن ، ونحو هذا .

وأما كيف يكون التبرك ؟

فالتبرك ببيت الله الحرام يكون بزيارته ، حجا وعمرة ، وبالطواف به ،

---

١ - سورة آل عمران الآية : ٩٦
٢ - سورة ق الآية : ٩
٣ - سورة القصص الآية : ٣٠
٤ - سورة الدخان الآية : ٣

واستلام ركنيه ، وتقبيل الحجر الأسود ، والنظر إلى الكعبة ، والدعاء عنده ، والجلوس حوله ، وإن كان بزمزم فبالشرب منها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم) [1]

وإن كان التبرك بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبالزيارة ، والقصد والاعتكاف ، وإن كان بالمسجد الأقصى فبشد الرحال إليه ، وقصد الصلاة فيه ، بل بتطهيره من دنس أبناء القردة والخنازير ، وتحريره من اليهود والصهاينة .

ويجمعهم قوله صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . [2]

وأما التبرك بالأرض المقدسة ، فيكون بالتوجه إليها ، وسكناها ، وتمنى الموت فيها ، كقول الداعى « اللهم ارزقنى شهادة في سبيلك ، وموتا فى بلد رسولك صلى الله عليه وسلم » وإن كان التبرك بعموم المساجد ، فبالصلاة فيها والعبادة بها ، والحرص على تعميرها .

وإن كان التبرك بالأنبياء فبالاقتداء بهم ، والسير على هديهم ، ونهج سيرتهم ، وتعظيم شأنهم ، خاصة إمامهم ، وخاتمهم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك باتباع سنته ، والتعرف على سيرته والاقتداء بطريقته ، والاهتداء بدعوته ، والعمل برسالته . صلى الله عليه وسلم .

وإن كان بالشهداء فبذكر سيرتهم العطرة ، وتمنى الشهادة مثلهم ، والسير على منوالهم . وإن كان بالعلماء ، فبأخذ العلم عنهم ، وسماع نصائحهم والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم ، وإن كان بالقرآن ، فبحفظه وطلب معرفته ، وتدبر آياته ، والعمل بأحكامه ، والاحتكام إليه . وإن كان بشيء من الأرض ، كأرض الشام ، فتطهيرها من دنس اليهود ، والأخذ بالأسباب في زراعتها

---

١ - رواه مسلم بنحوه

٢ - رواه البخارى

واستغلال خيراتها ، واستخراج بركاتها .

وإن كان بعموم الأرض ، فبالإيمان والتقوى ، وإقامة الحدود فى أرض الله ، تؤتى الأرض بركاتها ، وتمدها السماء بخيراتها ، حتى تلتقى بركات السماء بخيرات الأرض ، فيكثر الخير ويعم الرخاء . وإن كان التبرك بالزمان ، كليلة القدر وليلة الجمعة ، ويومها ، ويوم عرفة وليلته ، وأمثال هذا فبركته والتبرك به ، فى استغلاله فى الطاعة ، واغتنامه فى الخير ، والتماس استجابة الدعاء .

وهكذا ما ورد فيه لفظ البركة فى القرآن والسنة يتبرك به ، بما يتفق مع القرآن والسنة لابما تمليه البدع والأهواء ، فليس من التبرك الصحيح فى شيء أن يتبرك إنسان بولى أو بصالح فيتمسح بالأبواب ، ويقبل الأخشاب ، ويخر ساجدا على الأعتاب ، وليس من التبرك الصحيح أن يتبرك إنسان بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيدعوه من دون الله ، ويستغيث به ويستنصره ، ولا أن يتبرك بالكعبة فيقبل كل أركانها ، ويتمسح بجدرانها وهكذا .

ما حكم التبرك ؟

هذا وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به ، وكيف يتم التبرك به ، وجب أن نبين إتماما للبحث حقائق هامة لابد من بيانها وهى :

(١) أن التبرك لم يَعدُ كونه مشروعا ، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحبا لا غير .

(٢) أن التبرك - وهو طلب البركة - قد يؤدى إلى فعل مكروه ، أو ارتكاب محرم ، فإنه يجب تركه ،ويتعين عدم فعله ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع ، ويشهد لهذا فعل " عمر رضى الله عنه " - وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعا باتباع سنتهم - فإنه - رضى الله عنه - لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية فى طريقهم إلى مكة فى النزول تحت

شجرة بيعة الرضوان ، للتبرك بها ، أمر بقطعها ، حسما لمادة الفساد ، وإذ لوتركت لعُبِدَتْ كما عُبِدَ غَيرُهَا من أشجار كثيرة باسم التبرك ، في كل زمان ، ومكان ، من عهد نوح إلى ساعتنا هذه .

(٣) إن ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان وفلان أو ضريح فلان الولى الصالح وإقامة الحفلات أو الموالد حولها ، والنزول بساحتها ، والعكوف والإقامة عندها باسم التبرك ، كل هذا باطل منهى عنه ، ولم يشرع فعله للمسلمين ، وإنما هو من محدثات الأمور ، وضلال الابتداع وقد أدى إلى الشرك والعياذ بالله . فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة ، وكم ترى حولها من مستجير بها ، وداعٍ ضارع لها وباكٍ خاشع لها ، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها وتذبح قربانا لها ، كل ذلك تحت شعار التبرك وعنوان التوسل والتشفع ، ألا فلا تبرك ولا توسل ، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدى إلى الشرك والكفر .ا . هـ .[١]

---

١ - أنظر عقيدة المؤمن ص ١٦٥ - ١٦٨ وغيرها كالعقيدة الطحاوية ، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد

الولاية

* ما هى الولاية ، ومن هم الأولياء ؟

(أ) معنى الولاية : الولاية فى اللغة : مصدر ولى الشيء يليه ، وليا وولاية ، إذا دنا منه وقرب أو قام به وملك أمره ، أو نصره وأحبه ، ويصاغ من فعل ولى المفاعلة ، فيقال : والاه يواليه مولاه ، إذا صادقه وناصره فهو موال له ، ضد معاد له ، كما يصاغ من التولية فيقال : تولاه تولية إذا صار له وليا ، ومنه اشتقَّ لفظ الولى الذى هو ضد العدو [1] هذا معنى الولاية فى عرف اللغة ، وهو لا يختلف عنه كثيرا فى الدين ، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب والنصرة والقيام بالأمر لصالح الولى . وضد الولاية : العداوة وهى تدور على البعد والبغض وإرادة الشر والهزيمة والهلاك للشخص المُعَادي ، على عكس الولاية ، وبناء على هذا : فولاية الله تعالى للعبد أن يهديه إلى الإيمان به ، وإلى معرفته وطاعته ومحبته ، ونصرة دينه فيعمل العبد بذلك ، ويقرب به من ربه عز وجل حتي يحبه ، فإذا أحبه قربه وتولى أموره ، ونصره وحفظه ، فكان بذلك وليه ، كما قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[2]

وولاية العبد للرب تبارك وتعالي أن يؤمن به ويتقيه ،ويتقرب إليه بطاعته، ويوافقه فى محابه ومكارهه ، ويوالى من يوالى ، ويعادى من يعادى ، وينصر دينه وأولياءه ،وبذلك يكون وليا لله تعالى ، قال تعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3]

---

١ - راجع لسان العرب . مادة (ولى)

٢ - سورة البقرة الآية : ٢٥٧

٣ - سورة يونس الآية : ٦٢ - ٦٤

* الحالة الجامعة : وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى الولى الحميد ، وبين العبد المؤمن التقى هى الموافقة فى الحب والبغض ، والقرب والمناصرة ، والموالاة والمعاداة .

* ومن هذا يستخلص أصل الولاية وشرطها ، فأصلها : الإيمان والتقوى .

وشرطها : الموافقة التامة فى الحب والبغض ، والموالاة والمعاداة ، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به ، ودعا إليه من أصول العقائد والعبادات والآداب والأخلاق ، متابعة يتجرد فيها العبد لله ويُخْلصُ له فيها إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول صلى الله علَيه وسلم ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

وهذا لأن المتابعة فى سبيل طهارة الروح وزكاة النفس ، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، والبعد عن الشرك والمعاصى ، كان أهلا لحب الله تعالى وموالاته عز وجل .[2]

* الفرق بين الولايتين : إن هناك فرقا بين ولاية الله تعالي للعبد ، وبين ولاية العبد لله عز وجل ، تجب ملاحظته وهو أن الله تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد واحتياج إليه ، وإنما يوالى إكراما للعبد وإنعاما عليه ، لغناه تعالى عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى ، وهذا من معانى اسمه " الصمد " وقد نفى الله تعالى فى كتابه العزيز أن يكون له ولى من الذل : فقال تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[3]

---

١ - سورة آل عمران الآية : ٣١

٢ - عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ١٦٩ - ١٧١

٣ - سورة الإسراء الآية : ١١١

وأما العبد فإنه يوالى - إذا وفقه الله تعالى - لفقره وحاجته إلى ربه ، إذ هو دائما فى حاجة إلى نصرة ربه ومعونته ، ومحبته ورضاه ، وإدنائه منه ، وتقربه إليه ، إذ لا يسعد العبد إلا فى جوار مولاه ، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه - فضلا منه - رضوانه . فالمنة إذاً لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له وليا . وأما العبد فلا مِنَّة له بحال ، وليس له أن يُدِلَّ على الله تعالى . ولو أذاب نفسه فى طاعة الله وأوقف كل حياته عليه ، وحتى لو لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى فلْيُعلَمْ فإنه مُهمٌ وجديرٌ بالفهم والمعرفة .[1]

(أ) معنى الولى : إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا - إن شاء الله - معرفة الولى . إن لفظ " الولى " وجمعه أولياء ، يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره ، المولى له ، ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يواليه غيره ويتولاه ، فالله تبارك وتعالى وهو الولى الحميد ، ولى عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان ، ووفقه للطاعة وأدناه منه ، وقربه إليه وأحبه ، ونصره ، فهو مولاه ووليه .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2]

والمؤمن ولى الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداه وتولاه ، وبمعنى إن المؤمن والى الله تعالى ، فآمن به واتقاه وأحبه ، وأطاعه ، ووافقه فى محابه ومساخطه فوالى من يوالى ، وعادى من يعادى ، وأحب من أحب وما أحب ، وكره ما كره ومن كره ، فكان بذلك عبده ووليه ، قال تعالى فى إثبات هذه

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٧٣ بتصرف

٢ - سورة الأعراف الآية : ١٩٦

الولاية ، وذكر كرامتها :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1]

وقد تقدم هذا المعنى واضحا فى بحث الولاية فازداد وضوحا وتقريرا ، وبالجملة فإن ولى الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته ، فآمن به واتقاه ، وتقرب إليه بالصالحات ، ووافقه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات ، ووالى من يوالى وعادى من يعادى ، فوالاه الله تعالى لذلك ، وتولاه ، وأكرمه بكرامات ، فكان إذا دعاه استجاب له ، وإن استعاذه أعاذه وإن سأله أعطاه .[2]

ولذلك كان المُعَادِى لولى الله هو المُعَادى لله عز وجل ، لأنه عادى من تابع أوامره واجتنب نواهيه ، لهذا السبب بخصوصه ، فكأنه عادى من أصدر هذه الأوامر والنواهى فى هذا كله ، ولهذا ورد فى الحديث القدسى عن أبى هريرة رضى الله عنه « يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس

---

١ - سورة يونس الآيات : ٦٢ - ٦٤

٢ - عقيدة المؤمن ص ١٧٤

عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له منه »[1]

مراتب الأولياء : للأولياء أربع مراتب : عليا ، وعالية ، ودنيا ، ووسطى .

فالعليا : هى مرتبة الأنبياء والمرسلين ، وكرامتهم ، يصرفونها لله تعالى الذى منَّ بها عليهم ، فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس .

والعالية : وهى مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم فى تسامى الدرجات وعلو المنازل .

والوسطى : وأهلها هم أهل الايمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين .

ودنيا : وهى مرتبة أهل الضعف فى الإيمان والتقوى ، وهم الظالمون لأنفسهم ، المذكورون فى قول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[2]

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من الناس ، وهم الظالمون لأنفسهم ، والمقتصدون ، والسابقون بالخيرات ، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يُحَلَّوْنَ فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم

---

١ - أخرجه البخارى ، باب التواضع . كتاب الرقاق (١٣١/٨) الا أنه ليس فيه (ولابد له منه) .

٢ - سورة فاطر الآيات : ٣٢ - ٣٥

فيها حرير ، فدل ذلك على أن أهل الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى ، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات ، أو بفعل بعض المحرمات ، غير أن درجاتهم دون درجة السابقين ولم تصل إلى درجة المقتصدين ، فهم فى منزلة دُونْ ، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم .

* ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافهم ، متفاوتون فى العدد ، قلة وكثرة ، فأهل المرتبة العليا أقل عددا من أهل المرتبة العالية ، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى،وأهل الوسطى أقل عددا من أهل المرتبة الدنيا ، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه .(١)

ويلاحظ أن الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم ، فقد يخطئون ويغلطون غير أن الغالب فى أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ويخل بمقامها ، وإن وقع أن أحدثوا ذنبا لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور ، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها ، فيسلم بذلك مقامهم من التداعى والسقوط ، ومنزلتهم من النزول والهبوط .(٢)

فكيف يقال : إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، عند من يهرف بمثل هذا ؟ !!

ويقول ابن تيمية : ولكن الولاية قسمان : ولاية عامة تشمل جميع المؤمنين وهي مأخوذة من قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾(٣)

وولاية خاصة أعظم قدرا من الأولى وهى مأخوذة من الآية الكريمة :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾(٤)

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٧٧ ، ١٧٨
٢ - عقيدة المؤمن ص ١٧٩
٣ - سورة المائدة الآية : ٥٥
٤ - سورة يونس الآيات : ٦٢ ، ٦٣

وهى الواردة فى الحديث القدسي السابق ذكره « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب .... الحديث »

فهذه الولاية الخاصة - تزيد عن التي قبلها بمسألة التقوى ، وهذه الولاية الخاصة لا تحصل إلا لمن كان من أهل الولاية العامة ، ثم زاده الله من طاعته ومحبته له حتى بلغ درجة المحبة التى ذكرها الله عز وجل فى الحديث القدسى المذكور سابقا .(1)

ولذلك صح قول القائل ، كل الناس أولياء ، إما أولياء للرحمن أو أولياء للشيطان ، ومن كان وليا للرحمن كان عدوا للشيطان ، ومن كان عدوا للرحمن كان وليا للشيطان ، إلا أنه لا يطلق لفظ الولاية بصريح العبارة على أصحاب الولاية العامة ، أو أصحاب الدرجة الدنيا الظالمى لأنفسهم وإن كان معهم أصل الولاية ، كما لا نطلق لفظ الإيمان المطلق على كل المؤمنين ، وإن كان معهم مطلق الإيمان ، أو أصله . فهذه تقاس على تلك .

فكيف يقال : من زعم لنفسه الولاية فهو كافر !! وأن الولاية لا تكون إلا لأصحاب الكرامات ! أو لا تكون إلا لمن مات من أصحاب الأضرحة والقباب ومن يقصدهم الناس بالحاجات !!!

* طرق الوصول إلى الولاية : إذا كانت ولاية الله ومحبته هما الغاية التى يسعى إليها كل مؤمن ، فإن الوصول إلى هذه الغاية لا تأتى إلا بأحد طريقتين لا ثالث لهما :

الطريق الأول : طريق الإجتباء ، وهى المذكورة فى الآية الكريمة :

﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾(2)

الطريق الثانى : طريق الإنابة وهى المذكورة فى كمال الآية السابقة :

﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(3)

---

1 - موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٩٥ بتصرف

2 - سورة الشورى الآية : ١٣

3 - تمام الآية السابقة

قال العلامة الشيخ صديق حسن خان : والاجتباء : الاختيار ، والمعنى يختاره لتوحيده والدخول في دينه ، واجتباء العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى لتحصل له أنواع النعم بلا سعى منه .

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١)

أي يوفق لدينه ، ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته ، أو يُقْبِل إلى عبادته (٢)

ويترجم الصوفية هذه المعاني الواردة في الآية الكريمة والتى حددت طريق الوصول إلى محبة الله تعالى وموالاته بقولهم : إن من عباد الله من يسمى مرادا ، وهو المقصود بالاجتباء ، ومنهم من يسمى مريدا ، وهو المقصود بالإنابة . (٣)

وبالنسبة لمعنى الاجتباء نقول : لا شك أن الله سبحانه وتعالى هو المالك المتصرف في الكون وأن له أن يختار من عباده من يشاء ويصطفيه ويفضله على غيره من الخلق ، وقد اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين كما جاء في الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤)

فمن آل ابراهيم من كان نبيا ورسولا ، ومنهم من كان وليا ولم يصل إلى درجة النبوة وهم بقية الصالحين من آل إبراهيم ، ومن آل عمران " مريم بنت عمران " التي ثبت لها الولاية لله عز وجل ، ولم تثبت لها نبوة ولا رسالة .

ومضمون هذه الطريقة أن الله سبحانه وتعالى له أن يختار من عباده من

١ - تمام الآية السابقة
٢ - فتح البيان لصديق خان جـ ٨ ص ٣٦١ بتصرف
٣ - عوارف المعارف للسهروردي ص ٤٨
٤ - سورة آل عمران الآية : ٣٣

يلهمه الصلاح والتقوى والعلم وما إلي ذلك من خصائص أوليائه ، فيبادره بذلك قبل أن يصل إلى مرحلة التكليف والاختيار التى قال الله عز وجل فيها :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(١)

وأما بالنسبة لمعنى الإنابة : فمن المعلوم أن الهداية درجات ، وأن جميع درجات الهداية إنما هى نعم من الله عز وجل على العباد ، فمن نعمه عز وجل على عباده أن يوفقهم للإيمان ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢)

والمؤمنون بعد أن يشتركوا جميعا فى الإيمان ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ، وضحتها آية سورة فاطر ، وسورة الواقعة .

وهم السابقون بالخيرات فى الدنيا ، السابقون إلى الجنة فى الآخرة ، والمقتصدون فى الدنيا ، أصحاب اليمين فى الآخرة ، والظالمون لأنفسهم فى الدنيا بتقصيرهم أو قصورهم هم أقل الدرجات ولاية فى الدنيا ومنزلة فى الآخرة ، لعل قائلا يقول:ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم ؟ فنقول : إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة ، ولهذا حكمت الآية بعد ذكرهم

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾(٣)

والسابقون الذين سلكوا الطريق إلى الله - بعد الإيمان - بأداء الفرائض واجتناب النواهى ، ثم يكثرون من النوافل والبعد عن المتشابهات ، والالتزام بالورع - هم أعلى درجات الولاية بعد الأنبياء .

وسلوك هذا الطريق لابد فيه أن يبتدئ بالتعلم ، وقراءة القرآن ، وحفظ

---

١ - سورة الإنسان الآية : ٣
٢ - سورة الحجرات الآية : ١٧
٣ - سورة فاطر الآية : ٣٣

الحديث الشريف ، ومعرفة الحلال والحرام ، ونحو ذلك من العلوم الضرورية والكمالية .

ولا عبرة بقول من قال : إنه لا يشغل فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل فى تفسيره ولا يكتب الحديث ولا غيره . ولا تكون بهذه الخلوات المبتدعة التى ظنها الصوفية أنها شبيهة بالاعتكاف ، وليست كذلك .

ولا تكون بمجرد الاقتصار على تخلية القلب من كل شاغل له وافراغه من كل ما فيه من الشواغل والأفكار ما عدا ذكر الله ، كما ادعى الشيخ " أبو حامد الغزالى " . [1]

فإن من ظن أن مجرد الخلوة والتجرد من المشاغل الفكرية والبدنية توصل إلى ولاية الله الخاصة التى هى أمل كل مؤمن ، فهذا خطأ لا شك فيه ، إذ لا يقبل الشرع ولا العقل أن ينطوى الانسان على الجهل وينعزل عن العالم ويبتعد عن حلقات الدرس وعن ممارسة الحياة لكى ينتقل من مرحلة الجهل إلى مرحلة خصوصية العلم والولاية دفعة واحدة .

ولا شك أن هذه فكرة غريبة عن الإسلام بدليل أن الإمام الغزالى نفسه الذى شرح هذه الطريقة بدأ ذلك بقوله : وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ... الخ . [2]

فقوله : (زعموا) دليل على أنه غير واثق من صدق هذا القول ، وأنه قول غير مستند إلى أدلة شرعية من الكتاب والسنة .

وكما قالوا : الزعم مطية الكذب ا.هـ . [3]

ومن الولاية إلى الكرامة .

١ - انظر موقف ابن تيمية من التصرف والصوفية ص ١٩٦
٢ - إحياء علوم الدين للغزالى جـ٣ ص١٩
٣ - أنظر موقف ابن تيمية من التصرف والصوفية ص ١٩٦

الكـــرامة

* معنى الكرامة

الكرامة : الاسم من كَرُمَ ، والجمع كرامات ، وهي ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الافضالات ، (وهى عامة وخاصة)

فالعامة : هى ما كَرَّمَ الله به بنى آدم ، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية ، ومن ذلك اعتدال القامة ، والخَلق فى أحسن تقويم ، والعقل ، والمنطق ، وتدبير المعاش واصلاحه ، وتسخير الكون لهم ، والانتفاع به ، إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1]

والخاصة : وهى أفضلهما : ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الايمان ، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات ، وأهلها هم أصحاب اليمين ، المذكورون فى قوله تعالى :

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾[2]

وفى قوله :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾[3]

وهم المقتصدون المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[4]

---

١ - سورة الاسراء الآية : ٧٠

٢ - سورة الواقعة الآية : ٢٧

٣ - سورة الواقعة الآيات ٩٠ ، ٩١

٤ - سورة فاطر الآية : ٣٢

وهم المبشرون بالجنة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

وأخص من هذه الكرامة - كرامة الإيمان والاستقامة - ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الايمان والتقوى ، من الورع ، والتقليل من المباحات ، والاكثار من نوافل العبادات من صلاة ، وصدقات ، ورباط وجهاد ، وصيام ، وحج ، وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين السابقين فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[2]

وفى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[3]

وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخارى « من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه .... » الحديث [4]

فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية ، إذ يعرفون باستقامتهم ، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبونه ، فلو سألوه زوال جبل لزال ، ولو

---

١ - سورة الأحقاف الآيات ١٣ ، ١٤
٢ - سورة الواقعة الآيات ١٠ - ١٤
٣ - سورة فاطر الآيات : ٣٢ ، ٣٣
٤ - سبق تخريجه

أقسموا عليه تعالى لأبرهم ، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل ، وشفاء العليل ، وكإكساب المعدوم ، والإنقاذ من الهلاك المحتوم . [1] أو خوض البحار ، وعدم الاحتراق بالنار ، ونحو ذلك .

ماهية الكرامة : هي ظهور أمر خارق للعادة من قِبَل شخص غير مقارن لدعوى النبوة [2] ويعتمد كثير من الناس على الكرامات كشاهد يثبت وصول صاحبها إلى درجة عظيمة في الولاية لله عز وجل ، ولكن هذا المسلك أدى إلى الخلط بين الأولياء الحقيقيين الذين تحصل لهم كرامات حقيقية ، وبين الأدعياء الدجالين الذين يظهرون بعض المخاريق الشيطانية على أنها كرامات ، وهي ليست كذلك .

وقد نشأ هذا الخلط من اشتراك الكرامة مع غيرها في خرق العادة .

وقد اختلف في جواز خرق العادات من عدمه على آراء كثيرة ، الراجح منها أن خرق العادة جائز ، فكل ما خرق لنبى من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين ، بل ومن السحرة والكهان أيضا ، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدى والإعجاز ، فهذه تكون معجزة للأنبياء ، وإن كانت قبل النبوة فهى الارهاص ، وإن كانت غير مقرونة بالتحدى خالية من دعوى النبوة فهى الكرامة الخاصة بالأولياء ، أو تكون بمعنى المعونة لعامة المؤمنين .

أما إذا كانت فى معرض المعارضة للأنبياء ، فهى الاستدراج للكفار ومن فى حكمهم أو الاهانة لمدعى النبوة من الكذابين . [3]

قال ابن تيمية ما حاصله أن كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء من جنس

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٧٥ ، ١٧٦ بتصرف
٢ - التعريفات للجرجاني ص ١٦١ ط القاهرة ١٣٥٧ هـ
٣ - موقف الامام ابن تيمية من التصرف والصوفية ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ بتصرف

واحد بلا ريب ، ولكن كرامات الصالحين لا تبلغ مثل معجزات الأنبياء والمرسلين ، كما أنهم لا يبلغون فى الفضيلة والثواب إلى درجاتهم ، ولكن قد يشاركونهم فى بعضها كما قد يشاركونهم فى بعض أعمالهم .

والمعول عليه في الشهادة على صدق الأنبياء فى نبوتهم معجزاتهم الكبرى ، وهذه لا يظهر مثلها علي يد أحد ، سواء من المعارضين أو الموالين .

أما التوابع والنوافل التي لا يعتمد عليها استقلالا فى الشهادة على صدق الأنبياء فيجوز أن يظهر مثلها على يد الأولياء كرامة لهم ودلالة على صدق النبى الذى اتبعوه ، وهذا لا يطعن فى صدق الأنبياء بل يؤيده .

أما ما يروى من أمور كبار حدثت علي يد بعض الصحابة - رضى الله عنهم - كما صارت النار بردا وسلاما على أبى مسلم الخولانى ونحو ذلك ، فقد خرجها ابن تيمية ، على أنها ليست مجرد كرامات لهؤلاء الصحابة ، بل هى معجزات النبى المتأخرة عنه بمنزلة الارهاصات التى تتقدم مبعثه . (1)

وبهذا يكون " ابن تيمية " قد وضع قواعد واضحة للتمييز بين المعجزة والكرامة ، فالمعجزة شىء عظيم لا يحدث إلا لنبى دلالة على صدقه ، أما الكرامات فإنها وإن كانت من جنس المعجزات لأن مصدرها واحد هو الله عز وجل ، ولأنها خارق حقيقى للقوانين والنواميس الكونية بقدرة الله ، وليست كالسحر والشعوذة ، كما سيأتى التفريق بينها وبينهم ، إلا أن الكرامة من التوابع والنوافل ، التي لا تصل إلي حد المعجزات الكبرى . (2)

ويشارك " ابن تيمية " المعتزلة فى القول بأن ما حدث من أمور كبيرة على يد الصحابة إنما هو من المعجزات الخاصة بنبى هذه الأمة وإن جرى على يد تابعه ، فلا يصح ضمه إلى جملة الكرامات ، إلا ان المعتزلة تعمم ذلك فى

1 - النبوات لابن تيمية ص ٢ - ٤ بتصرف .
٢ - موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣١ بتصرف

كل ما يحدث من خوارق للأولياء وتتخذ من ذلك ذريعة لمنع الكرامات ، أما " ابن تيمية " فيخصصه بما كان منها فى درجة المعجزات التى جرت للأنبياء فعلا .

ولقد رد ابن تيمية على المعتزلة انكارهم للخوارق عدى المعجزات ، بأن هذه موجودة مشهورة لمن شهدها ، متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء .

الفرق بين الكرامات وغيرها من أنواع السحر والشعوذة

يستتبع موضوع البحث فى الكرامة من جهة ثبوتها ومنزلتها بالنسبة للمعجزة أن نميز بينها وبين السحر والشعوذة ، ونكتفى هنا بما بذله " ابن تيمية " من جهد مشكور لإظهار الفرق بين الكرامة وبين السحر والشعوذة ، بشكل لم أجد له مثيلا فى الدقة والوضوح عند غيره .

فابن تيمية يتخذ من النبوة أساسا للتمييز بين ما يسمى معجزات وكرامات وبين ما يسمى سحر أو شعوذة وكهانة .

فآيات الأنبياء وبراهينهم ، ومنها كرامات الصالحين ... لا توجد إلا مع النبوة والايمان بها ، ولا توجد مع ما يناقضها أبدا .

أما خوارق الكهان والسحرة والمشعوذين فلا توجد الا مع ما يناقض النبوة ، لأن السحر والكهانة والشعوذة تناقض النبوة بلا شك .

والناس رجلان : رجل موافق للأنبياء ، ورجل مخالف لهم ، فالمخالف مناقض ، وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر ، بل وعن مقدور جنس الحيوان .

وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان

مقدور لجنس الحيوان أو الجان أو الإنسان ، فآيات الأنبياء ، وكرامات الأولياء مما لا يختص غير الرب بالقدرة عليه لأن فيه خرقا حقيقيا للقوانين الكونية قد يصل إلى تغيير جنس إلى جنس آخر .

أما خوارق الكهان وغيرهم فهى لا تصل إلى هذا الحد ، بل لا تتعدى ما هو فى مقدور الإنس أو الجن ، فهى إما تَصَرُفٌ في أعراض الحى بالحركة أو الموت أو المرض أو إخبار بأمور غائبة عمن أخبر بها ، بينما هى لا تكون غيبا بالنسبة لمن حضرها من الجن الذين ينقلونها مع الكذب فيها .

وأما ما يخبر به الرسل من الأمور البعيدة والكبيرة مفصلا فهذا لا يقدر عليه جن ولا إنس . والحاصل أن ابن تيمية ينبه إلى أن خوارق السحرة والكهان والمشعوذين ليست فى الحقيقة إلا أمور مقدورة لبعض المخلوقات دون البعض الآخر .

بينما لا تكون آيات الأنبياء وما فى حكمها ككرامات الصالحين من هذا القبيل مطلقا .

* وأخيرا يمكن أن يقال : إن الكرامات مسألة دينية لا يقف فى سبيلها اعتراض ولا إبطال . فقد كان العمدة فى إبطالها التباسها بالمعجزات فكان في إثباتها تشويش على معجزات الأنبياء وطعن فى صدق دعواهم أو اشتباهها بالسحر والكهانة ، ولكن بما حققه الامام ابن تيمية اندفع هذا الاشكال بشكل حاسم .

وفوق هذا كله انتفاء المانع من الكرامات فقد ثبت بما يشبه التواتر كرامات كثيرة لكثير من الصالحين فى العصر الأول ، وما يليه عن الثقات الذين لا يتطرق إلى رواياتهم الشك ولا التكذيب .[1]

---

١ - موقف ابن تيمية من التصرف والصوفية ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

* نماذج من الكرامات عند أهل الحق :

نقل ابن تيمية : فى رسالته " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " وغيرها ، كثيرا من الروايات الصحيحة التى تذكر أنواعا من الكرامات للأولياء الصالحين .ومنها :-

* ما حدث للأنبياء والمرسلين من معجزات هو لهم من الله كرامة ، فإن كانت مقترنة بالتحدى فهى المعجزة قولا واحداً ، وأما إن كانت غير مقرونة بالتحدى والاعجاز فهي وإن كانت فى ظاهر الأمر معجزة ، الا أنها إلي الكرامة أقرب ، إذ ليس فيها تحدى أو إعجاز ، كما هو شأن المعجزة ، وذلك لأنها تبعا لولاية النبى ، إذ - كما عرفت - كل نبى ورسول ولي ، وليس كل ولى نبيا أو رسولا ، وكل رسول نبى ولى ، وليس كل نبي رسولا ، فالرسول نبى ولي ، ورسالته متضمنة لنبوته ، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد انباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حالة إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا وليا لله ، ولا تكون مجردة عن ولايته ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول في ولايته . (١)

فأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولوا العزم ، وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وسيد ولد آدم أجمعين . (٢)

* ومن ذلك ما حدث للنبى محمد صلى الله عليه وسلم : مثل تسبيح الحصى فى كفه وإتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة ، كما أشبعَ فى الخندق العسكرَ من قدْر طعام وهو لم ينقص . فى حديث أم سلمة المشهور ، ورَوَىَ العسكرَ فى غزوة خيبر من مزادة ماء ولم ينقص ، وهم نحو ثلاثين ألفا ، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه كما كانوا فى غزوة الحديبية نحو

---

١ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٥٣ بتصرف

٢ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٦ ، ٧ بتصرف

ألف وأربعمائة أو خمسمائة ، ورده لعين "أبى قتادة" حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه ، ولما أَرسَلَ "محمد بن مسلمة" لقتل " كعب بن الأشرف " فوقع فانكسرت رجله فمسحها فبرئت ، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلا كلا منهم حز له قطعة ، وجعل منها قطعتين ، فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضله ، ومثل هذا كثير [1] ا . هـ . [2]

* ومثاله ما حدث لبقية إخوانه من الأنبياء ، كما امتن الله عز وجل علي "الخليل ابراهيم" عليه السلام ، بالنجاة من النار ، وإكرامه بإنجاب الولد بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، فضلا عن عقم زوجه ، وكذلك ما أكرم الله به "زكريا" عليه السلام من الولد بعد كبر سنه ، ومع عقم زوجه أيضا .

وما أكرم الله به "يونس" عليه السلام بإخراجه من بطن الحوت ، وما منَّ الله به على "يوسف" عليه السلام فنجاه الله من كيد إخوته ، ومن مكر امرأة العزيز ، ومن كيد نسوة المدينة ، فصرف عنه السوء والفحشاء ، وما أكرم الله به "مريم البتول " من الرزق الذى جاءها بغير أسباب ، وتساقط الرطب الجنى عليها بشىء من الأسباب ، ونطق "عيسى" عليه السلام فى المهد ليبرئها من اتهام اليهود ، وما حدث لأهل الكهف من آيات كانت عجبا ، وبعثهم بعد نومهم بسنين عددا ، وما وقع لعزير إذ دخل القرية الخاوية على عروشها ، فحدثت له آية عجيبة ، كما ذكر ذلك فى القرآن مفصلا . [3]

* وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم ، وسائر الصالحين كثيرة جدا ، مثل :

* ما حدث لأبى بكر رضى الله عنه لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها ، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته ، فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها

---

١ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٨٧ ، ٨٨ بتصرف

٢ - راجع نصوص الأحاديث فى الصحاح

٣ - راجع الايات بنصها وشروحها

إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء اليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا [1]

* وما حدث لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنه كان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فإذا به يقول : يا ساريةُ ، الجبلَ ، يا ساريةُ ، الجبلَ - يوجه قائد معركة يقال له : سارية - فسمع سارية صوته ، وانحاز بالجيش إلى الجبل ، فكان في ذلك نصرهم ، وانهزام أعدائهم من المشركين ، ورجع سارية فأخبر عمر والصحابة بما سمع من صوت عمر رضى الله عنه . [2]

وعمر رضي الله عنه ، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « قد كان فى الأمم قبلكم مُحَدَّثونَ ، فإن يكن فى أمتى أحد "فعُمَرُ" منهم » [3] وقال صلى الله عليه وسلم : « لو لم أبعث فيكم لَبُعِثَ عمر » وفى حديث آخر : « بأن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه » [4] وأيضا : « لو كان نبى بعدى لكان عمر » وكان "على بن أبى طالب" رضى الله عنه يقول : ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر . وقال ابن عمر : ما كان عمر يقول لشىء : « إنى لأراه كذا ، إلا كان كما يقول » ، وعن قيس بن طارق قال : « كنا نتحدث أن عمر نطق على لسانه ملك . » [5]

* وكان عمر يقول : « اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة . »

وهذه الأمور الصادقة التى أخبر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هى الأمور التى يكشفها الله عز وجل لهم . فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ، وأفضل هؤلاء فى هذه الأمة بعد "أبى بكر" عمر بن الخطاب رضى الله عنهما " . فإن خير هذه الأمة بعد نبيها "أبو

---

١ - متفق عليه
٢ - الفرقان ص ٣٧
٣ - متفق عليه
٤ - رواه الترمذى وغيره
٥ - الفرقان - ص ٣٧ بتصرف .

بكر" و"عمر" . [1] وكم من مرة يوافق عمر رضى الله عنه فيها القرآن ، فيدل على أنه محدَّث فى هذه الأمة ، ومع هذا فليس هو بمعصوم رضى الله عنه ، فقد خالف النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية ، وأنكر موت النبى صلى الله عليه وسلم ثم رجع عنه ، وخالف الصديق فى قتال مانعى الزكاة ثم عدل عنه .

* وقال عثمان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل ، ودخل عليه رضى الله عنه رجلان فقال : مالى أرى فى أعينكما أثر الزنا ، وقد نظرا إلى امرأة أجنبية قبل الدخول عليه ، ثم قالا : أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! قال : لا ، ولكن سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » [2] وقد تقدم الحديث الصحيح الذى فى البخارى وغيره قال فيه : « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت ، أكره مساءته ولابد له منه . »

* وما أوتى "على" رضى الله عنه من قوة فى فتح حصن خيبر ، وقد كان بعينيه رمد ، فبرأ منه بإذن الله ، وما قاله صلى الله عليه وسلم : « إن لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرهم » [3] وفى قوله صلى الله عليه وسلم « كانت امرأة ترضع ولدها ، فرأت رجلا على فرس فاره ، فقالت : اللهم اجعل ولدى مثل هذا ، فالتفت إليه الطفل وهو يرضع ، وقال : اللهم لا تجعلنى مثله [4] فنطق الرضيع كرامة للولد والوالد .

وفى قوله فى جريج العابد وأمه ، إذ قالت أمه : « اللهم لا تمته حتى تريه

---

١ – الفرقان ص ٣٧ بتصرف
٢ – رواه الترمذى وقال حديث حسن
٣ – متفق عليه
٤ – متفق عليه

وجوه المومسات » - أى الزانيات - فاستجاب الله لها كرامة منه تعالى لها ، وقال ولدها جريج لما اتهموه بأن ولد البغى منه ، قال للولد الرضيع : من أبوك ؟ فقال : راعى الغنم ، فنطق الرضيع كرامة لجريج العابد ، وقال عن نفسه وهم يبتسم : « أصابتنى دعوة أمى » [1] وقوله صلى الله عليه وسلم في أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله وتوسلوا إليه بصالح أعمالهم ، فاستجاب الله لهم وفرجها عنهم حتى خرجوا سالمين كرامة لهم . [2]

وقوله فى حديث الراهب والغلام ، إذ جاء فيه : أن الغلام رمى الدابة التى كانت قد منعت الجماهير من المرور بحَجَرٍ فماتت ، ومر الناس ، فكانت كرامة للغلام ، كما أن الملك حاول قتل الغلام بشتى الوسائل فلم يفلح حتى رماه من جبل شاهق ولم يمت ، وقذفه فى البحر فخرج منه يمشى ، فكان ذلك كرامة للغلام المؤمن الصالح . [3]

* ومن أمثلة الصحابة رضى الله عنهم أيضا : أن الملائكة كانت تسلم على "عمران بن حصين" رضى الله عنه ، وأن "سلمان الفارسى" و"أبا الدرداء" رضى الله عنهما كانا يأكلان فى صحفة فسبحت الصحفة أو الطعام فيها ، وهذا مما يشهد له قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[4]

وأن "خبيبا" رضى الله عنه كان أسيرا عند المشركين بمكة ، فكان يؤتى بعنب يأكله ، وليس بمكة من عنب . وهذا يشهد له قوله تعالى :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[5]

---

١ - أخرجه البخارى
٢ - متفق عليه
٣ - أخرجه البخارى
٤ - سورة الاسراء الآية : ٤٤
٥ - سورة آل عمران الآية : ٣٧

وأن "البراء بن عازب" رضى الله عنه كان إذا أقسم على الله فى شىء استجاب الله له حتى كان يوم القادسية أقسم على الله أن يُمَكِنَ المسلمين من رقاب المشركين ، وأن يكون أول شهيد فى المعركة فكان كما طلب . ويشهد له حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله ، من لو أقسم على الله لأبره » . (١)

وأن "العلاء بن الحضرمى" رضى الله عنه كان يقول فى دعائه : يا عليم يا حكيم يا عظيم ، فيستجاب له حتى إنه خاض البحر بسرية معه ، فلم تبتل سروج خيولهم . (٢)

وأن " الحسن البصرى " دعا الله على رجل كان يؤذيه ، فخر ميتا فى الحال .

وأن " عامر بن فهيرة " قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع ، فرآه " عامر بن الطفيل " وقد رفع ، وقال عروة : فيرون الملائكة رفعته .

وخرجت "أم أيمن" مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفِطْرِ وكانت صائمة ، سمعت حسا على رأسها فرفعته ، فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت ، وما عطشت بقية عمرها .

" وسفينة " مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرالأسد بأنه رُسُولُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

" وسعد بن أبى وقاص " كان مستجاب الدعوة ، ما دعا قط إلا استجاب له ، وهو الذى هزم جنود كسرى وفتح العراق .

" وخالد بن الوليد " حاصر حصنا منيعا ، فقالوا : لا نُسْلِمُ حتى تشربَ السُمَّ ، فشربه فلم يضره .

---

١ - متفق عليه
٢ - صحيح

ولما عذبت " الزبيرة " على الإسلام فى الله ، فأبت الا الإسلام ، وذهب بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلا والله . فرد الله عليها بصرها . [1]

* ومنها أن أسيد بن حضير " رضى الله عنه " كان يقرأ سورة الكهف ، فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج ، وهى الملائكة نزلت لقراءته [2] ويؤيد هذه الرواية قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [3]

* وأن " عباد بن بشر " و" أسيد بن حضير " خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما . [4]

* ودعا " سعيد بن زيد " على أروى بنت الحكم ، فأعمى الله بصرها ، لما كذبت عليه ، فقال : اللهم إذا كانت كاذبة فأعْمِ بصرها ، واقتلها فى أرضها ، فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها فماتت .

* وما جرى لأبى مسلم الخولانى الذى أُلقى في النار ، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجله وهى ترمى بالخشب من مدها ، ثم التفت إلى

---

١ - راجع / الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٨٨ - ٩٠ بتصرف ، وموقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ بتصرف . ومنهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى ص ٦١ - ٦٣ بتصرف

٢ - البخارى ٣ - سورة فصلت الآية : ٣٠.

٤ - صحيح البخارى : باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر جـ ٢ ص ٣١٣

أصحابه فقال : تنقدون من متاعكم شيئا حتى أدعوا الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال : اتبعنى ، فوجدها قد تعلقت بشىء فأخذها . وطلبه الأسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقي فيها ، فوجده قائما يصلى فيها ، وقد صارت عليه بردا وسلاما . وقَدِمَ المدينة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله ، ووضعت له جاريته السم فى طعامه فلم يضره ، وخببت امرأة عليه زوجته ، فدعا عليها فعميت ، وجاءت وتابت ، فدعا لها ، فرد الله عليه بصرها . [1]

* هذا وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله مزيدا من تلك الكرامات التى صحت والتى تتفق مع ما قرره الدين ، قال ، وهذا باب واسع ، وقد بُسِطَ الكلام على كرامات الأولياء فى غير هذا الموضع . [2]

ويقول : وأما ما نعرفه نحن عيانا ونعرفه فى هذا الزمان فكثير ، ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج الرجل إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج ، أتاه منها ما يقوى إيمانه ، ويسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها ، لا لنقص ولايته . ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة بخلاف من يجرى على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة . [3]

---

١ - أغلب هذه الكرامات فى الصحيح والسنن الصحيحة والآثار المنقولة المتواترة .

٢ - راجع بتوسع : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وكذلك مجموعة الفتاوى ، كلها لابن تيمية .

٣ - الفرقان ص ١٧٩ بتصرف .

* كما يعلم أن هذه الكرامات التى يظهرها الله على يد بعض أوليائه ليست شرطا فى ثبوت الولاية ، ولا فى نفيها ، ولما كانت تنقص من درجة من يظـهرها اللـه تـعالى على يـديه ، لأنهـا بمـثابة تعـجل الجزاء على الايمـان والتـقوى فى الدنـيا ، كان بعـض الأولـياء يتوبـون منـها إلى الله تعـالى ، ويستـغفرون لأجلها .[1]

* وهذه الكرامات - التى ذكرناها - بخلاف الأحوال الشيطانية . مثل :

حال " عبد الله بن الصيـاد " الذى ظـهر فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال ، وتوقف النبى صلى الله عليه وسلم فى أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال . لكنه كان من جنس الكهان ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم . قد خبأت لك خبأ ، فقال : الدخ الدخ . وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبى ﷺ : « اخسأ فلن تعدو قدرك » يعنى إنما أنت من إخوان الكهان ، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب ، كما هو فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسرق الشياطين السمع فتوجه إلى الكهان فيكذبوا معها مائة كذبه من عند أنفسهم » .

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من الأنصار ، إذ رُمِىَ بنجم فاستنار ، فقال النبى صـلى الله عليه وسلم : ما كنـتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم ، ويولد عظيم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٧٩ بتصرف .

وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء والذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسألون أهل السماء السابعة وحملة العرش ماذا قال ربنا ؟ فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ، وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون . وفى رواية : قال معمر : قلت للزهرى : أكان يُرْمَىَ بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكنها أغلظت حين بُعِثَ النبى صلى الله عليه وسلم .

* والأسود العنسى الذى ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور الغيبية، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين كفره فقتلوه .

وكذلك " مسيلمة الكذاب " كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور ، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل " الحارث الدمشقى " الذى خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة ، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يُرِى الناس رجالا وركبانا على خيل فى الهواء ، ويقول : هى الملائكة ، وإنما كانوا جنا ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنك لم تسم الله ، فسمى الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسى ، فإنه قد ثبت فى الحديث الصحيح فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه لما وكله النبى صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر ، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه ، فيقول له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما فعل أسيرك البارحة » فيقول : زعم أنه لا يعود ، فيقول : « كذبك وإنه سيعود » فلما كان فى المرة الثالثة قال : دعنى

حتى أعلمك ما ينفعك ، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾

إلى آخرها ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صدقك وهو كذوب » وأخبره أنه شيطان ، ولهذا إذا قرأها الانسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطانى ، أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاما ولا يُعْلَم وربما لا يُفْقَه ، وربما كاشف بعض الحاضرين بما فى قلبه ، وربما تكلم بألسنة مختلفة ، كما يتكلم الجن على لسان المصروع ، والانسان الذى حصل له الحال لا يدرى بذلك بمنزله المصروع الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ولبسه وتكلم على لسانه ، فإذا أفاق لم يشعر بشىء مما قال ، ولهذا قد يضرب المصروع وذلك الضرب لا يؤثر فى الإنس ، ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشىء لأن الضرب كان على الجن الذى لبسه .

ومن هؤلاء من يأتيه بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون فى ذلك الموضع ، ومنهم من يطير بهم الجن إلى مكة ، أو بيت المقدس أو غيرها ، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجا شرعيا ، بل يذهب بثيابه ، ولا يحرم إذا حاذى الميقات ، ولا يلبى ، ولا يقف بمزدلفة ، ولا يطوف بالبيت ، ولا يسعى بين الصفا والمروة ، ولا يرمى الجمار ، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته ، وهذا ليس بحج كمن فعل ذلك ، فقال ألا تكتبونى ؟ فقالوا : لست من الحجاج ، يعنى حجا شرعيا .

* وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة :-

منها : أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى ، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله . كما تحصل بما يحبه الشيطان ، وبالأمور

التى فيها شرك كالإستغاثة بالمخلوقات ، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش ، فهى من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية .

ومن هؤلاء مَنْ إذا حضر سماع المكاء والتصدية ، يتنزل عليه الشيطان حتى يحمله فى الهواء ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط ، كما جرى هذا لغير واحد .

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق ، إما حى أو ميت سواء كان ذلك الحى مسلما أو نصرانيا أو مشركا ، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ، ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث ، فيظن أنه ذلك الشخص ، أو هو ملك على صورته ، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين . ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له :أنا الخضر ، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب ، يموت لهم الميت فيأتى الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك ويقضى الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت ، ويدخل إلى زوجته ويذهب ، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند ، فيظنون أنه عاش بعد موته ، ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه ، فقال : إذا أنا مت فلا تدع أحدا يغسلنى ، فأنا اجىء وأُغَسِّلُ نفسى ، فلما مات رأى خادمه شخصا في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغَسَّلَ نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله أى غسل الميت غاب ، وكان ذلك شيطانا ، وكان قد أضل الميت ، وقال : إنك بعد الموت تجىء فتغسل نفسك ، فلما مات جاء أيضا في صورته ليغوى الأحياء كما أغوى الميت من قبل ذلك .

ومنهم من يرى عرشا فى الهواء وفوقه نور ويسمع من يخاطبه ويقول : أنا ربك ، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره ، واستعاذ بالله منه ،

فيزول . ومنهم من يرى أشخاصا فى اليقظة يدعى أحدهم أنه نبى أو صديق أو شيخ من الصالحين . وقد جرى هذا لغير واحد . ومنهم من يرى فى منامه أن بعض الأكابر إما الصديق رضى الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه وألبسه طاقيته أوثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر ، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه .

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة ، وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ ، فإن كان الانس كافرا أو فاسقا أو جاهلا دخلوا معه فى الكفر والفسوق والضلال .. وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم ، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص ، أو آية الكرسى أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء ، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر ، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبى إما فى الهواء وإما مدفوعا ملجأ إليه ، إلى أمثال هذه الأمور التى يطول وصفها . والايمان بها إيمان بالجبت والطاغوت ، والجبت السحر ، والطاغوت الشياطين والأصنام ، وإن كان الرجل مطيعا لله ورسوله باطنا وظاهرا لم يمكنهم الدخول معه فى ذلك أو مسالمته . (1)

فكرامات أولياء الله لابد أن يكون سببها الايمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله ، لا من كرامات أولياء الله ، وإنما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت والغائب ، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ، ومثل الغناء والرقص لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان .

---

١ - أنظر بتوسع / الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشياطين : ٩٤ - ١٠٠

وحالة خوارقه تنقص عن سماع القرآن ، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان ، فيرقص ليلا طويلا فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا ، أو ينقر الصلاة نقر الديك ، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ، ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد .

فهذه أحوال شيطانية ، وهو ممن يتناوله قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (١)

فالقرآن هو ذكر الرحمن قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (٢)

يعنى تركت العمل بها ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية ا . هـ . (٣)

الفرق بين الولى الصادق والدعى الكاذب

ومما يتعلق بتمييز الكرامة عن غيرها من خوارق العادات ، التمييز بين الولى الذى يجوز أن تحدث له الكرامة وبين من هو أعلى منه منزلة وهو النبى ، أو من يدعى مثل منزلته كذبا وبهتانا وهو المشعوذ والساحر وغيرهم .

فأما الفرق بين النبى والولى من جهة الخارق الذى يجرى على يد كل منهما ، فقد علمنا أن النبى تجرى على يده المعجزات وهى نوعان سماها "ابن تيمية" " معجزات كبرى " وهى دليل صدقه، ونوع من التوابع والنوافل سماها " معجزات صغرى " .

---

١ - سورة الزخرف الآية : ٣٦
٢ - سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦
٣ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ١٠٧ - ١١٠

والولى تحدث على يده الكرامات وقد تشتبه بالمعجزات الصغرى أو تماثلها ولكن النبى يختص بالعصمة دون الولى ، فالمعجزة للنبى دليل على عصمته من الخطأ فيما أرسل من أجله وهو التشريع .

أما الولى فكرامته إنما تدل علي صدق النبى الذى آمن به هذا الولى واتبعه فى شريعته ، ولا تدل بحال على عصمته هو أن يخطئ فى بعض أعماله أو عبادته أو توجيهاته لأنه لم يُرسَل ويُصْطَفى من الله عز وجل لهذا الغرض كالنبى وإنما هو مجتهد فيه ، أما النبى فقد اصطفاه الله من عباده لهذا الغرض .

ومن هنا وجبت طاعة النبى مطلقا ، بينما لا تجب طاعة الولى مطلقا إلا فيما عليه دليل شرعى واضح ، وفارق آخر بين المعجزة والكرامة هو أن الكرامة تحدث بحسب حاجة الولى ، فإذا احتاج إليها لتقوية إيمانه جاءه منها ما يكفيه لتقوية إيمانه أو احتاج إليها لفك ضيق عليه أو على من يدعو له جاءه من ذلك ما يفرج كربته ، ويجيب دعاءه ، بخلاف المعجزات فإنها لا تكون إلا لحاجة الخلق وهدايتهم . (١)

ويقول شيخ الإسلام " ابن تيمية " ما نصه : وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذى جاء به الرسول ، ولا تدل علي أن الولى معصوم ولا على أنه يجب طاعته فى كل ما يقوله .

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم ، فإن الحواريين مثلا كانت لهم الكرامات كما تكون الكرامات لصالحى هذه الأمة ، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء ، فصاروا يوجبون موافقتهم فى كل ما يقولون ، وهذا خطأ . (٢)

---

١ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ص ٧٧

٢ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ص ٢٩

والحقيقة أن كثيرا من المسلمين أيضا قد وقع فيما وقع فيه النصارى من الخطأ الذى ذكره ابن تيمية ، فمجرد أن يشتهر شخص بشئ من الكرامات ترتفع درجة الثقة فى أقواله وتوجيهاته وآوامره ونواهيه إلى حد أن أكثر الناس لا يقبل فيها جدلا بتاتا ولا يعرضها على ما جاء فى الكتاب والسنة ، أو لربما كان الرجل واهما فى بعض أموره ولم يتحقق من صحتها مع صلاح نيته ولكن هذا الصلاح فيه لا يوجب اقراره على الخطأ إذا علم فيه ، كما لا يمنع من الرد عليه إذا لزم الأمر .

ولكننا إذا رجعنا إلى الصوفية نجد أن كثيرا منهم يقيسون منزلة الولى الدينية بمقدار ما يجرى على يديه من كرامات ، ومن هنا نجدهم يتسابقون فى تخصيص كل واحد من مشائخهم بنوع من الكرامات لا ينافسه فيه غيره كاختصاص الرفاعية بإمساك الثعابين ، وعدم التأثر بسمها .. الخ [1]

وقد وصل الأمر ببعضهم إلى أمور لا يجوز أن تحدث لنبى من الأنبياء فضلا عن الولى ، كما يحكى الشعرانى عن على الخواص أنه كان محل كشفه اللوح المحفوظ . [2]

فهذا وإن كان محض افتراء ممن قال به ، وتكذبه الآيات القرآنية ، كقوله تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [3]

لكن هذا الافتراء يبين لنا مدى ما وصل إليه حال بعض الصوفية

---

١ - أقطاب التصوف الثلاثة - صلاح عزام : ص ٢٩

٢ - طبقات الصوفية للشعرانى : جـ ٢ - ص ١٣٥

٣ - سورة الجن الآيات : ٢٦ ، ٢٧

مـن اعتـماد على الكرامـات كوسيـلة توصـلهم إلى درجة مرمـوقة من الولاية عند الجماهير .

وما كانت مثل هذه الأمور لتنطلى على بعض المسلمين لولا اشتباه الأمر عندهم فى خصائص الأولياء ، بحيث اعتقدوا أن من تحدث على يديه الكرامات يكون معصوما كأنه من الأنبياء ، فكل ما يقوله أو يأمر به يجب تصديقه وطاعته فيه .

وأما تمييز الولى الصادق الذى قد تجرى على يديه الكرامات من الدعى الكاذب الذى يموه على الناس ويخدعهم ، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه من قيامه بالفرائض والنوافل واتقائه الكبائر والصغائر ، واتصافه بالصفات الكريمة واستدامته عليها ، فإن اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة وعُرِفَت عنه ثم حدث على يديه شىء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم كرامة . أما إن كان الرجل على خلاف ذلك مشتهرا بالفسق والفساد والضلال وغير ذلك ، فإن كل ما يجرى على يديه لا يعتد به ، بالغا ما بلغ ، والله أعلم . [1]

---

١ - موقف الامام ابن تيمية من التصرف والصوفية ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

٣ - توحيد الذات والأسماء والصفات

(أ) ماذا نعني بتوحيد الذات ؟

إن الله عز وجل واحد فى ذاته ، ليس متعددا ، ولا متجزءا أو مركبا من أجزاء ، وهو رد علي ضلالة المشركين ، الذين عبدوا آلهة متعددة في صورة الأصنام أو الكواكب ، أو طواغيت البشر أو مردة الجن والشياطين ، كما أسلفنا . وهو رد على كفر اليهود ، إذ زعموا أن " عزيرا " ابن الله ، وعبدوه من دون الله ، كما هو رد على شرك النصارى ، إذ جعلوا عيسى ابنا لله - مرة وجعلوه هو الله ثانية ، وثالث ثلاثة ، وغير ذلك ..

وقد رد القرآن العظيم على هذه الفرية بقوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[١]

وقوله سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

---

١ - سورة التوبة الآية ٣

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ. قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1]

وذلك كما وضحنا سابقا .

وكذلك هو رد على بهتان فلاسفة الصوفية الذين يؤمنون بوحدة الوجود أو الاتحاد والحلول ، ومعنى وحدة الوجود ، الاعتقاد بأن الوجود وحدة واحدة يتحد بها المخلوق مع الخالق ، والمخلوق صورة للخالق ، والخالق مظهره هم الخلق ، فالحقيقة واحدة ، وظاهرها الكثرة ، أو الموجود واحد فى الحقيقة ، وكل ما نراه ليس إلا مظاهر للذات الإلهية ، وأما الاتحاد والحلول ، فهو بمعنى وحدة الوجود ، إذ هما وجهان لعملة واحدة ، وأما الفرق بينهما أو الخصوص فيهما : أن وحدة الوجود هى الاعتقاد بأن الله لا ينفصل عن مظاهر خلقه ، فهو - سبحانه وتعالى عما يقولون - هو الوجود الحق ، وهو العدم الصرف ، وهو الخالق وهو المخلوق ، وهو عين كل كائن ، وصفاته عين صفات كل موجود وكل معدوم ، وهو المؤمن وهو الكافر ، وهو الموحد الخالص التوحيد ، وهو المشرك الأصم الوثنية ، وهو الجماد الغليظ ، وهو الحيوان ذو المشاعر المرهفة والحساسية المتوقدة ، وهو الملاك الساجد تحت العرش ، وهو الشيطان الذى يصرخ فى سقر ، هو القديس ، وهو العربيد ، هو الراهبة وهو الغانية ، هو النور وهو الظلام .. تلك بعض خصائصه وصفاته .

وأما الاتحاد والحلول فهو الاعتقاد بأن الله قائم بذاته ، ولكنه يحل فى الإنسان ويتحد فيما شاء أو بأى شيء .. وأصحاب هذا المذهب هم فلاسفة المتصوفة ، ويتزعمهم : " ابن عربى " و " الحلاج " و " ابن الفارض " وكذلك " عبد الكريم الجيلى " و " ابن عامر البصرى " و " النابلسى " و " الدمرداش "

١ - سورة المائدة الآيات ٧٢ - ٧٦

و " ابن عجيبة " .. وغيرهم ، وهؤلاء هم المتفلسفة الذين انتسبوا إلى التصوف وهم فى الحقيقة إنما يصوغون مبادئ ومذاهب فلسفية غريبة عن الإسلام ، سبق وجودها فى أديان ومذاهب قديمة يونانية وبرهمية وغير ذلك .. فصاغوا كل ذلك بعبارات صوفية ، فخرجوا بالتصوف إلى منزلق الكفر والإلحاد .

ومن أقوالهم وأشعارهم :

يقول ابن عربى : فيحمـدنى وأحمـده ويعـبدنى واعـبده

ويقـول : العبـد رب والـرب عـبد يا ليت شعرى من المكلف

إن قلت عبد فذاك حق أو قلـت رب أنى يكـلف

كما قال : « إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا غير الله » .. « إن العارف من يرى الحق "الله" فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء .

ويقول الحلاج : « ما فى الجبة إلا الله » ويقول :

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا فى خلقه ظاهراً فى صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

ويقول كذلك : أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

أما ابن الفارض ، فاقرأ - إن شئت - تأيته ، لتعلم من هو " سلطان العاشقين !! " إذ لا يتسع المجال هنا لذكر شىء منها ، واقرأ كتاب " الإنسان الكامل " لعبد الكريم الجيلى ، وانظر " مراتب التوحيد " من كتاب " إحياء

علوم الدين " للشيخ أبى حامد الغزالى .. وغير ذلك من كتب المتصوفة ، التى تطفح بهذا السم الناقع ، والكفر الصارخ .. [1]

* إن هذا المذهب الباطل - شديد البطلان والكفر - الذى تبناه فلاسفة المتصوفة والذى تظهر آثاره فى كل كتب الصوفية وأذكارهم وأورادهم ، ومنه " وانشلنى من أوحال التوحيد ، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها .. " هذا المذهب يترتب عليه أنه لا فارق بين الخالق والمخلوق ، ومن ثم يجب عبادة كل شىء ، لأنه ما من شىء إلا ثَم هو الله ، ولذلك لا حرج في عبادة الأصنام والبشر والبقر ، وكل شىء ، وما كفر من كفر من عبدة الأصنام والبشر والأبقار الا لتخصيصهم عبادة شىء دون شىء فاليهود كفروا لأنهم عبدوا العجل فقط ، والنصارى كفروا لأنهم عبدوا ثلاثة أقانيم فحسب ، وكذلك المشركون لأنهم عبدوا الأصنام فقط ، ولو عبدوا كل شىء ما كفروا ، ومع ذلك فهم عرفوا ما لم يعرفه غيرهم ، وفطنوا إلى ما لم يفقهه سواهم ..

بل إن أصحاب هذه النظرية الباطلة ، القذرة الكافرة ، تطاولوا على أنبياء الله ، فزعموا كما زعم كبيرهم - ابن عربى - أن "فرعون" لعنه الله عرف ما لم يعرفه موسى عليه والسلام ، ساعة أن قال - أى فرعون - "أنا ربكم الأعلى" ، وكذلك فقه " النمرود " ما لم يفقهه " إبراهيم " عليه السلام ، وعلم اليهود - إذ عبدوا العجل - ما لم يعلمه موسى ولا هارون ، فكانوا أفضل معرفة منهما ، وكذلك فطن عبدة الأصنام إلى ما لم يفطن إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فيا للعجب ..

---

١ - يلاحظ الاختصار المخل في عرض هذه النظرية ، بما يتفق مع المنهج الدراسى والكتاب المقرر ، وإذا أردت ذكر المراجع ، مع مزيد من التفصيل فى تلك الضلالة ، فراجع كتابنا " شبهات المتصوفة " تجد فيه ما يكفيك إن شاء الله

ويترتب على هذه النظرية الكافرة أن الله سبحانه وتعالى - يولد فى كل لحظة آلاف المرات ، ويموت فى كل لحظة آلاف المرات ، وأنه يموت بعض خلقه ، يفنى بعضه ، ويموتهم يموت معهم ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ..

ويترتب على مذهبهم الإلحادى أنه لا فرق بين حق وباطل ، أو إسلام وكفر ، إذ لابد من وحدة الأديان فى ظاهرة الفلسفة ، ما دام جميع المشركين والوثنيين على حق ، لأنه من عبد صنما أو حجرا أو شجرا أو إنسانا أو كوكبا فقد عبد الله .. فما قيمة هذا الدين الإسلامى ، وما فائدة القرآن ، ولماذا نزل هذا الكتاب ، وجاء هذا الدين ؟؟

كيف نصدق - يا قوم - بأن الحق هو الخلق ، أو أن الخلق هم الحق ؟؟

كيف نصدق أن السيف الذى يقطع به رأس الكافر هو الكافر ؟ أو أن الكافر هو السيف ؟ وأن الكثرة وهم خيال .. ؟ !!

واعلم - أخا الاسلام - أن المذهب إذا كان باطلا فى نفسه لا يمكن للناقد له أن ينقله على وجه يتصوره تصورا حقيقيا ، فإن هذا لا يكون إلا للحق ، فأما القول الباطل فإذا بُيْن ، فبيانه يظهر فساده ، حتى يقال : كيف يشتبه هذا على أحد ؟ [1] لقد آمنا بالله وكفرنا بما كانوا به مشركين ... وصدقنا بكتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم .. وأيقنا - كما قال الله :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [2]

---

١ - راجع فى هذا " هذه هى الصوفية " والفتوحات المكية ، ومصرع التصوف ، وحقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة ، وفصوص الحكم ، والطواسين ، وتاريخ بغداد ، وجامع الرسائل ، وموقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ، وديوان ابن الفارض ، والإنسان الكامل ، وإحياء علوم الدين ، وأوراد الصوفية .

٢ - سورة محمد الآية : ١٩

(ب) توحيد الأسماء :

* ومفهوم الأسماء ، يراد بها الأسماء الحسنى لله عز وجل ، والتى سمى الله بها نفسه ، وأسماء الله اتصفت بالحسنى لأنها تضمنت صفات الكمال لله عز وجل ، ولأنها حسنى حقا ، فى الأسماع وفى القلوب ، وملؤها الحسن والجمال والكمال .. وهى ليست أعلاما محضة ، ولكنها دالة على صفات الله عز وجل التى اشتق منها لجميع معناها ، وذلك نحو اسم " العليم " الدال على أن له علما محيطا عاما لجميع ما خلق ، فلا يخرج عن علمه مثقال الذرة ، واسم " الرحيم " الدال على أن له رحمة عظيمة مطلقة تسع كل شىء .. واسم " القدير " الدال على أن له قدرة عامة مطلقة لا يعجزها شىء ونحو ذلك .. [1]

* ونقصد بتوحيد الأسماء ، أن الله عز وجل وإن كثرت أسماؤه الحسنى ، فهى لا تدل بحال من الأحوال على تعدد المسمى ، وكثرته ، إذ لا يشترط - حتى فى دنيا الناس - أن من كثر أسماؤه ، كأن يكون له اسم أصلى ، وآخر شهرة ، وثالث لقب ، ورابع كنية ، وخامس لعب ، أن يكون مجموع أشخاص ، لمجموع أسمائه ، فهذا بعيد ، بل مستحيل .. ولله المثل الأعلى ، تعددت أسماؤه وتوحدت ذاته سبحانه ، فليس الأمر كما زعم المشركون قديما ، أو النصارى حديثا بقولهم : يزعم المسلمون أن لهم ربا واحدا وهم يعبدون آلهة متعددة .. فقد ورد أن سبب نزول الآية :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [2]

أنها نزلت فى رجل من المسلمين كان يقول في صلاته : يا رحمن ، يا رحيم ، فقال رجل من المشركين ، من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فأنزل الله تعالى الآية . [3]

---

١ - فى ظلال العقيدة . مفهوم الأسماء والصفات : سعد ندا ص ١٥ - ١٧ بتصرف .

٢ - سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٧ ، ص ٣٢٥

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1]

وهو ردٌّ على المشركين أيضاً ، معناه : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته يا رحمن « ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى »أى لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن ، فإنه ذو الأسماء الحسنى ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[2] قاله ابن كثير .[3]

وقد ورد فيها كذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فى دعائه : يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : أنظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعوا إلهين ، وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن .. الآية »[4] هذا ولا يكتفى بأن تكون الأسماء الحسنى هى التسعة وتسعون اسما فحسب ، بل إن له جميع الأسماء الحسنى التى ذكرت فى حديث تفريج الهم « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ... »[5]

وذلك مع قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما - مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[6] وفى معنى

---

١ - سورة الإسراء الآية : ١١٠ . ٢ - سورة الحشر الآيات : ٢٢ - ٢٤

٣ - تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٦٨

٤ - أخرجه ابن جرير وذكره الشوكانى فى فتح القدير جـ ٣ ص ٦٥ ، ٦٦

٥ - أخرجه أحمد ورواه عن ابن مسعود ٦ - أخرجاه فى الصحيحين

أحصاها أى عدها وحفظها وفهم معانيها ، ودعا الله بها دعاء عبادة ، ودعاء مسألة مع تخير الاسم المناسب للمسألة ، فيجرد الدعاء لله وحده ، وبهذا يتحقق توحيد الله عز وجل ، ومن حقق التوحيد دخل الجنة . [1]

وكما زعم ذلك المشركون قديما زعمته المسيحية حديثا ، فقالوا : يعيب علينا المسلمون أننا نعبد أقانيم ثلاثة : بسم الآب والابن والروح القدس ، فى الوقت الذى يعبدون هم كذلك ثلاثة فى قولهم : " بسم الله الرحمن الرحيم " بل إنهم لا يكتفون بهذا ، إذ يذكرون من الأسماء ما يصل إلي المائة أو يزيد عليها أحيانا .

* وهذا الذى قاله عبدة الصليب ألقاه الشيطان إليهم - كما ألقاه إلى أسلافهم من المشركين ليضل به الذين آمنوا ، وليضحك به على ضعاف الإيمان ، والبُلْه أو الجهلة من المسلمين ، ذلك أنه فى أبسط الردود يقال : إنكم تقولون : باسم الآب والابن والروح القدس ، ونحن لم نقل بسم الله والرحمن والرحيم ، تلك الواو التى تقتضى العطف والمغايرة ، كذلك فى قولكم : باسم الآب والابن والروح القدس ، هناك مغايرة بين هذه الثلاثة ، ولا يمكن أن تكون واحدا - كما زعمتم ، إذ كيف الثلاثة تكون واحدا ، أو الواحد ثلاثة ؟؟

أما فى أسماء الله تعالى ، فلا مغايرة بينها ، ولا تدل على تعدد أو كثرة وإنما تدل على صفات الله عز وجل بطريقة الأسماء ، فهى منبثقة من صفاته التى منها الرحمة والملك والهيمنة والعزة والخلق والعلم والحكمة والنفع والضر ... الخ فما هذا من ذلك ؟ وأين النور من الظلام ؟ وما موقع الثرى من الثريا ؟ وإننا إذ نذكر هذه الأسماء ، ونعبده بها سبحانه أو ندعوه بها ، فإنما نحن نذكر شيئا أخبرنا به وحدثنا عن نفسه سبحانه فى قرآنه المحفوظ ، فهى

---

١ - مفهوم الأسماء والصفات ص ٢٢

أسماء توقيفية ، لا نزيد عليها ولا ننقص منها ، وما استأثر بعلمه فيه ، لا نبحث عنه ، ولا نجتهد فيه ، إذ هو مما أخفاه عنا ، ولم يكلفنا به ، وما ورد من صفات الله عز وجل - في سياق الآيات - كصفة الخداع ، في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾[1]

أو المكر في قوله تعالى

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[2]

والكيد :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾[3]

والاستهزاء :

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[4]

والغضب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[5]

ونحو هذا ، فإن هذه الصفات وأمثالها لا تشتق منها أسماء الله سبحانه ، فيكون مثلا : الخادع ، الماكر ، الكايد ، المستهزئ ، الغاضب ، هكذا .. لأن الأسماء - كما علمت - توفيقية ، يجب أن نقف عند الذى ورد فى الكتاب والسنة ، ولا نزيد عليها باجتهادنا ، لأن ذلك من أمر الغيب الذى لا مدخل لنا إليه ..

ومما يعلم أن أسماء الله تعالى قديمة بقدم ذاته ، فهى أزلية بأزلية الله

---

١ - سورة النساء الآية : ١٤٢   ٢ - سورة آل عمران الآية : ٥٤

٣ - سورة يوسف الآية : ٧٦   ٤ - سورة البقرة الآية : ١٥

٥ - سورة المجادلة الآية : ١٤ والممتحنة الآية : ١٣

تعالى الذى تسمى بها ، وليست مخلوقة ، ولو كانت مخلوقة لفنيت كما يفنى كل مخلوق . [1]

لقد كان الله عز وجل خالقا قبل أن يخلق ، ورازقا قبل أن يرزق ، ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزليا ، كذلك لا يزال عليها أبديا ، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى ، له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق .

فهو لا إله إلا هو سبحانه ، وحده لا شريك له ، ولا شيء مثله ، ولا شيء يعجزه ، ولا إله غيره ، قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ، لا يفنى ولا يبيد ، ولا يكون إلا ما يريد ، لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبهه الأنام ، حى لا يموت ، قيوم لا ينام ، خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤنة ، مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة ، [2] سبحانه وتعالى . ا . هـ .

(جـ) توحيد الصفات :

ماذا نعنى بتوحيد الصفات ؟؟

إن الله تبارك وتعالى وصف نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بصفات عليا ، وتعبد المؤمنين بها ، وبوصفه بها توسلاً إليه وتقرباً ، فوجب الإيمان بذلك وقبوله ، وإطلاقه عليه تعالى ما هو مراده منه ، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه ، وسماها به من أسماء ، فقد كفر ، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين ، فقد كفر وأشرك ، إذ هو يتردد فى ذلك بين تكذيب الله تعالى والكذب عليه ، وكليهما كفر شنيع وظلم عظيم ..

---

١ - مفهوم الأسماء والصفات ص ٢٧ - ٣٥ بتصرف

٢ - مفهوم الأسماء والصفات ص ٢٧ - ٣٥ بتصرف ، ومتن العقيدة الطحاوية .

ومن أولّ تلك الصفات الإلهية العليا ، طالبا تنزيه الله تعالى ، فقد أخطأ وجهل ، وتكلف ما لم يكلف به وفعل ما لم يؤمر به ، وتفصيل ذلك فيما يلى :

(أ) صفات الله تعالى ، إما أن تكون ذاتية أو فعلية :

فالذاتية مثل أن الله عز وجل حى وسميع وبصير وقادر ومتكلم وعليم ، هذا مثاله ، وكذلك له سبحانه ، عين أو عينان ، ويد أو يدان ، وله وجه وله قدم وأصابع ونحوه مما ورد ، والصفات الفعلية كالاستواء والمجئ والنزول والعجب والضحك والغضب ومثاله مما ورد .

* ورد بهذا القرآن ، وصحت به سنة النبى العدنان ، عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾(1)

وقوله جل وعلا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾(2)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾(3) ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾(4) ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾(5)

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(6)

وهكذا ..

---

١ - سورة الفرقان الآية : ٥٨
٢ - سورة المجادلة الآية : ١
٣ - سورة الأنعام الآية : ٦٥
٤ - سورة البروج الآية : ١٦
٥ - سورة النساء الآية : ١٦٤
٦ - سورة يوسف الآية : ٧٦

وقوله عز من قائل

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[2]

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[3] ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[4]

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[5] ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾[6]

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[7]

وعن الاستواء ، يقول سبحانه :

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[8] ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[9]

وقول صلى الله عليه وسلم « حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول قط قط »[10] « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء »[11] « كلتا يدى ربى يمين »[12] ونحو هذا ..

---

١ - سورة الحجرات الآية : ١

٢ - سورة طه الآية : ٣٩

٣ - سورة الطور الآية : ٤٨

٤ - سورة الفتح الآية : ١٠

٥ - سورة المائدة الآية : ٦٤

٦ - سورة الذاريات الآية : ٤٧

٧ - سورة الرحمن الآية : ٢٧

٨ - سورة طه الآية : ٥

٩ - سورة الأعراف الآية : ٥٤ وغيرها

١٠ - رواه البخارى

١١ - رواه البخارى

١٢ - رواه البخارى

وعن المجئ :

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[1]

وعن النزول يقول صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا »[2] وعن العجب « عجب ربكما من صنيعكما الليلة »[3] « يضحك ربك من رجلين ... »[4] « إن ربى غضب اليوم غضبا »[5] ومثال ذلك ..

والمعنى بهذه الصفات - الذاتية والفعلية - التى وردت فى القرآن والسنة أنها شابهت فى ألفاظها وأسمائها صفات المخلوقين ، فنحن معشر البشر أحياء

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[6]

ولنا صفة السمع والبصر

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[7]

وكذلك نتصف بالقدرة وبالإرادة والكلام والعلم ، وأمثال هذا ، ثم نحن لنا عينان ويدان ولنا وجه وقدمان ، ومن أفعالنا الاستواء والمجئ والنزول والعجب والضحك والغضب .. الخ .

فلما تشابهت تلك الصفات بين الخالق عز وجل وبين المخلوقين ، نسي القوم أن الله عز وجل لا يشبه أحدا من خلقه ، ولا يشبهه أحد من الخلق ، وأنه كما قال :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[8]

١- سورة الفجر الآية : ٢٢
٢ - رواه البخارى
٣ - رواه مسلم
٤ - رواه مسلم
٥ - متفق عليه
٦ - سورة الأنبياء الآية : ٣٠
٧ - سورة الإنسان الآية : ٢
٨ - سورة الشورى الآية : ١١

فوقفوا أمام هذه الصفات منهم من شبه ومثّل ، ومنهم من نفى وعطل ، ومنهم من تأول ، وخالفهم أهل الرسوخ والفضل ، ففوضوا العلم إلى الله عز وجل ، متشبهين بالرعيل الأول .. هذا ، ولقد كفر المشبهة المجسمة ، وكذلك النفاة المعطلة ، وابتعد عن الصواب الخلف المؤلة ، وعرف الحق ولزمه السلف المفوضة .

وتفصيل ذلك على النحو التالى :

(أ) قول المشبهة المجسمة : الذين نظروا فى هذه الآيات ، وتلك الأحاديث فبنوا عليها - بزعمهم - أن الله يشبه الإنسان ، ومنهم من قال هو جسم كالأجسام ، ومنهم من قال : بل هو جسم لا كالأجسام ، وهم على إختلافهم في هذا كفروا والعياذ بالله . ذلك أن الله عز وجل بين في كتابه الكريم أنه لا يشبه أحدا من الخلق ولا يشبهه أحد ، وحكم فى قرآنه العظيم أنه سبحانه

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]

فكيف تزعم المجسمة أن الله عز وجل جسم سواء كان كالأجسام أو ليس كالأجسام ؟؟

فليست صفات الله عز وجل كصفات المخلوقين ، ولا ذاته كذات المخلوقين ، ومن شبه الله بشىء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ..

(ب) قول النفاة المعطلة : وهو يقابل القول السابق على النقيض ، فإذ المشبهة يثبتون الصفات ويجسمون ، يأتى النفاة فينكرون ذلك ، وله يعطلون ، مدعين أن من أثبت تلك الصفات فهم المشبهة كما يزعمون ، وكانوا يتهمون أهل السنة بذلك لأنهم للصفات مثبتون ، ومن قولهم أو زعمهم : أن الله لا يقال له : عالم ولا قادر ، لأن من يزعم ذلك له فهو مشبه ، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه فى معناه ..

---

(١) سورة الشورى : الآية ١١ .

هذا وقد علمنا أن هذا القول كفر ، لأن من أنكر صفات الله أو ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، كيف لا .. وهو بذلك ينكر الكثير من القرآن الكريم ، وما صح من سنة النبى العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وهذان قولان كلاهما أبطل الآخر ، وكلاهما عندنا ضلال واضح ، وكفر صراح .. إذ فى قول الله عز وجل

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

رد على الممثلة المشبهة

وفى قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رد على النفاة المعطلة

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى فى كفرهم .

ووجب إثبات الصفات له كما دل عليه القرآن الكريم والسنة وصريح العقل ولا يخالف فيه عاقل - لكن ليست الأسماء كالأسماء ، ولا الصفات كالصفات وليس المسمى كالمسمى ، ولا الموصوف كالموصوف .[1]

(جـ) قول " الخلف " المؤلة :

أثبتت الخلف تلك الصفات لله عز وجل - مخالفين بذلك المشبهة والمعطلة ولكنهم - حتى لا يقعوا فى دائرة التشبيه والتجسيم - اضطروا إلى التأويل إذ عجزت أفهامهم عن التفويض ، كما عجزت ألسنتهم عن إفهامه للناس ، فتأولوا الصفات ..

وصورة تأويلها كالآتى :

في مثل قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2]

---

١ - أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩ - ٤٣ ٢ - سورة طه الآية : ٥

يقول : أى استولى فرارا من وصف الله تعالى بالاستواء على العرش ، وفى مثل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[1]

أى قدرته تعالى ، فرارا من وصف الله تعالى بلفظ اليد ، وفى مثل قوله جل وعلا :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[2]

أى جاء أمره أو ملك من ملائكته

وفى مثل قوله عز وجل

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾[3]

أى حكمه وأمره . وكذلك قوله :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[4]

أى رعايتى وحفظى ، وفى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا »[5] أى رحمته ... إلى غير هذا من التأويل الذى عرف به أكثر علماء الخلف ، ولم يعرف به أحد من علماء السلف ...

ونقول : إن الخلف فى تأويلهم هذا - وإن قصدوا تنزيه الله تعالى وبذلك لا يكفرون - قد تنكبوا الطريق وحادوا عن جادة الصراط المستقيم ، واتبعوا ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله وذلك لأمور :

أولا : أن المؤول لم يرض لله تعالى ما رضيه له أعرف الناس به وهو رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : أن هذا التأويل لو أراده الله تعالى لنفسه ، لأمر به في كتابه أو

---

١ - سورة الفتح ، الآية : ١٠ ٢ - سورة الفجر ، الآية : ٢٢ ٣ - سورة الملك الآية : ١٦
٤ - سورة طه الآية : ٣٩ ٥ - رواه البخارى ومسلم

على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكان التأويل لصفات الله تعالى واجبا دينيا يحرم إهماله ، ويأثم تاركه ، غير أنه لم يأذن الله تعالى به ، فكان فعله خطأ وتكلفا مذموما لما فيه من معنى الإستدراك على الله تعالى ، وعلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : أن المؤول لصفات الله تعالى فرارا من التشبيه وخوفا منه ، قد جهل حقيقة عظيمة هى استحالة وجود أى شبه بين صفات الله تعالى وصفات عباده ، إذ لا شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق أبدا .

رابعا : أن هذا المؤول لصفات الله تعالى فرارا من التشبيه وخوفا منه ، قد خفى عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا ، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء ، إذ أنه لو علم أن الفرق بين صفات الخالق ، وبين صفات المخلوق ، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق ، لما توهم تشبيها أبدا ولما لجأ إلى التأويل .[1]

خامسا : أن التشبيه ظنى ، وأمور العقيدة تؤخذ باليقين ، لا بالظن والتخمين ، وكذلك : مِنْ هذا التأويل ما لا تسعفه اللغة ، فضلا عن إنكار الشرع له ، ومثال ذلك : أن استوى بمعنى استولى ، وهذا لا يصح لغة ، وما ذكر من الشعر فهو منتحل ومختلق . أو مجئ ربنا بمعنى أمره أو ملك من ملائكته .

ولذلك فالتأويل مفضول وليس فاضلا ، ومرجوح وليس راجحا ، بل خاطئ وليس صوابا ، إلا أنه لا يكفر متأول ، ما دام يقصد تنزيه الله عز وجل ، والله أعلم بالصواب .

---

١ - عقيدة المؤمن ص ١٠٨ ، ١٠٩ بتصرف

(د) قول " السلف "

لقد امتثل هذا الفريق قول الله تعالى في خير الفريقين فاستحقوا أن يكونوا من الراسخين فى العلم ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1)

كما نفذوا حديث النبى صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » (2) فعلموا حقيقة أنفسهم ، فلم يتطاولوا إلي معرفة كنه صفات ربهم ، فسلموا له وآمنوا به ، وأذعنوا لآياته ، علموا أنه لا يعلم الله الا الله ، وآمنوا به . وقرأوا قرآن ربهم فسلموا بكل ما فيه ، وما صح عن نبيهم ، فأخذوه واقتنعوا به ، مؤمنين به ، بلا تشبيه ولا تمثيل ، أو نفى وتعطيل ، أو شك وتأويل . ولكنهم يؤمنون بالصفة كما وردت ، وإن عجزت أفهامهم عن كيفيتها ، وفهم كنهها ، وفوضوا العلم فيها إلى الله ، أومرروها كما جاءت ، ووضعوا معها قوله تعالى

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

فهم يعتقدون أنه من لم ير الذات لا يستطيع معرفة كنه الصفات ، ويفهمون أنه كل ما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك ..

فهم عن الاستواء يقولون : الاستواء معلوم " مذكور " ، والكيف مجهول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . كما قالوا : استوى كما قال ، لا كما يخطر بالبال .. فهم لا يقولون ، استوى بمعنى جلس ، كجلوس فلان أو غيره ولا بمعنى استولى ، ولا ينفون ذلك ، بل طريق السلامة عندهم ، معرفة قدرهم ،

1 - سورة آل عمران الآية : 7

2 - حديث صحيح

والإيمان بما ورد عن ربهم " آمنا به كل من عند ربنا " ..

وعن بقية الصفات يقولون ، مثلا - عن العين أو اليد أو القدم : لله عز وجل عين و يد و رجل ، ليست كجوارحنا ، ولا نعلم كنهها ولا ندرى ماهيتها ولا كيفيتها ، فهى تتفق مع ذات الله وجلاله وكماله ، لا يشبه أحدا من خلقه

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(1)

وهكذا يقولون عن الحياة والعلم والسمع والبصر والرأفة والرحمة والإرادة والكلام ، لله عز وجل حياة ، ليست كحياتنا . فحياتنا يسبقها عدم ، ويطرأ عليها تغيير ويعتريها الموت ، أما حياة الله عز وجل فلم يسبقها عدم ، ولن يعتريها فناء .

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾(2)

وعلم الله عز وجل ثابت بالقرآن والسنة ، ولكن ليس كعلمنا ، فنحن البشر نختلف فى علمنا ما بين جاهل ومبتدئ ، وطالب علم أو متعلم ، وعالم وأكثر منه علما وهكذا ،

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(3)

وعلم ربنا عز وجل شمل الأولين والآخرين ، والصغيرة والكبيرة حتى ما يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فهو كما قال :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(4)

---

١ - سورة الشورى ، الآية : ١١
٢ - سورة الحديد الآية : ٣
٣ - سورة يوسف ، الآية : ٧٦
٤ - سورة الأنعام ، الآية : ٥٩

وكذلك : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[1]

ولله عز وجل سمع وبصر - كما قال - ولكن ليس كأسماعنا وأبصارنا ، فإن سمعنا لا يتجاوز الميل علي أقصى تقدير ، وإن بصرنا يتفاوت ، ومهما قوى فإنه لا يرى على بعد ميلين أو ما وراء الجدار .. ولكن الله عز وجل سبحانه وسع سمعه كل الأصوات ، لا يشتبه عليه صوت بصوت ، ولا يمنع سماعه وفهمه كلام آخر ، وإن كثرت الأصوات ، واختلفت اللهجات ، وتباينت اللغات . سبحانه يرى النملة السوداء ، على الصخرة الملساء ، فى الليلة الظلماء ، ويسمع دبيبها

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[2]

ومثلها بقية الصفات الذاتية ، وكذلك الصفات الفعلية . ومثالها : لله عز وجل مجئ كما أخبر ، ونزول كما أعلم ، وغضب كما قال ، وعجب ، كما ذُكِرَ ولكن هذا ليس كما فى الأذهان ، ولا كما في شأن الإنسان ، وإنما ذلك شئ يختص بالملك الديان ، ويتفق وجلال الرحمن ، ويليق بخالق الزمان والمكان ويتمشى مع آى القرآن ، ولا يخرج عن حدود الإيمان ، سبحانه ، سبحانه

﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

فهكذا مع أى آية متشابهة يتبعونها بتلك الآية المحكمة بلا تمثيل أو تعطيل أو تأويل ..

ترى - لو اعتقدت هذا فى الأسماء والصفات ، ألا تكون قد عرفت الحق ، وسلكت السبيل السوى والصراط المستقيم ؟ بلى وربى ، فإن من يعتقد ذلك فقد نجا بعقيدته ، ولم لا ؟ وهذا الذى عليه السلف خير سبيل ، وذلك لعدة أمور :

أولا : أنه لم يسمح لخاطره أن يُقَدِّرُ أى شَبهٍ بين صفات الخالق وصفات

---

١ - سورة لقمان ، الآية : ١٦

٢ - سورة الأنعام الآية : ١٠٣

المخلوق لاستحالة وجود أى شبه بها واقعا ، فأطلق صفات الخالق عليه ، كما أطلقها على نفسه ، وأطلق صفات المخلوق عليه ، كما أطلقت عليه شرعا ، وعادة وعرفا ، وبذلك سلم من الخطأ والتكلف والجهل ، وبالتالى من الشرك والكفر .

ثانيا : استحالة إدراك ذات الله تعالى وحرمة التفكر فيها شرعا ، لأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، ولم يكن له كفوا أحد ، ولا تدركه الأبصار ولا تكتنه كنهه العقول .

إن مدى ما تصل إليه العقول وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها ، والرب تبارك وتعالى ليس منها ، لأن المادة شيء معلوم التكوين ، والله ليس كمثله شيء ، والمادة المعروفة لدى الإنسان ، الله سبحانه هو الذى خلقها ، والخالق لا يكون جزءا من مخلوقه ،كما لا يكون شبيها له بحال من الأحوال . فذات الله عز وجل ذات مقدسة لا تشبه الذوات ، وموصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات .

ثالثا : إن الله عز وجل ما دام قد وصف نفسه بهذه الصفات ، ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به ، لم يبق إذا معنى للتحرج فى وصفه تعالى بذلك ، إذ لو لم يكن ذلك جائزا ومشروعا لنهى عنه تعالى فى كتابه ، وحرمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كالذى نفاه وحرمه من أن يكون له صاحبة أوولد أو شريك في الملك .. الخ .

رابعا : إذا كان تفاوت في الخلق بين المخلوقين ، فلماذا يكون هناك شبه بين الخالق والمخلوق ؟ إن الفارق بين صفات الله الخالق وصفات المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق ، وإذا كانت كلمة " العين " مثلا تطلق علي أشياء كثيرة فى الدنيا ، فهى تطلق على جارحة الإنسان ، كما تطلق عليه توكيدا فيقال : الإنسان عينه ، أى ذاته ونفسه ، وتطلق على البئر " عين الماء " وتطلق على المكان " عين جالوت " وتطلق على أشياء أخرى ، وهى تختلف فى

كل ذلك شكلا وموضوعا ، فلماذا إذا ذكرت كلمة " العين " منسوبة إلى الذات الالهية ، انقدح فى الذهن أنها كجارحتنا ، وسرح الفكر أنها كعيننا سبحانك ربى ، لا نشبهك بيد أو بقلم أو بلسان .. إن العقول السليمة لا تحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات ، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماما بين الصفتين ، وبين الذاتين الموصوفتين بهما ، وذلك كلفظ " اليد " أيضا فإنها تطلق علي أشياء وتختلف تمام الإختلاف . والرأس ، فيقال رأس إنسان ، ورأس المال ، ولا شبه بينهما البتة ، وذلك لانعدام الشبه بين الذاتين الموصوفتين بهما ، إلا فى مجرد الاسم فقط .

فهل يجوز فى مذهب السلف أن نقول بالجهة ، أو الجلوس ، كما عليه البعض في زماننا ؟

والخلاصة : أن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء الله تعالى ، إذ بها تمت معرفتهم له تبارك وتعالى ، ويدعون الله تعالى بأسمائه ، ويصفونه بصفاته ، غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين ولا مؤولين لها ولا معطلين ، مع اعتقادهم الراسخ بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وبالعجز الكامل عن إدراك كنه ذاته تعالى ، أو كنه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء ، إذ جَهِلنا كنه الذات ، فجهلنا كنه الصفات ، وبذلك سلموا من تكذيب ربهم ، ومن الكذب عليه ، ونجوا تبعا لذلك من العذاب المتوعد به من كَذَّب الله تعالى أو كذب عليه في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] ا . هـ[2]
والله أعلم بالحق والصواب .

« اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك »

---

١ - سورة الزمر الآية : ٣٢

٢ - عقيدة المؤمن : ص ٧٧ - ٨١ ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ بتصرف والعقيدة الطحاوية ، ص ٣٩ - ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٣ .

كَمَالُ اللـــهِ :

صفات الكمال الأعلى لله عز وجل

ثالثا : لا إله إلا الله . تقتضى الاعتقاد بكمال الله عز وجل

ونعنى بالكمال الأعلى لله عز وجل ، اختصاصه سبحانه وتعالى بصفات ليست لأحد من الخلائق ولكنها خاصة به سبحانه ، لا تليق بأحد سواه .

ومثالها أنه سبحانه وتعالى هو الأول والآخر ، القائم بذاته ، ليس كمثله شيء ، له الغنى المطلق ، والتوحيد المطلق ، وله القدرة والإرادة والحكمة والحياة والعلم ، والسمع والبصر والكلام . ونذكر هذه الصفات بشيء من البيان مع الإيجاز :

١ - **هو الأول** : وجود الله سبحانه وتعالى ممتد فى القدم ، بحيث لا يتصور قبله وجود قط ، وما دام كل وجود قد نشأ عنه ، فالله تعالى أسبق منه ، ونحن لا نعرف عن الأول شيئا ، إذ عهدنا بالوجود قد حدث بعد ميلادنا .

عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه : أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك فنزل

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[1]

فهو سبحانه الواحد الأحد ، الصمد ، القائم بذاته ، وقام كل شيء به ، لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلا وسيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث ، ولم يكن له كفوا أحد ، لم يكن له شبيه ولا عدل ولا مثيل وليس كمثله شيء .

إن أولئك المشركين نظروا إلى الألوهية بعقولهم القاصرة ، وقاسوا وجودها المطلق على وجودنا المحدود ، فتوهموا أن له أولا ، وليس الأمر كما يتوهمون إن لوجودنا المادى أولا ، لأننا نحس بذلك وندركه بيقين ، ونجزم باستحالة

---

١ - حديث صحيح ، والسورة سورة الاخلاص

غيره . أما الوجود الإلهي فقد يم لا أول له .

وقد تمر بالخاطر هواجس تتساءل عن أسرار هذا الأزل الغامض على عقولنا ، وذلك من استشراف العقل إلى اكتناه ما يعجزه ، ولا يقدح ذلك فى صحة الإيمان .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : أوجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال ذلك صريح الإيمان . وفى رواية أخرى « الحمد لله الذى رد كيده - أى الشيطان - إلى الوسوسة » [1]

وعن ابن مسعود ، قالوا : يا رسول الله : إن أحدنا ليجد فى نفسه لأن يحترق حتى يصير حممة ،أو يخر من السماء إلى الأرض ، أحب إليه من أن يتكلم به ، قال : ذلك محض الإيمان . [2]

إن تاريخ الإنسان والعالم والحياة كلٌ وُجِدَ بعد عدم لا يدري مداه ، وربما استطاع الإنسان إدراك أعراض يسيرة فى بيئته المحدودة ، أعراض تمس يومها الحاضر ،أو أمسها القريب أو غدها الموشك ، وقد يكون من هذه الأعراض المدركة جملة من المعارف النافعة . ثم تقف بعد ذلك بصيرته فلا تستطيع حراكا ولا إدراكا . فإذا كانت تلك حدود قدرته العقلية فى عالم الشهادة ، فلا جَرَمَ أنه يكون فى عالم الغيب أعجز ، وعن فهمه أقصر ، وراكب السفينة قد يستطيع التجوال فيها ، فإذا بدا له أن يقذف بنفسه فى أغمار اليم فقلما يعود . وعقلنا فى قوته المحدودة كبصرنا الذى لا يقرأ إلا على بُعْدِ أشبار ، فإذا ابتعد الخط عنه مسافة لم يميز منه حرفا . كذلك لا يستطيع العقل أن يدرك إلا فى دائرة وجوده الضيقة .

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3]

---

١ - حديث صحيح　　٢ - حديث صحيح　　٣ - سورة الاسراء الآية : ٨٥

ومن ثم فنحن نؤمن بقدم الذات الإلهية وامتداد هذا القدم فى أغوار الأزل الذى لا نعرف كنهه ذلك ، وطبيعة الوجود المحدث تقتضى البداية والنهاية ، أما من وجوده من ذاته فحقه أسمى من أن يسبقه أو يطرأ عليه عدم . (١)

٢ - **والآخر** : والله سبحانه باق أبدا ، لأنه ليس جسما فيموت ، ولا مادة فتتحلل وتذوى ، إنه الدائم الثابت الذى يصير إليه كل شىء .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (٣)

وذو الوجود الخالد المتأبى على الفناء قد يمنح للأخيار من عباده الخلود فى جنات النعيم ، فهذا الفضل الممنوح لا يعنى أن بشراً أصبح حقيقا بوصف الباقى والآخر .

فالأمر كما قلنا : إن وجود الله عز وجل واجب له من ذاته لا ينفك عنه أبدا أما ما عداه فهو صفر إن لم تدركه نعمة الوجود المفاض عليه من الخالق جل فى علاه . (٤) سبحانه

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤)

هو الأول فليس قبله شىء وهو الآخر فليس بعده شىء ، وهو الظاهر فليس فوقه شىء ، وهو الباطن فليس دونه شىء .

٣ - **القائم بذاته** : " الله الصمد " قام بنفسه ، وقام كل شىء به

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٥)

---

١ - عقيدة المسلم ص٣٤-٣٦ ٢ - سورة القصص الآية : ٨٨ ٣ - سورة الفرقان الآية : ٥٨

٤ - عقيدة المسلم ص٣٦ ٥ - سورة الحديد الآية : ٣ ٦ - سورة فاطر الآيات : ١٥ - ١٧

قد يشرف المهندسون والبناءون على تشييد عمارة ضخمة ، ثم ينفضون أيديهم منها ،أو يموتون عنها ، وتبقى العمارة بعدهم أمدا بعيدا ، قائمة الجدران ، مستوية الأركان .

إن هذه العمارة لم تخلق من عدم ، والفعلة فيها لا يزيدون أن ضموا حجرا على حجر ، ثم انتهى عملهم إلى هذا الحد ، أما بناء الكون الفسيح وتشييد سقفه المحفوظ وتمهيد أرضه وتهيئتها للعمران فهو شيء آخر ، أساسه الإبداع من العدم المطلق .

وكما أن العالم فى وجوده احتاج إلى ربه ، فهو فى بقائه يحتاج إليه لحظة بعد لحظة ، ولا توجد ذرة فى الأرض ولا فى السماء تستمد وجودها من ذاتها ، حتى يتصور استغناؤها بنفسها ، بل على العكس ، هذا الوجود المفاض عليها يتلاشى ويضمحل إذا شاء مفيضه أن يحرمها منه ، مثلما يتقلص الظل إذا ذهب ما يلقيه . لن يكون نهار إلا مع وجود الشمس ، ولن يكون عالم إلا مع وجود الله

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1]

فالعقول وما يتردد فيها من أفكار ، والقلوب وما يتجدد فيها من مشاعر ، والأجسام وما يتدفق فيها من دماء ، وما يتحرك فيها من أجهزة وعضلات ، فى كل بلد ، بل فى كل قارة ، منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة . ما نعرف وما لا نعرف ، إنما يقوم بقيام الله عليه ، ولو شاء تركه لأصبحنا ولما وجدنا وقتا نفكر فيه بأننا فنينا ، لأننا سنكون فنينا فعلا .[2]

إن الأرض التى تسير عليها بقدميك لا تمسك نفسها تحتك ، فهى لا تشعر بك ، ثم هى لا تصنع شيئا من الحبوب والفواكه التى تغلها ، فأنىّ لها الخلق

---

١ - سورة النحل الآية : ٦٠.

٢ - عقيدة المسلم ص ٣٧ ، ٣٨

والإتقان ، وهى جامدة هامدة لا تحس ولا تعلم ؟

إن الإمداد الإلهى وحده هو الذى قام ويقوم بما ترى ، قياما لاتتوهم معه غفلة ولا تفريط ولا فتور ، وإلا لهلكنا واختل كل شىء .

الفارق بين وجودنا ووجود الله ، أن الله تبارك وتعالى وجوده واجب له من ذاته . أما نحن فليس لنا من ذواتنا شىء قط ، إن منحنا نعمة الوجود بقينا ما بقيت معارة لنا ، وإلا اختفينا فلم يمسكنا شىء . (١)

٤ - **ليس كمثله شىء** : فمخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة ، والبداهة تقتضى بأن بين المخلوق والخالق أمدا بعيدا ، وأن الخالق لا يشبه شيئا من خلقه لا فى ذاته ولا فى صفاته . كما أسلفنا .

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة ، من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذى ندرك به أمورنا المعتادة ، بل هذا مستحيل . من أين للتافه أن يعرف كنهه العظيم ؟ إن النملة لا تعرف حقيقة الإنسان ، فحدود عالمها الذى تعيش فيه توقفها دون ذلك .

والطفل - فى المرحلة الأولى من عمره - لا يعرف ما هى الرجولة ، ولا ما يصحبها من سعة عقل واستحكام وإدراك . بل إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادى الذى يعيش فيه ، فكيف يعرف ما وراءه من غيوب ؟

إذا قيل : إن الله يسمع ، فليس ذلك بأذن كأذاننا ، أو يرى ، فليس ذلك بعين كأعيننا ، وإذا قيل : إنه بنى السماء ، فليس على النحو المألوف من تكليف فَعَلَةٍ واستحضار أدوات ، وإذا قيل : يده فوق أيدينا ، فليس الوصف لجارحة كأعضائنا .

والذى نوقن به ابتداء ، أن صفات المحدثين وأحوالهم ، لا يجوز أن تنسب

١ - عقيدة المسلم : ص ٣٧ ، ٣٨

إلى الله فهو - سبحانه وتعالى - غير مخلوقاته . وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكليلة ، والعقول القاصرة .

ومحاولة استكناه دلالة صفات الله ، واستكشاف حقيقتها ، لا تزيد عن قول القائل :-

نهاية إقدام العقول عقال وآخر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعوا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال قد علا شرفاتها رجال ، فبادوا ، والجبال جبال

ولا غرو فإن البحث عبث فيما لا يملك المرء وسائل الخوض فيه ، وشأن الألوهية بالنسبة لنا عزيز المنال ، والله أكبر من أن تحيط بعظمته عقولنا ، أو تستوعب كمالاته أقدارنا ، والفضل فيما ذكر لمذهب السلف ، كما أنا عليه والحمد لله . (١)

٥ - " **الغنى المطلق** " : الله سبحانه وتعالى واسع الغنى ، وليست سعة غناه راجعة إلى أنه يملك هذا العالم بسماواته وأرضه ، وما حوى من معادن نفيسة ، وعناصر غالية .

ولا لأنه يملك عددا من الجن والإنس والملائكة ، لا . لا ، فالغنى الإلهى أقعد من ذلك وأمجد . إننا قد نعتبر الرجل غنيا لأنه يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، أو لأنه يحكم الألوف المؤلفة من الناس ، فإذا فقد ذلك لم يصبح على شيء من الغنى ، إذا انهارت الدعائم التى يقوم عليها .

وقد يكون الملكوت الرهيب الذى نعرف أقله ، ونجهل أكثره مظهرا للغنى الإلهى العظيم . لكن الله عز وجل يستطيع أن يفنى ذلك أجمع ، ولا ينقص غناه المطلق شيئا البته . ويبقى قائما بنفسه مستغنيا عن خلقه ، مستكملا نعوت قداسته ، مستعليا فى أنوار جلالته . إن العرش فما دونه ، صفر إلى

عقيدة المسلم ص ٣٨ - ٤١ بتصرف

جانب الذات العليا . وتسبيح العباد من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، أو لغو الفجار فى هذا الأمر الطويل ، لا يضفى ولا ينتقص من عظمة الحق شيئا .

وقد جاء فى الحديث القدسى « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا »[1]

المخلوقات جليلها ودقيقها يقوم بالله عز وجل ، أما الله فقائم بنفسه ، مستغن بذاته عما سواه[2]

﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[3]

٦ - " **التوحيد المطلق** " إذ ليس لهذا العالم إلا اله واحد ، يخضع له بالقهر والجبروت كل ما سواه ، ولا نجد أحدا من الشركاء المزعومين ترشحه حالته ليكون فى هذا الوجود شيئا طائلا . ومن الحماقة أن نظن فى بشر مهما علا شأنه أنه خلق كوكباً من الكواكب ، ولماذا نذهب بعيدا ؟ إن أحدهم لم يخلق ذبابة أو ما دونها ، فكيف يعد إلها من يعجز عن أى خلق ؟

بل إن جرثومة من الآف الجراثيم التى تكمن فى بطن ذبابة ، لو سلبت أحدهم صحته ما قدر على ردها . فمن أين بعد ذلك ينسب الى الألوهية ؟

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ
وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[4]

---

١ - حديث صحيح رواه مسلم بطوله
٢ - عقيدة المسلم ص ٥١ - ٥٢
٣ - سورة فاطر الآية : ١٥
٤ - سورة الحج ، الآيات : ٧٣ ، ٧٤

فشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهلة .

والحق أن الملك كله لله ، وأن الآلهة الأخرى الموهومة ليست إلا خيالات عقول مريضة ، وأسماء لا مدلول لها أبدا . وسنن الكون الماضية قاطعة بصدروها عن إله أحد ، فرد صمد

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١)

وبعد الاستقراء التاريخي والاستعراض العقلي لمن نحلوا وصف الألوهية زورا ، نجزم بأنه لا إله إلا الله ، ونوقن بأنه لا شيء في العالم يرقى عن مستوى العبودية الذليلة لهذا الإله الراحد القهار (٢) ولقد وضحنا القول في ذلك في معنى الشهادة " بحمد الله " (٣)

٧ - **"القدرة"** : العالم وما فيه من سكون وحركة ، أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وليست لشيء ما قدرة ذاتية يستمدها من طبيعته المجردة .

فإذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويدا رويدا لتستوى على سوقها ، فذلك بقدرة الله . وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن رائحة غادية ، لا تهدأ حتى تثور ، فذلك بقدرة الله ، وإذا رأيت القاطرات أو الطائرات تنهب الفضاء ، وتطوى الأبعاد ، وتحمل الأثقال ، فذلك بقدرة الله . وإذا رأيت البشر يموج بعضهم في بعض ، وينفعلون بالحب والبغض ، والفرح والحزن ، وينطلقون عاملين ، أو يهدأون نائمين ، فذلك بقدرة الله .

وسواء شعرت أو لم تشعر فنبضات قلبك في حنانيك ، وسريان دمك في عروقك ، وكمون الحس في أعصابك ، وتجدد الحياة في خلاياك ، وانسكاب

١ - سورة البقرة الآية : ١٦٣
٢- عقيدة المسلم ص ٥٤ - ٦٨ بتصرف
٣ - راجع مبحث " توحيد الله " بتوسع

الإفرازات من غددك ، ذلك كله بقدرة الله ، ولا تحسبن شيئا فى الكون قادرا بنفسه ، فكما أن القدرة أبدعته أولا من عدم ، فقد أودعت فيه من أسرارها ، وبينت فيه من آثارها ، ما يدل عليها .

من ذلك كله نعلم أن الله قدير على كل شيء ، وأنه قوى متين ، وأنه لا يؤوده خلق ولا أمر

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (١)

والقدرة فى مجالها الواسع لا يعيبها شيء البتة ، وآثارها التى نشهدها تدل على طاقة لا تقف عند حدود . وليس معنى ذلك بداهة أن تخرج القدرة على منطقها ، فيقال مثلا : إنها لا تستطيع قلب الحقائق ، أو يقال : إن الله قادر على أن يخلق إلها مثله ، كما قالته النصارى . أو كما قال الدكتور " ذكى مبارك " إن الله لا يستطيع إخراجى من ملكه ، وإن الله لا يستطيع الجمع بين النقيضين ، وقد كان فى ذلك سخيفا ، ولعله كان " مسطولا " والجنون فنون . (٢)

٨ - **"الإرادة"** : والله سبحانه وتعالى فيما خلق وفيما يخلق ، وفيما دبر ويدبر شئون العالم ، كان يصوغ الكائنات فى الأوضاع التى يريدها ، ويضفى عليها الأوصاف التى يشاءها ، ويبرزها فى الأوقات التى يختارها ، لا يستكرهه أحد على شيء من ذلك كله .

وما ترى فى الأرض والسماء من تنوع فى الوجود ، وتميز فى السمات هو مظهر الإرادة الحرة فى كافة تعلقاتها . فما أوجده الله فى هذا العصر كان من

---

١ - سورة فاطر الآية : ٤٤

٢ - عقيدة المسلم ص ٨٦ - ٨٨ بتصرف

حقه الكامل أن يوجده فى الأيام الخالية . وما جعله الله كوكبا متألقا كان يستطيع جعله جندلا باردا .

وتوزيع الصفات والأحجام والأحوال فى أنحاء الكون العريض ليس إلا بالمشيئة العليا لله عز وجل ، ولو أراد أن يخلق العالم الذى نعيش فيه على نحو آخر فى قوانينه وأنظمته وأحيائه وأشيائه كلها لفعل . إنك لترى انطلاق المشيئة دون أى عائق فى إخراجها الأصناف المختلفة من الأصل الواحد فالحقول المجاورة تختلف محصولاتها كما وكيفا ، والبذور المتجانسة تتفاوت فروعها حلاوة وحموضة ، ولونا ووزنا فى النبات ، ولؤما ونبلا ، وذكاء وبلادة فى الإنسان والحيوان .

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]

وقديما استدل واحد من الائمة على عظمة الإرادة الإلهية - فى هذا المعنى - بورق الشجر ، يتناوله النحل فيحوله شهدا ، ويأكل منه دود القز فيحوله حريرا ، وتأكل منه الشاة فتعطى سمنا ولبنا ، وتأكل منه الغزالة فتعطينا مسكا ، وتأكل منه أطيار أخرى فتحوله قذرا .

وإذا اتجهت الإرادة إلى شىء فيستحيل أن يتخلف أثرها

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[2]

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3]

---

١ - سورة الرعد الآية : ٤ ٢ - سورة هود الآية : ١٠٧ ٣ - سورة يس الآية : ٨٢

فإرادة الله نافذة فى السماء والأرض لا راد لها ولا معقب عليها

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾[1]

وللإرادة معنى يرتبط بمفهوم القضاء والقدر ، يأتى فى حينه إن شاء الله تعالى .[2]

٩ - "**الحكمة**" : وشمول الإرادة وعموم القدرة وكون الله سبحانه يفعل ما يريد ، متى يريد ، وكيف يريد ، ليس معناه أن أمور الخلق والرزق ، وشئون القبض والبسط ، وحظوظ الرفعة والضعة ، والإعزاز والإذلال ، والنصر والهزيمة ، أن هذه جميعا تصدر على طريقة الارتجال السريع ، أو الخواطر السانحة ، أو تتم اتفاقا وتقع مصادفات عارضة ! كلا . كلا .

فإن الكون كله خاضع لشبكة دقيقة النسج من الأسباب والمسببات ، والسنن الثابتة الخالدة ، والقوانين المترابطة المتكاملة ، لا تضطرب ولا تختلف ، ولو أجمع البشر على مناقضتها .

فالنبات يتم نضجه بالإرادة والقدرة ، ولكن مظهر الإرادة والقدرة - فيما نعرفه - من غرس وسقى وتعهد وزمان ومكان . والجنين يكتمل بشرا سويا بالإرادة والقدرة ، ولكن اكتماله فى أطوار وأحوال لابد من توافرها ، ويستحيل أن يولد بغيرها ، وقول الله أنه

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[3]

لا يعنى أنه - بين عشية وضحاها - يقيم دولة ويهدم أخرى .

فدون إقامة الممالك وقبل انهيارها توجد مقدمات طويلة تستغرق سنين أو عصور حتى تقع نتائجها اللازمة . وأصحاب العقول الضيقة والأفكار القاصرة يحسبون أن وصف الله عز وجل بأنه يفعل ما يشاء ، معناه أن أحكامه فى

---

١ - سورة القصص الآية : ٦٨

٢ - عقيدة المسلم ص ٨٨ - ٩٠ بتصرف

٣ - سورة هود ، الآية ١٠٧

عباده لا ضابط لها ولا رابط بينها .

ولعلهم يقيسون سعة السلطان الإلهى على ما عهدوه من تصرفات ذوى السلطة فيهم ، أولئك الذين يخبطون خبط عشواء ويعبثون عبث الحمقى ، تعالى الله عما يظن الجاهلون علوا كبيرا .

إن الأسباب والمسببات هى المفاتيح الملقاة بين أيدى البشر ليصلوا بإرادتها إلى ما وراءها من خير أو شر . وعموم المشيئة والقدرة مقيد بما شرع الله فى كونه ، أو بين عباده من قوانين كونية أو قوانين شرعية .

كذلك ليس معنى أن الله يفعل ما يشاء ، أنه يثيب العاصى ، أو يعذب الطائع ، أى أنه يجوز عليه الظلم ويقع منه الغبن !! وهذا جهل شنيع ، ونسبة ذلك إلى الله تكذيب لما قال فى كتابه العزيز :

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١)

ثم إن هذه العدالة مردها الى ما ينبغى لله من كمالات . بداهة . وليس مردها إلى أنه لو ظلم تعرض لعقاب أو سؤال ، فذلك مستحيل . ومن أين يحدث ذلك ، وهو المنفرد فى الوجود بالألوهية ، بين عبيد عنت له وجوههم ، وذلت له رقابهم ؟!

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(٢)

١ - "الحياة" : مراتب الوجود تختلف رِفْعَةً وضِعَةً ، فالجماد أنزل رتبة من النبات ، والحيوان أعلى درجة من النبات ، والوجود الإنسانى أرقى من أنواع الوجود الأخرى . واتصاف الله سبحانه وتعالى بالحياة ، معناه أن وجوده بلغ الغاية فى عظمته وآثاره ، فهو حى ويعلم أنه حى ، وهو يهب الوجود لغيره عن إدراك واختيار ، ومن ثم فهو حى .

فدلائل الحياة الكاملة تنبثق من الذات العليا انبثاقا يتضاءل أمامه كل ما

---

١ - سورة الكهف الآية : ٤٩

٢ - سورة الأنعام الآية : ١٢٨

نعرف من صنوف الحياة ودرجاتها المختلفة .

أطلق لخيالك العنان ، وتصور كل ما تنتجه الأيدى " الحية " من أعمال ، وما تنشئه العقول الحية من أفكار ، وما تهتز به الأفئدة " الحية " من مشاعر ، واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها ، ويستجمع ما حدث فى الأعصار الخالية ، وما يحدث اليوم ، وما سوف يحدث غدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ...

إن مظاهر هذه الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج لا تعد شيئا مذكورا بالنسبة إلى الحياة الإلهية الواسعة . بل هى أثر ضئيل من أعمال الحى الذى لا يموت ، الحى الذى ينفخ من روحه فى الموات فيهتز ، وفى الجماد فيتحرك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1]

ذلك هو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[2]

١١ - "العلم" : الله تعالى عليم بكل شىء ، لم يسبق معرفته جهل ، ولا يعدو عليها نسيان ، ولا يمكن أن تخالف الواقع . وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد ، بالظاهر والباطن ، بالدنيا والآخرة ، بالجليل والحقير ، بالكبير والصغير ، ما يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، يعلم عدد حبات الأمطار ، وقطرات البحار ، وذرات الرمال ، وورقات الأشجار ، ونسمات الهواء ، وما فى الأغصان من ثمار ، وحبات السنابل ، والأبشار والأشعار ، يعلم ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن ، وما لم يكن - لو كان - كيف كان يكون ، والأحوال الشتى ، والتغيرات الطارئة ، والأوصاف المتغيرة ، كل ذلك يستوعبه شعاع واحد من أشعة العلم التى لا تدرى عقولنا من كنهها

---

١ - سورة الأنعام الآية : ٩٥

٢ - سورة البقرة الآية : ٢٥٥

إلا قليلا .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾[1]

إن الإنسان قد يعرف شيئا عن حاضره ، وقد يعرف طرفا من ماضيه ، وما وراء ذلك فهو بالنسبة إليه عماء ، لكن الله وحده يحصى أعمالنا الماضية ساعة بساعة ، ويسجل أحوال العالم الغابر دولة دولة ، وحادثة حادثة .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[2]

إنه علم يشرف على كل شيء ، فيجلى بواطنه وخوافيه ، ويكشف بداياته ونهاياته ، ويكتنه ذاته وصفاته . فالمشهود والغيب لديه سواء ، والقريب والبعيد ، والقاصى والدانى سواء .

﴿ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ﴾[3]

والعلم الإلهى يشرف على كل شيء إشرافا تاما ، ويهيمن على أطوار الموجودات هيمنة كاملة

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[4]

---

١ - سورة الأنعام الآية : ٥٩

٢ - سورة طه الآيات : ٥١ - ٥٢

٣ - سورة فصلت الآية : ٤٧

٤ - سورة الملك الآيات : ١٣ ، ١٤

وهذا العلم من خصائص الذات المقدسة . أما علم البشر فهو مقرر معروف

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

ا . هـ .[2]

١٢ - "السمع" : عن عائشة رضى الله عنها قالت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة " خولة بنت ثعلبة " إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى جانب البيت تحدثه ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[3]

أجل ! فما من كلام يدور بين الناس ، أو حديث يتجاذبون أطرافه إلا سبق وقعه إلى سمع الرحمن ، جل وعلا ، قبل أى شىء ! .

ولا تحسبن أن الله حين يسمع نجوى جماعة يشغله ذلك عن سماع قوم آخرين . كلا ، فما يشغله شأن عن شأن ، وما تغيب عنه همسة وسط الضجيج ، ولا تشتبه عليه لغة على اختلاف الألسنة .

إنك - بالوسائل التى هُدِىَ اليها البشر - تجلس فى المشرق فتنتقل إليك محطات الإذاعة من المغرب ، طاوية الأبعاد الشاسعة . فما أدرانا بما وراء ذلك من أسرار الكون ؟ . وما أيسر - فى منطق العقل - أن يشرف رب الكون بسمعه على كل حركة وسكنة فى الوجود ، تنبعث من مصدرها القريب أو البعيد - وليس ثَمَّ قربٍ ولا بعدٍ بالنسبة إلى الله - فيعلم كنهها ، ويسمع

---

١ - سورة الإسراء الآية : ٨٥ 　　 ٢ - عقيدة المسلم ص ٩٠ - ٩٥ بتصرف

٣ - سورة المجادلة الآية : ١ والحديث رواه البخارى

صوتها ، ويبصر وضعها ! إن ربك يسمع كل صوت ، وهناك أصوات يسمعها ويحبها كما فى الحديث « ما أذن - ما استمع - الله لشىء ، إذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن ! يجهر به » . [1]

وكما يحب الله صوت الوحى تتلوه الألسنة ، يكره أصوات الفحش والسوء

﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [2]

ولا تستكثر أن يقال لك : إن الله يسمع خفقان القلوب فى حنايا الخلق أجمعين . فما القلوب إلا أثر قدرته ، شحنها بالحياة ثم دفعها ، فهى تسير إلي أجل معلوم ، فكيف لا يسمع أثر ما أوجد ؟ .

١٣ - "البصر" : وكما أن الله يسمع كل شىء ، فهو يشهد كل شىء ورؤيته تنظر فى أعماق الظلمات ، فتستشف كوامنها . فما هو بحاجة الى ضياء يبصر به الخفى ، أو مكبر يعظم به الدقيق . وإذا كنت ثالث ثلاثة ، فاعلم أن هناك رابعا يبصر ما تفعلون ، ويسمع ما تقولون

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3]

---

١ - حديث صحيح ، وأذن بمعنى استمع ، وتغنى بالقرآن أى جهر به .

٢ - سورة النساء ، الآية : ١٤٨

٣ - سورة المجادلة ، الآية : ٧

سبحانه

﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[1]

وعندما أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون ، توجسا من طغيانه ، وقالا :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ
قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[2]

إنه معهما ، ومع كل كائن من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، وما قبل ذلك ، وما بعد ذلك ، يسمع ويرى ، وهو سبحانه قد ركب فى وجوهنا هذه العيون التى نقرأ بها ونكتب ونشهد بها ما نشاء ، ولكن ما قيمة رؤيتنا إلى جانب الرؤية الإلهية المحيطة الشاملة .

لو أن كل ذى بصر انتظموا صفا يستغرق محيط الأرض ، ثم اجتهدوا فى رؤية ما حولهم ، ما أبصروا شيئا يذكر إلى جانب الرؤية الإلهية التي تستوعب جميع المدركات ، من جميع الجهات ، فى وقت واحد ، سواء فيها المستخفى بالليل والسارب بالنهار ، الخالى وحده ، والبارز للناس :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[3]

والإحساس بهذه الحقيقة جزء من الدين بل هو قمته العليا « الإحسان : أن

١ - سورة الكهف الآية : ٢٦
٢ - سورة طه الآيات : ٤٥ - ٤٦
٣ - سورة يونس الآية : ٦١

تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1]

وملاحظة العبد لله أساسها شعوره بأنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، ومطلع على ما أسرت وأعلنت ، وذلك وحده لب التقوى ، وسر الإخلاص . سبحانه

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[2]

١٤ - "**الكلام**" : وهو وسيلة للإبانة عما فى النفس من معارف ونصائح ورغبات ، وتفهيم ذلك للآخرين . ولا شك أن الله سبحانه وتعالى مستحق لهذا الوصف . فقد عهد إلى ألوف من ملائكته بالقيام على شئون الإحياء والإماتة ، فى أنحاء العالم العريض ، كما عهد إلى ألوف وألوف منهم بشئون شتى لا ندرى منها إلا القليل .

وهذا التسخير الدائم خاضع لأوامر الله التى يتكلم بها ، خلقا ورزقا ، ورفعا وخفضا ، ومحوا وإثباتا ، وتقديرا وتدبيرا ... الخ .

وما حفل به علم الله فوق الحصر ، وما يدل على هذا العلم - من كلمات لا نهاية لها - كذلك . إن أحدنا - فى مباشرة أعماله المحدودة - يحتاج إلى قاموس من الألفاظ . فما ظنك برب العالمين ، وهو يحكم ملكوته الواسع العظيم ؟ ألا ترى أن كلامه من السعة والاستبحار على النحو الذى يقول الله تعالى فيه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾[3]

---

١ - جزء من حديث صحيح ، متفق عليه

٢ - سورة الأنعام الآية : ١٠٣

٣ - سورة الكهف الآية : ١٠٩

بل كما قال سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١)

وكتب الله التى أنزلها على أنبيائه مظهر من مظاهر اتصافه جل شأنه بـ " الكلام " وقد

﴿ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٢)

وسوف يكلم كثيرا من عباده يوم القيامة . وأرسل الروح الأمين بختام الوحى إلى صاحب الرسالة العظمى . فكان القرآن الكلمة الأخيرة ، فى هدايات الله لعباده

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣)

أما حقيقة الكلام - كصفة الله - فلا نقصر فيها ولا نطيل ، لأننا دون هذا المجال بكثير . بيد أننا نجزم بأن الكلام الإلهى ليس ألفاظا تصنعها الشفتان واللسان ، وتضبطها الرئتان ، والحنجرة والأسنان ، فذاك شأن الإنسان ، لا وصف الرحمن .(٤) سبحانه وتعالى له صفات الكمال ، ومطلق الجلال ، ماذا نقول ، وماذا نسطر ؟ سبحانك ربى سبحانك ، ما أعظم شأنك ، سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ، ولا عبدناك حق عبادتك ، يا الله .

---

١ - سورة لقمان الآية : ٢٧
٢ - سورة النساء الآية : ١٦٤
٣ - سورة الأنعام الآية : ١١٥
٤ - عقيدة المسلم ص ٩٦ - ٩٨

النصف الثانى من كلمة التوحيد

(أشهد أن محمداً رسول الله)

من هو محمد صلى الله عليه و سلم .

أدلة نبوته .

ختمه للنبوات .

عبوديته وأفضليته .

الشهادة الثانية ، أو النصف الثانى من كلمة التوحيد

" وأشهد أن محمداً رسول الله "

هذه هى الشهادة الثانية ، المتممة للشهادة الأولى ، والنصف الثانى من كلمة التوحيد ، المكمل للنصف الأول ، وللنصف الثانى من الأهمية ما للأول ، وللشهادة الثانية من المكانة ما للأولى ، ولذلك لا يصح إيمان ، ولا يقبل إسلام ما لم تكن هذه الشهادة ، ويتم هذا النصف الثانى ، فلو أن إنسانا قال : أنا أشهد بأن لا إله إلا الله ، فأنا بذلك مؤمن ، ولكن لا أشهد أن محمداً رسول الله ، فليس بمؤمن البتة ، بل هذا هو الكفر الصراح البواح ..

إذ لا سبيل إلى الإيمان إلا بالشهادة الثانية مع الأولى ، ولا صحة للإسلام إلا بالنصف الثانى مع الأول ، فلو زعم إنسان أنه على التوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله فهو زعم باطل ، ومغالطة واضحة ، وكفر صريح ..

وهذه الشهادة يجب أن تكون بالقلب مع اللسان ، وأن تكون اعتقادا وعملا

" أشهد " شهادة قلبية مبنية على رؤية إيمانية قلبية بأن هناك ألف دليل ودليل على صدق محمد صلى الله عليه و سلم فى رسالته ، وعلى صحة دعواه وأنه مرسل من عند الله ، ذلك أن العقل يقبل ذلك ، والشرع يؤيده ، ولا سبيل لإنكاره ، كما سنعرف ذلك .

" وأشهد " شهادة باللسان ، بعد إيمان القلب ، يعلن عن الاعتراف الذى آمن به ، ويقر بذلك علانية ، فهو إقرارواعتراف واضح لا لبس فيه .. وهذه الشهادة أو تلك ، أى بالقلب واللسان ، شرط صحة فى الإيمان ، كما فى الشهادة الأولى ، لا تقبل الثانية ولا الأولى إلا بوجودهما وتمامهما ..

" وأشهد " شهادة تؤكد إيمان القلب ، وتبرهن على صدق الاعتراف باللسان ،

وذلك بالعمل بما ورد فى سنة النبى صلى الله عليه و سلم ، وتصديق ما جاء عنه صلى الله عليه و سلم .. واتباع السنة بغير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، ولا إنكار ولا استهتار ، بل مع التسليم الكامل والرضى التام ، وعدم الضيق والحرج من هذه السنة ..

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١)

دون حرية للنفس ، واختيار فى السنة ، يفعل هذه ولا يفعل تلك ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(٢)

مع العلم الكامل أن البعد عن السنة يورث الفتنة ، ومخالفتها توقع فى العذاب الأليم كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣)

" أن " أنَ الناصبة ، وهى للتوكيد حتى تكون الشهادة يقينية مؤكدة ، لا شك فيها ، ولا ريب يعتريها ، بل هى بكل صدق ويقين .

" محمداً رسول الله "

من هو محمد صلى الله عليه و سلم ؟

" هو " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي

---

١ - سورة النساء الآية : ٦٥ ٢ - سورة الأحزاب الآية : ٣٦ ٣ - سورة النور الآية : ٦٣

ابن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، هذا نسبه ﷺ ..

أما نشأته ، فقد وُلِدَ صلى الله عليه و سلم ، بدار أبى يوسف ، ولدته أمه "آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصى بن كلاب" ، ولدته صبيحة يوم الإثنين ، الثانى عشر من ربيع الأول ، عام الفيل ، الموافق لأغسطس عام ٥٧٠ ميلادية ، ومات والده " عبد الله " وهو حمل فى بطن أمه ، وكفله جده عبد المطلب ، وماتت والدته آمنة ، وهو ابن ست سنين ، وحضنته " أم أيمن " جارية أبيه ، ومات جده عبد المطلب فكفله عمه " أبو طالب " [١] ثم نشأ صلى الله عليه و سلم نشأة الخير والطهر والشرف والكرامة ، وضئ الطفولة ، نقى الصبا ، طهور الشباب ، فلم يشب نقاء صباه ريبة ، ولم تهتف بقدس شبابه نزغة هوى ، ولا نزعة صبوة ، فكانت دنياه كلها معبدا يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده ، ونعلم أنه جَدَّ فى الحياة راعى غنم ، ثم تاجرا ، فكان فى حياته المثل الأعلى فى الجد القوى الصالح ، والأمانة التى تعتصم بالتقوى ، والحكمة الحكيمة فى كل ما يصرف به شئون دنياه ، والرعاية التى تقدس الحق والواجب لكل ما حمل من أمانة ، وأنه كان فى أطوار حياته الكامل فى الأدب والخلق ، وحكمة العقل ، وسمو العاطفة ، ونباغة الفكر ، وقوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ، وجلال الشرف ، وعزة الكرامة ، ونبل المروءة ، وكرم الإيثار والنجدة ، وسماحة النفس ... فلم يغمر قلبه إلا حب الله ، ولم تنزع به الإرادة إلا إلى الخير ، ولا العاطفة إلا إلى

---

١ - عقيدة المؤمن - ص ٢٧٣ - بتصرف

السمو ، ولا الفكر إلا فيما ينال به رضاء الله ، جوادا مسامحا فى سخائه وبره ، محسنا كل الإحسان فى كل ما أنعم الله به عليه ، فلم يغضب إلا للحق ، ولم يجبن إلا عن الذنب ، ولم يطمع إلا فيما هو عند الله ثم اصطفاه ربه خاتما للنبيين ، فجاهد فى الله حق جهاده ، وبلغ كل ما نزل إليه من ربه ، وشهد الله له بذلك .. ثم قبضه الله إليه بعد أن صارت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله وسلامه عليه ..[1]

هذا قبس نستهدى به من حياة محمد صلى الله عليه و سلم ، وإن كان اختصارا مخلا ، ولكنه مقدمة للحديث عن نبوة ورسالة النبى محمد صلى الله عليه و سلم .

" رسول الله "

لقد عاش صلى الله عليه و سلم حياته - كما ذكرنا - يتمتع بأفضل الأخلاق ، وأطيب الشمائل ، فلم يؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط ، فلم يأت - ولا مرة - ما كان يأتيه بنو قومه أبدا ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمرا ، ولم يلعب قمارا ولا ميسرا ، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم أحدا فى عرض ولا مال ولا دم . لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثاليا فى أخلاقه .. وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه ، وهذا اللقب الذى لم يظفر به أحد فى ديارها أبدا ، لقد كان صلى الله عليه و سلم أمينا فى سره وفى علنه ، أمينا في قوله وفى عمله ، أمينا فى غيبه ومشهده ، أمينا فى كل شىء ، وعلى كل شىء .. حتى بلغ سن الأربعين من عمره - كما هى سنة الله فى الأنبياء - نُبِئَ محمد صلى الله عليه و سلم إذ جاءه الحق ، وهو بغار حراء - بعد أن كان قد حُبِبَ إليه الخلاء فيه مدة شهر رمضان - فجاءه جبريل وهو به ، فضمه إلى صدره وأرسله ثلاثا ، وقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا

١ - هذه هي الصوفية - ص ٩٤ - ٩٦ .

بقارئ ، وفى الرابعة قال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١)

فذهب بها ﷺ إلى خديجة - زوجه الكريمة - ترجف بوادره وهو خائف على نفسه ، فَهدأتْ - رضى الله عنها - من روعه ، وسَكّنَتْ من اضطراب نفسه ، وهى تقول له : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل - الضعيف - وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .. وانطلقت به رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل - ابن عمها - وكان امرءا قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب بالعبرانى ، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمّر ، فقالت له خديجة : يا ابن العم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه و سلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، يا ليتنى أكون حيا ، إذ يخرجك قومك ، فقال النبى صلى الله عليه و سلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقه أن توفى وفتر الوحى ، وبعد فترة - فتر فيها الوحى - تبدى له جبريل عليه السلام فى صورته الملائكية ، وقد سد الأفق ، وله ستمائة جناح ، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى . ونزل عليه قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ (٢)

فأرسل بها صلى الله عليه و سلم .

---

١ - سورة العلق الآيات : ١ - ٥

٢ - سورة المدثر الآيات : ١ - ٥

وبدأت الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه ولقائه ، وتوحيده تعالى فى عبادته ، بدأها فردية ، وتلقى هو ومن آمن به صنوفا من الأذى ، وأنواعا من الاضطهاد ، مما اضطر بعض أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة النبوية ، كما حوصر هو وأسرته الشريفة ، والمؤمنون من بنى هاشم ، حوصروا فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات ، جاعوا فيها جوعا أكلوا معه ورق الشجر ، مع كامل الأسف ..

وفى هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة ، زوجه المفضلة - رضى الله عنها - كما توفى عمه أبو طالب الذى لم يأل جهدا يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحميه من كيد أعدائه له ، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن - كما قيل .

وفى نهاية السنة العاشرة من بعثته صلى الله عليه وسلم ، ومطلع الحادية عشرة ، عرج به صلى الله عليه وسلم إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، وتجاوزها إلى مقام أسمى ، سمع عنده صريف الأقلام ، وناجاه ربه وناداه ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ..[2] وفى هذه الأثناء عقد صلى الله عليه وسلم اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج ، تنص على أن يحمى أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم ، وأن لهم عند الله - تعالى - الجنة ، وسميت هذه الاتفاقية بيعة العقبة الأولى ، وتمت عندها أخرى مثلها ، فسميت بيعة العقبة الثانية ،[3] وهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أن كثر بها الاسلام والمسلمون ، وكانت قبل ذلك تسمى " يثرب " فصارت بحلول النبى فيها تسمى " المدينة النبوية " والعامة تسميها " المدينة المنورة " وفيها

---

١ - الحديث بمعناه ، وهو فى الصحيحين . ٢ - حديث الاسراء ، ثابت فى الصحيحين

٣ - أحاديث بيعة العقبة فى صحيح البخارى

شرعت كل الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية ، وبها تكونت الدولة الإسلامية الأولى فى تاريخ الإسلام ، ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق فى ربوع الأرض ، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور السلطان إلى عدل الاسلام - كما قال ربعى بن عامر ، لكسرى ملك الفرس ، أو لرستم قائد جيشه .

ولم يُقْبَضْ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب ، وحتى تم التشريع الإسلامى أوفر وأقوى ما يكون ، ونزل فى ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1]

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، بعد مضى عشر سنوات وشهرين وبعض الليالى على هجرته إلى المدينة ، والتى كانت مبدأ التأريخ الاسلامى ، ولم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيرا قط إلا دل أمة الإسلام عليه ، ولا شرا إلا حذرها منه ...

فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته ..

هذه نظرة سريعة ، ألقيناها - متبركين بها - على تاريخ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمناسبة الحديث عن نبوته ، فكانت مثل ترجمة قصيرة ، نقدمها بين يدى بحث دلائل نبوته ، وعموم رسالته ، وتقرير أن سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه .[2]

---

١ - سورة المائدة الآية : ٣

٢ - عقيدة المؤمن ص ٢٧٤ - ٢٧٩ بتصرف

★ مؤهلاته للنبوة - كأدلة عقلية :

الذى ينبغى أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتى عن طريق الكسب والاجتهاد أبدا فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية ، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية ، وعن كل الرغبات ، والشهوات ، وسائر متع الحياة ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبيا أو رسولا بحال من الأحوال .

إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين ، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبدا من عباده ، فيحفظه من التلوث النفسى ، والضلال العقلى ، والفساد الخلقى ، والانحراف الفطرى ، ويضفى عليه من الكمالات النفسية ، والعقلية ، والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف ، ومن المؤهلات للنبوة وتلقى الوحى الإلهى :

(١) المثالية :

ونعنى بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة ، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس ، ولقد حاز النبى محمد صلى الله عليه وسلم كل ألوان المثالية ، وأنواع الكمال البشرى ، وبدا فيه ذلك واضحا ، حتى لم يشاركه فيه غيره ، أو يدانيه فيه سواه ،سواء من الجانب الخلقى الذاتى ، أو فى الجانب الخُلقى النفسانى ، إن أصحاب السير وجميع من كتب فى السيرة المحمدية مجمعون على أن محمدا بن عبد الله ، النبى الأمى كان أكمل الناس ذاتا ، وأجملهم وجها ، وأحسنهم قدا واعتدالا ، حتى بلغ من الحسن والجمال كل مبلغ ، وفاق كل وصف ، وإن شئت فاقرأ فى ذلك وصف البراء له ، وقول أنس فيه ، ووصف هند بن أبى هالة عن حليته ، وقول " أم معبد " ساعة أن مر بها أثناء هجرته ، وقل مع عائشة رضى الله عنها ، وحسان رضى الله عنه .

خلقت مبرءا من كل عيب   كأنك خلقت كما تشاء

فأجمل منك لم ترقط عينى   وأفضل منك لم تلد النساء

وإن كانت هذه إشارة عن الجانب الخِلْقى الذاتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهومحض عطاء الله وهبته ، ولا كسب فيه للإنسان ، وقد أعطى منه صلى الله عليه وسلم ما لم يعط غيره ، حتى كان فى جماله الذاتى مثلا عاليا لا يسام فيه ولا يطاول أبدا .

فإنه فى الجانب الخُلقى النفسانى قد بلغ شأنا عظيما ، وشأوا كبيرا-، ومبلغا فاق كل وصف ، سواء كان فى رجاحة عقل ، أو فى شجاعة ، أو فى سياسة ، أو فى رحمة ، أو فى كرم ، أو فى عفو ، وحلم ، أو فى عدل .. الخ .

حتى صار مضرب المثل فى ذلك كله ، والناظر فى سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم يدرك ذلك جيدا ، ولو بنظرة سريعة .[1]

واقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2]

ماذا أقول فى مثالية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد عرف ذلك القاصى والدانى ، وشهد به العدو قبل الصديق ، وكيف لا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشى بين الناس [3] واقعا حيا ، وتطبيقا عمليا ، فلماذا لا يكون كذلك .

(٢) شرف النسب :

بما أن عامل الوراثة له خصائصه وصفاته التى لا تنكر ، وأنها تنتقل

---

١ - راجع بتوسع : اللؤلؤ والمرجان ، والبداية والنهاية ، وسيرة ابن هشام ، وفقه السيرة ، وعقيدة المؤمن .

٢ - سورة القلم الآية : ٤   ٣ - أخرجه البخارى وغيره

- بهذه السنة الإلهية - من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون فى أشراف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام الترفع عن الدنايا الخلقية ، والتنزه عما يخل بالمروءات ، ويهبط بالقيم البشرية ، من كل سلوك شائن منحرف ، تكرهه الطباع البشرية السليمة ، وتشمئز منه النفوس الكريمة ..

وأن من ينظر بإنصاف فى النسب النبوى الشريف يجده بحق أشرف نسب وأطيبه ، وأطهره ، وأزكاه ، إنه لم يعرف التاريخ البشرى نسبا كان أوضح وأنصع ، ولا أطيب ولا أطهر من نسب النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ كانت قريش بلا منازع ولا مدافع هى أشرف القبائل العربية ، وبنو هاشم كانوا أشرف بيوت قريش ، أيضا بلا منازع ، والأنبياء يبعثون دائما فى أشراف أقوامهم ،هذه كلمة قالها " هرقل " ملك الروم وعظيمها [1] . ولنستمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة ، فيقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » [2] فكان صلى الله عليه وسلم خيارا من خيار من خيار . [3]

(٣) عامل الزمن :

إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات فى الزمن المعين ، تحتم بعثة نبى ، وإرسال رسول ، وتقتضيه ، ومن ذلك وجود فراغ روحى تسبب عنه فساد اجتماعى كبير ، فأصبحت الحال تتطلب نبيا مصلحا ، يرد للحياة اعتبارها ، وللإنسان قيمته ، وذلك كالفراغ الذى كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، وكذلك كان قبل نبوة عيسى عليه السلام ، وكالذى

---

١ - أنظر/حديث أبى سفيان فى صحيح البخارى

٢ - رواه مسلم والترمذى ، أتم منه .

٣ - عقيدة المؤمن : ص ٢٦٠ ، ٢٩٢ بتصرف

كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ورسالته .. بل كان واضحا فى تلك الفترة أكثر من غيرها ، إذ كان الجميع يتطلعون إلى تلك النبوة ، ويحسون بقربها ، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها ، بل صرحوا بقربها وجاهروا به ، وانتظروه . .لذا بادر الكثير منهم بالإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، ولم يترددوا فى ذلك بمجرد ظهورها ، وذلك كالنجاشى من النصارى ، وعبد الله بن سلام من اليهود وغيرهما من أحبار اليهود ورهبان النصارى ، ذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذى انتظم العالم بأسره ، وبخاصة جزيرة العرب ، وبلاد الروم وفارس ، وهى تمثل العالم الإنسانى تقريبا فى ذلك الوقت .

ومجمل القول أن وجود فساد عام فى الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد ، وذلك لما غرز الله تعالى فى الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية وقربها كلما عم الشر ، وعظم الفساد ، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء ، وتطلعه اليه ، وأن الحال الذى كان يعيشه العالم يومئذ ، قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، ظلاما دامسا ، وشرا مستشريا ، وفسادا طاغيا ، وهى حال تدعو بل تصرح بذى نبوة إلهية ، ورسالة ربانية ، يصلح الله به ، وعلى يديه فساد البلاد والعباد ، حتى كان المؤهل لهذه النبوة هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . (1)

فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبصورة لا أكبر منها ولا أوضح ، فهل يصح فى العقول نفى نبوته ، أو جحود رسالته ؟ اللهم لا ، إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب ، أو من مغرض ذى طمع فاسد ، يجاحد ويعاند ..

وإن كان هذا غيضا من فيض ، من مؤهلاته ، صلى الله عليه وسلم ، فتلك إشارات أخرى لصفاته صلى الله عليه وسلم ، فلقد عُرِفَ الأنبياءُ بصفات كمال

١ - عقيدة المؤمن ص ٢٦ ، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ بتصرف .

تؤهلهم لحمل رسالتهم ، لا تُفْقَدُ فى أحدهم أبدا ، إذ هى واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده ، وهى - على سبيل الإجمال - كل كمال بشرى يليق بهؤلاء الصفوة من البشر ، ومنها على سبيل التفصيل :

(١) الصدق :

صدق النية ، والإرادة ، صدق القول والعمل ، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق وهو الكذب والنفاق أو الإهمال واللامبالاة ، والمتتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها ، والذى ينظرها في حياة النبى صلى الله عليه وسلم يراها واضحة جلية ، يعرفها القاصى والدانى ، ويؤمن بها العدو قبل الصديق .

(٢) الأمانة :

الأمانة فى كل شيء ، فى القول والعمل ، فى الحكم والقضاء ، فى الحديث والنقل ، فى الرواية والتبليغ ، فى السر والعلن معا ، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهى الخيانة ، بحال من الأحوال ، فلا خيانة فيهم أبدا ، ولو فى أقل الأشياء وأتفهها ، ومتى وجد شيء من الخيانة ، فلا نبوة ولا أهلية لها أبدا .

والناظر فى حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم يجد أن المشركين فى مكة أطلقوا عليه منذ صغر سنه ونعومة أظافره " الصادق .. الأمين " .. صلى الله عليه وسلم ، لقد بلغ من الأمانة مبلغا مع أعدائه لم يقل عن أمانته مع أصحابه وأتباعه صلى الله عليه وسلم .

(٣) التبليغ :

والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه ،فلا يُخفى منه شيئا ، ولا يكتمه بحال من الأحوال ، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضا مما

أوحىَ إليه ، وأُمرَ بإبلاغه إلى الناس ، والكتمان للوحى الإلهى يتعذر على المرسلين ، ويستحيل في حقهم ، ولا يتأتى لهم ، لأن الله تعالى أهّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير ، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة وانتفت الرسالة ، ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم مضرب المثل فى التبليغ عن ربه ، مهما كانت الظروف والأحوال - مبلغا العتاب له قبل الثناء عليه ، ممتثلا قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1]

(٤) الفطنة :

إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب ، بل هى مع ذلك ، رقة الشعور وصفاء الذهن ، ورهافة الحس وصدقه ، وسرعة البداهة ، كانت واضحة جلية فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم .. على حد قول حسان بن ثابت فيه :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

إذن ، الفطنة من المؤهلات لتلقى الوحى ، والأمانة عليه ، فالغباء ، وبلادة الحس ، وبطء الإدراك ، تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقى عن الله تعالى .[2]

كان هذا عن الصفات بعد المؤهلات ، والبقية تأتى من الأدلة إن شاء الله تعالى .

---

١ - سورة المائدة الآية : ٦٧

٢ - عقيدة المؤمن - ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ بتصرف

(أ) النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب السابقة :

لقد ورد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ، كما ذكر ربنا عز وجل :

﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[1]

ومن ذلك ما جاء فى التوراة - فى سفر التثنية - « جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، ومعه ألوف الأطهار »[2]

فهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد صلى الله عليه وسلم بنبوته ورسالته ، إذ معنى هذا اللفظ : أن الله تعالى ناجي موسى وأوحى إليه بسيناء ، وأرسل عيسى وأوحى اليه بساعير وهى من أرض الجبل المقدس ، وبعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا معلنا " لا إله إلا الله " مستعلنا بها من مكة الواقعة بين جبال فاران ، كجبل أبى قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها ..

هذا وقد جاء فى التوراة نصوص كثيرة ذُكِرَ فيها النبى محمد ﷺ ..[3] وعن الإنجيل جاءت نصوص كثيرة تحدثنا عن النبى محمد ﷺ ، على الرغم من تحريفه كالتوراة ، ومن ذلك قول عيسى عليه السلام « إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا " فار قليط " آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد »[4]

فالفار قليط ، ترجمته ، محمد أو أحمد ، وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه وسنته ، إذ هى محفوظة بحفظ الله ، وباقية ببقاء هذه الحياة ، وهذا معنى إلى الأبد فى قوله « يبقى معكم إلى الأبد » .. وكذلك « لكنى

١ - سورة الأعراف الآية : ١٥٧   ٢ - سفر التثنية ، اصحاح ٣٣

٣ - راجع بتوسع : محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والانجيل والقرآن ، إبراهيم خليل

٤ - انجيل يوحنا ، إصحاح ١٤

أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنى أن لم أنطلق لم يأتكم المعزى "الفار قليط " ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم »[1]

فالفارقليط هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يذهب عيسى عليه السلام برفع الله تعالى له ، لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إذ بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم كانت على فترة من الرسل ، كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[2]

وأيضا : و"الفارقليط" روح القدس الذى يرسله الأب ، باسمى هويعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم .[3]

فالفارقليط روح القدس هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله إلى الناس كافة ، ومن بينهم اليهود والنصارى ، كما قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[4]

فجاء فى هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معرفا بالألف واللام ، وهى وإن دلت على تفخيم الرسول وتعظيمه فى كماله ، فإنها دالة على العهدية ، فهى إشارة إلى ما فى الكتابين ، "التوراة والإنجيل" ، من البشارة بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، كما ذكرنا ونذكر .[5]

١ - إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٦
٢ - سورة المائدة الآية : ١٩
٣ - إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٤
٤ - سورة النساء الآية : ١٧٠ .
٥ - راجع بتوسع : إظهار الحق ، « محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل والقرآن » ورسالتنا « التعصب والتسامح فى اليهودية والمسيحية والإسلام »

(ب) شهادة علماء أهل الكتاب :

كما قال الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[1]

فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، وهى معرفة علماء بنى إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبى الله ، وما جاء به هو من عند الله . كما قال تعالى أيضا .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[2]

فقد أخبر الله تعالى فى هذه الآية ، أن الذين أوتوا الكتاب - التوراة والإنجيل - يعرفون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم ، كما أخبر أن فريقا كبيرا منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له ، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد معرفتهم لها تمام المعرفة .. ونكتفى بذكر شهادة عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، عن غيرها من شهادات كثير من علماء اليهود وأنصارهم . فقد روى البخارى فى صحيحه ، عن أنس بن مالك « أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأتاه ، فقال : إنى أسألك عن ثلاث ، لا يعلمهن إلا نبى ، قال : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه

---

١ - سورة الشعراء الآية : ١٩٧

٢ - سورة البقرة الآيات : ١٤٦ ، ١٤٧

وسلم : أخبرنى بهن آنفا جبريل ، قال عبد الله بن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه فى الولد ، فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها . قال عبد الله بن سلام : أشهد أنك رسول الله ، ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك . فجاءت اليهود ودخل " عبد الله " البيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي رجل فيكم "عبد الله بن سلام"؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج عبد الله إليهم فقال : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقالوا : أشرنا وابن شرنا ووقعوا فيه .. » (١)

وبعد ، فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تعد من أكبر الشهادات ، بعد شهادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لمحمد بالنبوة والرسالة ، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها ..

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢)

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، ما لا يسعه المقام ، فلذا فإنا نكتفى من كل ذلك بشهادة عظيمة ، أقرها القرآن ، وسجلها فى صفحاته ، ألا وهى : شهادة الملك

---

١ - اخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء .

٢ - سورة الأحقاف الآية : ١٠ .

الصالح " أصحمة النجاشي " إذ جاء فيه وفيمن آمن معه ، قول الله تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت فى النجاشي وأصحابه المؤمنين ، فقولهم : ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ ، قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام ونبيه ، وكتابه ، و أمته ، ولنستمع إلى شهادة النجاشي - رحمه الله تعالى - من خلال رده على كتاب رسول الله ﷺ ، الذى رده ، وهو في دار ملكه ، وحاضر بلاده ، إذ جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله ، من النجاشي الأصحم بن أبحر ، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا الله هو الذى هدانى إلى الإسلام ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء

١ - سورة المائدة الآيات : ٨٢ - ٨٥

والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقربنا ابن عمك " جعفر " وأصحابه ، فأشـهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعـتك وبايعت ابن عمك ، وأسـلمت علي يديه لله رب العالمين ، وبعثت إليك يا نبى الله بأريحا بن الأصحم بن أبحر ، فإنى لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله . » (١)

(جـ) شهادة بلايين من المسلمين :

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد صلى الله عليه وسلم بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الايمان ، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى ، وجاهدوا دونه ، وبينهم العلماء ، والحكماء ، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الحصر ، ويتعذر الإحاطة بهم علما ، لهو من أعظم الشهادات ، وأقواها وأكثرها إقناعا للعقول ، وجلبا للطمأنينة والسكون فى نفوس المؤمنين بنبوة محمد ورسالته صلى الله عليه وسلم . (٢)

(د) شهادة الحق عز وجل وملائكته :

إن شهادة الله عز وجل وملائكته للنبى محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة ، قال تعالى : ﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٣)

ولولا كزازة النفوس ورعونتها - أى قبحها وحمقها - وظلمات الجهل بالله تعالى التى تغشى كثيرا من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة شهادة أبدا ، ولكن نظرا لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة ، وقفينا عليها بشهادة الله تعالى لتكون مسك الختام - التى لا يردها عاقل أبدا ..

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين : شهادة أخبار وشهادة معجزات .. فشهادة الأخبار أى أخباره تعالى فى كتابه عن وحيه ، واصطفائه لرسوله

---

١ - البداية والنهاية جـ ٣ ص٨٤ : وجاء فى أبى داود أن النجاشى قال : أشهد أنه رسول الله صلى الله علبه وسلم وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم .

٢ - عقيدة المؤمن ص ٢٩٤ - ٢٩٩ بتصرف

٣ - سورة النساء الآية : ١٦٦

وإرساله ونصرته إياه ، وشهادة المعجزات هي ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات ، إذ كل خارقة تقول بلسان حالها عن الله تعالى : صدق محمد عبدي ورسولي فيما أخبر عني من أني أرسلته وهو رسولي ..

* ومن شهادة الأخبار ، ما يلي :

قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[1]

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2]

كما قال : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[3]

وكذلك : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[4]

أيضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[5]

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[6]

وقال عز من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾[7]

---

١ - سورة الفتح الآية : ٢٩
٢ - سورة الأعراف الآية : ١٥٨
٣ - سورة البقرة الآية : ١١٩
٤ - سورة النساء الآية : ١٦٣
٥ - سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ . ٤٦
٦ - سورة المائدة الآية : ٦٧
٧ - سورة النساء الآية : ١٧٠.

ومن شهادة المعجزات ما يلى :

(١) نزول القرآن الكريم عليه وحيا ، أوحاه الله تعالى إليه ، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشرى ، إذ العادة قاضية بأن أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس بين يدى أستاذ ، أو مرب ومعلم قط ، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ، ومعرفته لها ، وتفوقه فيها فضلا عن أن يأتى بما لم يأت به غيره من كل معاصريه ، وممن يأتى بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون .. فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع ، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية ، وعلى أثبت الحقائق العلمية ، كنظام الزوجية والقوانين الكونية كما تعرض لبدء الخليقة ، وذكر من قصص الماضين وأخبار السابقين الشيء العجيب ، وأخبر بمغيبات عديدة ، فكانت كما أخبر حرفيا ، وبلا زيادة أو نقصان ..

هذا الكتاب يأتى به أمى يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله ، أو بعشر سور من مثل سوره ، أو سورة واحدة [1] فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم وتطأطئ رأسها وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيها محمد صلى الله عليه وسلم لتدل على صدق نبوته وثبوت رسالته ، عرف هذا - فداه أبى وأمى - حين قال : « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى إلَيَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . [2]

وهذه صورة التحدى قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة من سورة البقرة هى قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [3]

---

١ - راجع الآيات التى جاءت فى هذا التحدى . ٢ - متفق عليه ، واللفظ لمسلم
٣ - سورة البقرة الآيات ٢٣ ، ٢٤ .

فقوله تعالى : " ولن تفعلوا " أى الإتيان بسورة قرآنية من أمى مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى أميته ، ولا من غيره كذلك ، هذا التحدى وهو نفس الإتيان بسورة من أمى مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى أميته وقد مضى عليه الآن ما يزيد على الألف والأربعمائة سنة ، ولا يؤمل أبدا أن يأتى أحد ، مهما كان ، فيبطله بأن يأتى بسورة قرآنية ولو كانت كأقصر سورة ، هيهات هيهات ، إذ الله عز وجل يقول : " ولن تفعلوا " فما لم يكن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى ، وأنه نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]

فمن صاحب هذا الكتاب إذا لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ؟؟ هذا وليس القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان أعظمها وأخلدها ، فهو المعجزة المعنوية الباقية إلى يوم الدين ، وهناك معجزات حسية أخرى للنبى صلى الله عليه وسلم ، شأنه فى ذلك شأن بقية الأنبياء - عليهم السلام ، فضلا عما فضل به عنهم ، ومنها :

(٢) الإسراء به صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم العروج به إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى، فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وناداه ربه وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس .[2]

(٣) انشقاق القمر له صلى الله عليه وسلم ، حين طلبت قريش ذلك

---

١ - سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ - ١٩٥ ٢ - انظر أحاديث الاسراء والمعراج فى البخارى ومسلم

إستدلالا على نبوته صلى الله عليه وسلم فانشق القمر ، وكان فلقتان على جبل أبى قبيس ، وأهل مكة كلهم يشاهدون ويعجبون ، وأثبتت هذه الحادثة فى القرآن بقول الله تعالي :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[1]

(٤) تسليم الشجر والحجر عليه ، على مرأى من الناس ومسمع ، وعشرات المرات .[2]

(٥) تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم وأصحابه يسمعون ، وهم عدد كبير من خيار البشر .[3]

(٦) حنين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم ونطقه ، وسماع مئات الرجال الأخيار له ، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدهده كما تهدهد الأم طفلها ، فسكت .[4]

(٧) رده - صلى الله عليه وسلم - عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد ، فردها صلى الله عليه وسلم ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها .[5]

(٨) فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبية ، ثم سقى وروى جيشا كاملا قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة .[6]

(٩) تكثير الطعام يوم الخندق ، حتى أطعم - بصاع من شعير وجَدْي صغير - جيشا كاملا ، تعداده ألف رجل أو يزيدون .[7]

---

١ - سورة القمر الآية : ١ . والحديث فى الصحيحين .
٢ - الحديث فى مسلم والترمذى
٣ - رواه البخارى
٤ - الحديث فى البخارى
٥ - سيرة بن هشام
٦ - رواه البخارى
٧ - متفق عليه

(١٠) إخباره بالمغيبات الكثيرة ، فكانت كما أخبر ، وذكره علامات الساعة ، فكانت كما ذكر ، وهى - ولا شك - أنها من الكثرة بمكان [١] ونذكر منها على سبيل المثال :

قوله صلى الله عليه وسلم - فى الحسن بن على رضى الله عنه - « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » [٢] فكان كما أخبر ، وقوله : - فى " عمار بن ياسر " ، وهو يحمل اللَّبِنَ لبناء المسجد - «تقتلك الفئة الباغية»،[٣] فكان كما قال، فقد قتل عمار فى حرب « على ومعاوية » ، قتله جيش الشام .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « سيكون فى آخر أمتى رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال ، ينزلون بها على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات ، على رؤسهن البخت العجاف ، العنوهن فإنهن ملعونات » . [٤]

فما هذه المركوبات - يا ترى - التى أخبر أنها سيركبها رجال من أمته ؟ إنها كسرج الفرس وليست بفرس ، وإنها لتشبه رَحْلَ البعير ولكن ليست على البعير ، إنها قطعا السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادى ، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التى تقطع مئات الأميال فى بضع ساعات ، حاملة الركاب وأمتعتهم ؟ والجواب : لا ، ولكن الوحى المحمدى أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر ، وتمضى الأجيال جيلا بعد جيل ، إلى القرن الثالث عشر الهجرى حيث ظهر ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، وركب الناس على السروج كأشباه الرحال ، ونزلوا بها على أبواب المساجد ..

ثم ، هل عـرفت الدنيـا يوم أخبـر الرسول صلى الله عليـه وسلم بـ " المينى

١ - راجع : نهاية الفتن والملاحم لابن كثير
٢ - أخرجه البخارى
٣ - أخرجه مسلم
٤ - رواه أحمد بسند صحيح

جيب " ؟ وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشى فى الشوارع بين المسلمين وهى كاشفة عن فخذيها ، وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها ؟ وهل عرفت النساء - كل النساء - كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل ، فى غير القرن العشرين ؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا ، وتخرج بارزة فى الشوارع والطرقات ؟ والجواب لا ، ولكن ما أخبر به محمد الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحقق وهو من الغيب فى أعماق المجهول ، فكان ذلك آية أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه والمؤمنين به ، الناهجين نهجه ، المستقيمين علي صراطه المستقيم إلى يوم الدين .[1]

---

١ - عقيدة المؤمن - ص ٢٩٩ - ٣٠٥ بتصرف

النبى محمد صلى الله عليه وسلم

خاتم النبيين

إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة ، وهى نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق من مطمع لأحد فى أن يدعى النبوة ، أو يؤتاها بعد نبوة محمد النبى الأمى أبدا ، ومن جهل هذه الحقيقة ، أو تجاهلها تضليلا وخداعا وادعى النبوة فقد كذب على الله ، وأعظم الفرية عليه ، وكَذَبَه فى قوله ، وكَذَبَ على خلقه ، ولم يلبث طويلا حتى يفتضح شر فضيحة ، ويلعن بين الناس ، كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين ، مثل " مسيلمة الكذاب " ، فى الأولين ، و"أحمد مرزا غلام" فى الآخرين ، عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .. وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(١)

ولا يحق لواحد أن يقول : محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وأنا خاتم المرسلين ، كما زعمه بعض الدجالين الكذابين ، ذلك لأن من ختمت به النبوة ختمت به - من باب أولى - الرسالة ، إذ كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا ، فإذا أغلق الباب من أصله ، فكيف بالدخول إلي فرعه ، فالنبوة أصل والرسالة مبنية عليه ..

فخاتم الأنبياء والرسل قطعا هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما ذُكِرَ فى الآية السابقة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إن مثلي ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية

١ - سورة الأحزاب الآية : ٤٠.

من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .. [1] وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لى أسماءً ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد » [2] .. هذا وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم عن وجود من يزعم النبوة ، ومجئ كذابين من بعده ، فقال : « إنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى » . [3]

ومن أقوى الأدلة ، وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لسائر النبوات ، أن يمضى الآن ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة على الإعلان بختم النبوات بنبوته صلى الله عليه وسلم ، ولم تأت نبوة حق ، ولا نبى صدق ، فى كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة ، فى حين أنه كان قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تظهر النبوات فى كل عصر ومصر ، وقد يوجد العدد من الأنبياء فى الأمة الواحدة ، والبلد الواحد ، كما هو معلوم فى التاريخ البشرى ، وفى جانبه الدينى بالخصوص .

فالواجب على كل إنسان فى هذا الوجود البشرى أن يؤمن بهذا النبى ، ويتبع ما جاء به من الحق والهدى ، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به وباتباع ما جاء به فى مثل قوله تعالى :

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَا ﴾ [4]

ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته ، وهى الفوز بالجنة بعد النجاة من

---

١ - متفق عليه

٢ - متفق عليه ، واللفظ لمسلم

٣ - متفق عليه بمعناه ، وبلفظه لأبى داود ، وأحمد

٤ - سورة التغابن الآية : ٨

النار بمن آمن به واتبعه فيما جاء به صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾[1]

ا . هـ .[2]

---

١ - سورة الأعراف الآيات : ١٥٦ ، ١٥٧

٢ - عقيدة المؤمن ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ بتصرف

مكانة النبى صلى الله عليه وسلم وأفضليته

لقد أرسل الله عز وجل الأنبياء والرسل ، وجعل بينهم أفضلية ، ولهم درجات ، كما قال تعالى :

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾(١)

ولقد جعل الله عز وجل الدرجة العليا لنبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق ، وحبيب الحق ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأولين والآخرين ، وسيد المتقين ، وحامل لواء الشفاعة يوم الدين .

ولقد ذكر الله عز وجل مكانة النبى صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم إذ جعله خاتم الأنبياء ، وذكره أولهم ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾(٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾(٣)

كما أن الله عز وجل أخذ الميثاق علي كل الأنبياء والرسل الإيمان بالنبى

١ - سورة البقرة الآية : ٢٥٣
٢ - سورة النساء الآية : ١٦٣
٣ - سورة الأحزاب الآية : ٧

محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1]

وغير ذلك من الآيات ..

فإذا نظرنا فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث بنعمة الله عز وجل - عليه ، فقال فيما قال : « أنا سيد الأولين والآخرين يوم القيامة » .. ثم ذكر حديث الشفاعة[2] وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأول من يحرك حِلَق الجنة ، وقد جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى .. » .[3]

وأحاديث أخرى كثيرة ، وردت فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى فضل أمته ، وعلو درجته ،وعظيم منزلته ، على كل البشر ، بل وهداة البشر وهم الأنبياء ، وكذلك سائر المخلوقات .[4]

ومع ذلك كله ، فهو صلى الله عليه وسلم عبد من عباد الله ، وبشر من خلق الله ، لا يمكن أن يكون إلها أو ابن اله أو شريكا مع الله ، كما زعمت ذلك النصارى فى نبيهم ، ولا يمكن أن يتخلى عن بشريته وعبوديته لله عز وجل .

١ - سورة آل عمران الآية : ٨١
٢ - الحديث رواه البخارى ومسلم
٣ - رواه البخارى بمعناه
٤ - راجع ذلك بتوسع فى الصحيحين وغيرهما

عبودية النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبشريته

إننا نعتقد أفضلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلو درجته ، وعظم مكانته ، ولكن ذلك لا يخرجه عن صفة العبودية لله عز وجل ، إذ هى الشرف ذاته ، والفضل نفسه ، ولذلك فالله عز وجل يصف رسوله بأشرف الصفات ،وهو العبودية ، فى أشرف المقامات وأخلدها ذكرا ، وأجلها أثرا وغاية ، فيقول تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(1)

يصفه ربه بالعبودية الصرفة الخالصة وحدها فى تلك الليلة التى استشرف فيها قمة السمو الأعظم ، وتألقت أمجاده الخوالد الذكريات ، العبودية ، حتى فى تلك الليلة التى وقف فيها دون عرش ربه الأعظم ، يقتبس من نور الله وهداه ، فما بالك به فى كل أصائل عمره وعشاياه ؟ ويصفه ربه بالعبودية في مقام الدعوة إليه

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾(2)

فتدبر إضافة " عبد " إلى " الله " ليغمر يقين الحق قلبك .

ويصفه سبحانه بالعبودية فى مقام هو الفيصل الحق الأكبر بين كون محمد دعيا وكونه نبيا ، وذلك هو مقام التحدى بالمعجزة العظمى ، معجزة القرآن ،

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾(3)

وكذلك لما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم القرآن :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾(4)

---

١ - سورة الاسراء الآية : ١

٢ - سورة الجن الآية : ١٩

٣ - سورة البقرة الآية : ٢٣

٤ - سورة الكهف الآية : ١

والرسول نفسه يضع لنا على الطريق بصمات حق ومنارات هدى ، حتى لا نحيد فنهلك ، ويرشدنا إلى الحق حتى لا نزيغ عنه ، فيقول صلى الله عليه وسلم « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[1] تدبر ما ذكرتك به من آيات الله ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، لتؤمن أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده ، والعبودية الكاملة لله عز وجل ، وأنه كان بشرا يوحى إليه ، كما قال تعالى :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2]

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[3]

فنفى البشرية عن النبى صلى الله عليه وسلم بزعم النورانية ، ضلال مبين ، وبعد عن الدين .. إننا لا ننكر نورانية للنبى ﷺ لا تتضاد مع بشريته، فهى نورانية معنوية ، نورانية إيمان وعلم وقرآن ، وليست من نور الله ، لأن هذا كفر ، فيه تجسيم للذات الإلهية ، ورفع للنبى ﷺ إلى درجة البنوة أو الألوهية ، وليست من نور الملائكة ، لأن النبى ﷺ بشر وليس بملك ، ولم يرسل الله عز وجل نبيا ملكا ، ولأنه ﷺ أفضل من الملائكة ، وعلى رأسهم " جبريل " عليه السلام ، وليست نورانية حسية ، كما زعمت المتصوفة ، إذ هذا ليس فيه أفضلية ، ولا دليل عليه ، وفيه من الهراء والكذب ما فيه .. فنورانية النبى ﷺ ، كما قال تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[4]

ا . هـ .[5]

---

١ - رواه البخارى ومسلم ٢ - سورة الاسراء الآية : ٩٣ ٣ - سورة الكهف الآية : ١١٠

٤ - سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ ، ٤٦ ٥ - انظر بتوسع فى كتاب " شبهات المتصوفة "

وعقيدتنا فى الأسماء والصفات هى عقيدة السلف الصالح

وإليك مجمل اعتقاد السلف فى توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات

الإيمان بأسماء الله وصفاته أحد أركان الإيمان بالله تعالى ، وهى الإيمان بوجود الله تعالى ، والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته ، والإيمان بأسمائه وصفاته، والإيمان بكماله سبحانه وتعالى.

وتوحيد الأسماء والصفات أحد أقسام التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات، فمنزلته فى الدين عالية ، وأهميته عظيمة ، ولا يمكن لأحد أن يعبد الله على الوجه الأكمل، حتى يكون على علم بأسماء الله تعالى وصفاته ليعبده على بصيرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾(١)

وهذا شمل دعاء المسألة ودعاء العبادة .

فدعاء المسألة أن تقدم بين يدى مطلوبك من أسماء الله تعالى ما يكون مناسبا مثل أن تقول : يا غفور اغفر لى، ويا رحيم ارحمني .. ونحو ذلك.

ودعاء العبادة أن تتعبد لله تعالى بمقتضى هذه الأسماء ، فتقوم بالتوبة إليه لأنه التواب ، وتذكره بلسانك لأنه السميع ، وتتعبد له بجوارحك لأنه البصير ، وتخشاه فى السر لأنه اللطيف الخبير ، وهكذا .

* هذا ويجب الاعتقاد بأن أسماء الله تعالى كلها حسنى ، أى بالغة فى الحسن غايته ، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديراً .

مثال ذلك : «الحى» اسم من أسماء الله تعالى متضمن للحياة الكاملة

---

(١) سورة الأعراف . ١٨٠ .

التى لم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال ، الحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها .

ومثال آخر، «العليم» اسم من أسماء الله متضمن للعلم الكامل ، الذى لم يُسبق بجهل ، ولا يلحقه نسيان ، قال تعالى :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (١)

العلم الواسع المحيط بكل شىء جملة وتفصيلاً ، سواء ما يتعلق بأفعاله، أو أفعال خلقه ، قال الله تعالى :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢).

* أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف ، فهى أعلام ، باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعانى :وهى بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد ، وهو الله عز وجل ، وبالاعتبار الثانى متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص فى الحى، العليم ، القدير ، السميع ، البصير، الرحمن ، الرحيم ، العزيز ، الحكيم ، كلها أسماء لمسمى واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى .

لكن معنى الحى غير معنى العليم ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا.

صفات الله تعالى كلها صفات كمال ، لا نقص فيها بوجه من الوجوه .

* الواجب فى نصوص القرآن والسنة اجراؤها على ظاهرها دون تحريف لا سيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأى فيها ، وظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر ، باعتبار المعني هى

---

(١) سورة طه : ٥٢ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

معلومة ، وباعتبار الكيفية التى هى عليها مجهولة ، وبذلك يكون التفويض فى علم معانى نصوص الصفات ليس من مذهب السلف ، لأنهم قد أثبتوا المعانى لهذه النصوص إجمالاً وتفصيلاً، وتفويضهم للكيفية ، فقد جعلوا ذلك إلى علم الله عز وجل .

* * *

منهج السلف الصالح فى الأسماء والصفات

- إثبات ما أثبته الله لنفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

* التحريف : لغة : التغيير، واصطلاحًا : تغيير لفظ النص أو معناه، مثال الأول : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ (١)

بنصب لفظ الجلالة ، ليكون التكليم من موسى لا من الله ، ومثال تغيير المعنى ، تغيير معنى استواء الله على عرشه من العلو والاستقرار إلى الاستيلاء والملك لينتفى معنى الاستواء الحقيقى .

* التعطيل لغة الترك والتخلية ، واصطلاحًا : إنكار ما يجب لله من الأسماء والصفات ، إما كلية كتعطيل الجهمية ، وإما جزئيا كتعطيل الأشعرية الذين لم يثبتوا من صفات الله إلا سبع صفات، مجموعة فى قولهم : حى عليم قدير والكلام له إرادة وكذلك السمع والبصر .

* التكييف والتمثيل : فالتكييف إثبات كيفية الصفة، كأن يقول : استواء الله على عرشه كيفيته كذا وكذا، والتمثيل إثبات مماثل للشئ كان يقول : يد الله مثل يد الإنسان.

---

(١) سورة النساء : ١٦٤ .

والفرق بينها أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل ، والتكييف ذكرها غير مقيدة.

- أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية ، والتوقيفى ما توقف إثباته أو نفيه على الكتاب والسنة بحيث لا يجوز إثباته ولا نفيه إلا بدليل منها فليس للعقل فى ذلك مجال لأنه شيء وراء ذلك .

- وأسماء الله وصفاته من المحكم فى معناها ، فمعناها معلوم ، ومن المتشابه فى حقيقتها ، لأن حقائقها لا يعلمها إلا الله .

- وتنقسم صفات الله تعالى باعتبار الثبوت وعدمه إلى قسمين : ثبوتية وهى التى أثبتها الله لنفسه كالحياة والعلم ، وسلبية وهى التى نفاها الله عن نفسه كالإعياء والظلم.

والصفة السلبية يجب الإيمان بما دلت عليه من نفى ، وإثبات ضده ، فقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1]

يجب الإيمان بانتفاء الظلم عن الله وثبوت ضده وهو العدل الذى لا ظلم فيه.

- وتنقسم صفات الله باعتبار الدوام والحدوث إلى قسمين : صفات دائمة لم يزل ولا يزال متصفا بها كالعلم والقدرة ، وتسمى صفات ذاتية. وصفات تتعلق بالمشيئة إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها كنزوله إلى السماء الدنيا ، وتسمى صفات فعلية، وربما تكون الصفة ذاتية فعلية لاعتبارين كالكلام فإنه بالنظر إلى أصله صفة ذاتية ، لأن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا ، وباعتبار آحاده وأفراده التى يتكلم بها شيئًا فشيئًا صفة فعلية، لأنه يتعلق بمشيئته .

- طريقة القرآن والسنة فى صفات الله تعالى هى الإجمال فى النفى، والتفصيل فى الإثبات غالبًا . لأن الإجمال فى النفى أكمل وأعم فى التنزيه من التفصيل ، والتفصيل فى الإثبات أبلغ وأكثر من المدح فى

---

(١) سورة الكهف : ٤٩ .

الإجمال، ولذلك نجد الصفات الثبوتية كثيرة فى الكتاب والسنة كالسميع، البصير، العليم، القدير. الغفور، الرحيم ...الخ، أما الصفات السلبية فهى قليلة مثل نفى الظلم والتعب والغفلة والولادة والمماثل والند والمكافئ.

- الإيمان بأن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

ونؤمن بأن الله عز وجل علىٌّ على خلقه بذاته وصفاته لقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣)

ونؤمن بأنه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ (٤)

واستواؤه على العرش علوه عليه بذات، علواً خاصًا يليق بجلاله وعظمته ، لا يعلم كيفيته إلا هو .

- ونؤمن بأن الله تعالى مع خلقه وهو على عرشه ، يعلم أحوالهم ويسمع أقوالهم ويرى أفعالهم ، ويدبر أمورهم ، يرزق الفقير ، ويجبر الكسير ، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة ، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٥)

ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم إنه مع خلقه فى الأرض، ونرى أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال لأنه وصف الله بما لا يليق به من النقائص.

---

(١) سورة الشورى : ١١، ١٢ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٣) سورة الأنعام : ١٨ .
(٤) سورة يونس : ٣ .
(٥) سورة الشورى : ١١ .

ـ ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: «أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له، ومن يسألنى فأعطيه، ومن يستغفرنى فأغفر له»[1] .

ـ فهو إثبات الأسماء والصفات ، مع نفى مماثلة المخلوقات ، إثباتًا بلا تشبيه ، وتنزيها بلا تعطيل ، كما قال تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2]

ففى قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾

رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

رد للإلحاد والتعطيل .

ولهذا إذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره ، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم ، مضافة إليهم ، توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، فلا يلزم من اتفاق الاسمين ، تماثل مسماها واتحاده عند الإطلاق والتجريد، فلابد من اثبات ما أثبته الله لنفسه ، ونفى مماثلته بخلقه .

* القول فى بعض الصفات كالقول فى بعض، أو إثبات بعض الصفات إثبات للباقى .

والقول بالصفات كالقول بالذات .

* * *

---

(١) رواه البخارى وغيره .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

إثبات الصفات الذاتية لله تعالى

مثل الوجه : صفة الله الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١)

والجلال : العظمة ، والإكرام : إعطاء الطائعين ما أعد لهم من الكرام.

ولا يجوز تفسير الوجه بالثواب ، لأنه مخالف لظاهر اللفظ ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل.

اليد : إن يدى الله من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به، يبسطها كيف يشاء، ويقبض بهما ما شاء ، ودليلها قوله تعالى :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٣)

ولا يجوز تفسير اليدين بالقوة لأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل، وفى السياق ما يمنعه وهو التثنية، لأن القوة لا يوصف الله بها بصيغة التثنية .

العين : إن عين الله من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ينظر بهما ويبصر ويرى ، ودليل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٤) وقوله ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٥)

وقوله ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٦)

ولا يجوز تفسيرهما بالعلم ولا بالرؤية مع نفى العين لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف على ثبوت العين لله ، ولا دليل عليه.

والجواب عن تفسير بعض السلف قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾(٦)

---

(١) سورة الرحمن : ٢٧ . (٢) سورة المائدة : ٦٤

(٣) سورة ص : ٧٥ . (٤) سورة طه : ٣٩

(٥) سورة الطور : ٤٨ . (٦) سورة القمر: ١٤ .

أى برأى منا، أنهم لم يريدوا بذلك نفى حقيقة معنى العين، وإنما فسروها باللازم مع إثباتهم العين، وهذا لا بأس به، بخلاف الذين يفسرون العين بالرؤية وينكرون حقيقة العين.

* الوجوه التى وردت عليها صفة اليدين والعينين : لقد وردت هاتان الصفتان على أوجه : إفراد ، وتثنية وجمع .

فمثال الإفراد : قوله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ (١)

كذلك قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (٢) .

ومثال التثنية : قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٣)

وفى الحديث الشريف «إذا قام أحدكم يصلى فإنه بين عينى الرحمن» (٤).

ومثال الجمع : قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ (٥)

و ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٦) .

والجمع بين هذه الوجوه : أنه لا منافاة بين الإفراد والتثنية ، لأن المفرد المضاف يعم ، فإذا قيل : يد الله ، وعين الله، شمل كل ما ثبت له من يدٍ أو عين. وأما التثنية والجمع فلا منافاة بينهما أيضاً ، لأن المقصود بالجمع هنا التعظيم وهو لا ينافى التثنية .

السمع : سمع الله تعالى من الصفات الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٧)

وينقسم إلى قسمين :

---

(١) سورة الملك : ١ .
(٢) سورة طه : ٣٩ .
(٣) سورة المائدة : ٦٤ .
(٤) لم أقف عليه بنصه ، وإنما بنحوه فى مسلم والنسائى وأبى داود .
(٥) سورة يس : ٧١ .
(٦) سورة القمر : ١٤ .
(٧) سورة البقرة : ١٣٧ .

الأول : بمعنى الإجابة ، وهذا من الصفات الفعلية ، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (1) .

الثاني : بمعنى إدراك المسموع، وهذا من الصفات الذاتية ، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ... ﴾ (2) .

وهذا القسم قد يراد به مع إدراك المسموع، النصر والتأييد كقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (3) .

وقد يراد به أيضًا التهديد كقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ﴾ (4)

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ .... ﴾ (5)

الرؤية : الرؤية صفة من صفات الله الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ، وتنقسم إلى قسمين :

أحدهما : بمعنى البصر وهو إدراك المرئيات والمبصرات ، ودليلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (6). وقوله: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (7) .

والقسم الثاني : الرؤية بمعنى العلم ، ودليلها قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ (8). أي نعلمه .

والقسم الأول من الرؤية قد يراد به مع إدراك المرئي النصر والتأييد مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (9).

وقد يراد به أيضًا التهديد كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (10).

---

(1) سورة إبراهيم : 39 .
(2) سورة المجادلة : 1 .
(3) سورة طه : 46 .
(4) سورة آل عمران : 181 .
(5) سورة الزخرف : 80 .
(6) سورة طه : 46 .
(7) سورة الشورى : 11 .
(8) سورة المعارج : 6، 7 .
(9) سورة طه : 46 .
(10) سورة العلق : 14 .

الكلام: قول أهل السنة فى كلام الله أنه صفة من صفاته تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكلام حقيقى، بصوت - لا يشبه أصوات المخلوقين - وحروف يتكلم بما شاء وكيف شاء ، وأدلتهم على ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى :

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ (٢).

والدليل على أنه بصوت ، قوله تعالى :

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ (٣).

ومن السنة قوله ﷺ : يقول الله تعالى : « يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادى بصوت أن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، فيقول يا ربى: وما بعث النار ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ... » الحديث (٤) .

ودليلهم على أنه بحروف قوله تعالى :

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ (٥) فمقول القول هنا حروف .

ودليلهم على أنه بمشيئة، قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ (٦).

فالتكليم حصل بعد مجيء موسى عليه السلام .

وكلام الله تعالى صفة ذات باعتبار أصله ، فإن الله لم يزل ولا يزال قادراً على الكلام متكلمًا .

وصفة فعل باعتبار آحاده ، لأن آحاد الكلام تتعلق بمشيئته، متى شاء تكلم .

---

(١) سورة النساء : ١٦٤ .
(٢) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(٣) سورة مريم : ٥٢ .
(٤) متفق عليه .
(٥) سورة البقرة : ٣٥
(٦) سورة الأعراف : ١٤٣ .

القـدم : القدم ثابت لله تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم يلقى فيها وهى تقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها رجله ـ وفى رواية ـ عليها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعضها وتقول قط قط. . »[1] وفسر أهل السنة الرجل والقدم بأنها حقيقة على الوجه اللائق بالله .

ـ وفسر أهل التأويل الرجل بالطائفة أى الطائفة الذين يضعهم الله فى النار ، والقدم بالمقدمين إلى النار.

ويرد عليهم بأن تفسيرهم مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل.

وكذا جاءت بلفظ «الساق» فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [2] .

وقد فسرها حديث النبى ﷺ « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة. . » إلى آخر الحديث الذى فسر به الآية »[3].

وإن ذكر عن ابن عباس قوله فى الآية : « هو يوم القيامة، يوم كرب وشدة ، فإن كلامه عن معنى اليوم ، ولا يتنافى مع ذكر الساق ، ولا يتعارض ، ولأن تفسير الحديث للآية واضح، وهو خير أنواع التفسير ، فالرسول ﷺ ـ وهو المبلغ عن ربه ـ أعلم بتفسير كلام الله ومراده، وقد أثبت الساق لله، فى قوله «يكشف ربنا عن ساقه».

فهل يجوز لمسلم أن يترك تفسير الرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى، ويأخذ بتفسير غيره المعرض للخطأ ؟!! .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد .
(٢) سورة القلم : ٤٢ .
(٣) رواه البخاري .

إثبات الصفات الفعلية لله تعالى

مثل: محبة الله، ودليلها ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[(1)]

أو **الود** في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾[(2)].

والود خالص المحبة، ولا يجوز تفسير المحبة بالثواب، لأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وليس عليه دليل.

ومثل: «المغفرة والرحمة لله» في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[(3)]

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة صفة تقتضي الإحسان والإنعام. وتنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة هي: الشاملة لكل أحد، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[(4)]

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[(5)].

والخاصة: التي تختص بالمؤمنين، ودليلها قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[(6)] ولا يصح تفسير الرحمة بالإحسان، لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف ولا دليل عليه.

الرضا والغضب والكراهة والمقت والأسف:

الرضا: صفة من صفات الله مقتضاها محبة المرضى عنه والإحسان إليه، ودليلها قوله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[(7)].

والغضب: صفة من صفات الله مقتضاها كراهة المغضوب عليه والانتقام

---

(1) سورة المائدة: ٥٤.
(2) سورة البروج: ١٤.
(3) سورة الفتح: ١٤.
(4) سورة الأعراف: ١٥٦.
(5) سورة غافر: ٧.
(6) سورة الأحزاب: ٤٣.
(7) سورة التوبة: ١٠٠ وغيرها.

منه ، وقريب منها صفة السخط ، ودليل اتصاف الله بها قوله تعالى :

﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾[1]

وكذلك : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾[2].

والكراهة: صفة من صفات الله الفعلية مقتضاها إبعاد المكروه ومعاداته، والدليل عليها قوله تعالى :

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾[3]

والمقت: أشد البغض ، والبغض قريب من معنى الكراهية ، ودليل المقت في قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[4].

والأسف: له معنيان، أحدهما : الغضب ، وهذا جائز على الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[5] أي أغضبونا .

والثاني: الحزن ، وهذا لا يجوز على الله أن يوصف به، لأن الحزن صفة نقص، والله منزه عن النقص .

ولا يجوز تفسير الرضا بالثواب ، والغضب بالانتقام، والكراهة والمقت بالعقوبة ، لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف وليس عليه دليل .

المجئ والإتيان: من صفات الله الفعلية وهما ثابتتان لله على الوجه اللائق به، ودليلهما قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[6]

وقوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[7]

ولا يصح تفسيرهما بمجيء أو إتيان أمره، لأنه مخالف لظاهر اللفظ،

---

(١) سورة النساء : ٩٣ .
(٢) سورة محمد : ٢٨ .
(٣) سورة التوبة : ٤٦ .
(٤) سورة الصف : ٣ .
(٥) سورة الزخرف : ٥٥ .
(٦) سورة الفجر : ٢٢ .
(٧) سورة البقرة : ٢١٠ .

وإجماع السلف، ولا دليل عليه.

النـزول: للحديث «ينزل ربنا إلى السماء كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له»[1] ومعنى النزول عند أهل السنة أنه ينزل بنفسه سبحانه نزولاً حقيقيًا يليق بجلاله ولا يعلم كيفيته إلا هو ، وقالوا: إن نزوله - سبحانه وتعالى - إلى السماء الدنيا لاينافى علوه ، لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يقاس نزوله بنزول مخلوقاته .

وليس كما هو عند أهل التأويل نزول أمره لأنه خلاف ظاهر النص وإجماع السلف، ولأن أمر الله ينزل فى كل وقت ،وليس خاصًا بثلث الليل الآخر، ولأن الأمر لا يمكن أن يقول : من يدعونى فأستجيب له ....الخ !!

الفرح والضحك والعجب :

الفـرح : ثابت لله لقوله صلى الله عليه وسلم : «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته... »[2] الحديث .

وهو فرح حقيقى يليق بالله، ولا يصح تفسيره بالثواب، لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف .

الضحك : ثابت لله تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم: « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخلان الجنة »[3]. وفسره أهل السنة والجماعة بأنه ضحك حقيقى يليق بالله . وفسره أهل التأويل بالثواب ، ونرد عليهم بأنه مخالف لظاهر اللفظ، وإجماع السلف، وحول معنى الحديث أن كافراً يقتل مسلمًا فى الجهاد، ثم يسلم ذلك الكافر ويموت على الإسلام فيدخلان الجنة كلاهما .

والعجب : ثابت لله تعالى لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « عجب

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

ربنا من قنوط عباده وقرب غيره »[1] الحديث . والممتنع على الله من العجب هو ما كان سببه الجهل بطرق المتعجب منه ، فإن الله لا يخفى عليه شيء ، أما العجب الذى سببه خروج الشىء عن نظائره، أو عما ينبغى أن يكون عليه، فإن ذلك ثابت لله . وقد فسره أهل السنة بأنه عجب حقيقى يليق بالله ، وفسره أهل التأويل بثواب الله أو عقوبته ، ويرد عليهم بأنه خلاف ظاهر النص وإجماع السلف .

* * *

---

(٣) رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح، بلفظ « يضحك » .

العلو ـ الإستواء ـ المعية ـ هل الله فى السماء ؟

«العلو» بمعنى الارتفاع ، وهو على ثلاثة أقسام :

١ـ علو الذات :ومعناه أن الله بذاته فوق خلقه .

٢ـ علو القَدْر : ومعناه أن الله ذو قدر عظيم لا يساويه فيه أحد من خلقه ولا يعتريه معه نقص.

٣ـ علو القهر : ومعناه أن الله تعالى قهر جميع المخلوقات ، فلا يخرج أحد منهم عن سلطانه وقهره .

وأدلة العلو من الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة .

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [١]

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[٢] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[٣]

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٤] ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[٥] .

ومن السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: «ربنا الله الذى فى السماء»[٦] و«إقراره الجارية حين سألها: أين الله ؟ قالت: فى السماء ، فلم ينكر عليها ، بل قال اعتقها فإنها مؤمنة»[٧]، وفى حجة الوداع أشهد النبى صلى الله عليه وسلم ربه على إقرار أمته بالبلاغ، وجعل يرفع أصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الناس وهو يقول : « اللهم اشهد »[٨] .

واما الإجماع على علو الله فهو معلوم بين السلف ولم يعلم أن أحداً منهم قال بخلافه.

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٢) سورة الأعلى : ١ .
(٣) سورة النحل : ٥٠ .
(٤) سورة طه : ٥ .
(٥) سورة الملك : ١٦ .
(٦) رواه مسلم .
(٧) رواه مسلم وأبو داود والنسائى .
(٨) رواه مسلم .

وأما العقل فلأن العلو صفة كمال، والله سبحانه متصف بكل كمال، فوجب ثبوت العلو له.

وأما الفطرة فإن كل إنسان مفطور على الإيمان بعلو الله، ولذلك إذا دعا ربه وقال يا رب لم ينصرف قلبه إلا إلى السماء.

وقد أنكرت الجهمية من أقسام العلو علو الذات، ونرد عليهم بما سبق من الأدلة.

هل العلو يعنى الجهة؟ معلوم أنه ليس فى النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه، كما فيه إثبات العلو والاستواء، والفوقية والعروج إليه، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مباين للمخلوق - سبحانه وتعالى - ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، فيقال لمن نفى الجهة: أتريد بالجهة أنها شيء مخلوق؟ فالله ليس داخلا فى المخلوقات، أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات.

وكذلك يقال لمن قال الله فى جهة. أتريد بذلك أن الله فوق العالم؟ أو تريد به أن الله داخل فى شيء من المخلوقات؟

فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثانى فهو باطل. فالله تعالى فوق خلقه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

وكذلك لفظ التحيز، إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر، بل قد وسع كرسيه السموات والأرض، وقد قال تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[1].

وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقبض

---

(١) سورة الزمر: ٦٧.

الله الأرض ويطوى السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ »[1] وفى حديث آخر: وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة» وفى حديث ابن عباس: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن فى يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»[2].

وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات: أي مباين لها منفصل عنها ليس حالا فيها، فهو سبحانه كما قال أئمة السنة: فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه. وذلك بالكيفية التي يعلمها الله جل شأنه عن نفسه، وهو الذي أراده الإمام مالك بقوله: «الاستواء معلوم والكيف مجهول» . وفى معنى أنه بائن من خلقه. بائن لغة: اسم فاعل من بان إذا افترق وظهر، ومنه البين، وهو الفراق، كقول الشاعر: بانت سعاد...، ومن المعنى اللغوى نستنتج أن مرادهم ببائن عن خلقه أي أنه سبحانه وتعالى منفصل عنهم ومتميز عليهم.

ومن كلام العلماء فى هذه المسألة ما ذكره ابن أبى العز الحنفى رحمه الله تعالى عند شرحه قول الطحاوى «وتعالى عن الحدود والغايات».

فقد بين رحمه الله أن الناس على ثلاث طوائف فى هذه المسألة، فمنهم من ينفي ذلك، ومنهم من يثبته، ومنهم من يفصل في ذلك، وهذا لأن هذا الكلام مجمل، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة، ومن هنا يعلم أن مراد الطحاوى رحمه الله تعالى من هذا الكلام: أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم، مباين لهم، سئل عبد الله بن المبارك: بم تعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد.

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه

---

(١) متفق عليه .

(٢) سنن ابن ماجه، موقوفا. بسند صحيح .

المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة فى نفس الأمر أصلا، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفى وجود الرب ونفى حقيقته. قلت: وفى هذا عين مباينة الله لخلقه، وفيه رد على أهل الحلول الذين يقولون بحلول الله فى خلقه أو في بعض خلقه كما تقول النصارى بأنه يحل فى عيسى عليه السلام، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن قولنا « بائن عن خلقه» فيه رد على أهل وحدة الوجود القائلين بأن الله هو عين كل موجود، نسأل الله السلامة، ونعوذ بالله من أهل الزيغ والضلال.

* * *

استواء الله على عرشه

معنى استواء الله على عرشه علوه واستقراره عليه، وقد جاء عن السلف تفسيره بالعلو والاستقرار والصعود والارتفاع، والصعود والارتفاع يرجعان إلى معنى العلو، ودليله قوله تعالى:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[1] وقد ذكر في سبعة مواضع من القرآن، ويرد على من فسره بالاستيلاء والملك بأنه خلاف ظاهر النص، وأنه خلاف ما فسره به السلف، وأنه يلزم عليه لوازم باطلة.

والعرش لغة: سرير الملك الخاص به، وشرعًا: ما استوى الله عليه، وهو من أعظم مخلوقات الله، بل أعظم ما علمنا منها، فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسى إلا كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[2].

وأما الكرسي فقيل هو العرش، والصحيح أنه غيره، كما ثبت فى الحديث السابق، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما فى تفسير الآية، ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾[3] أنه قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى.

وقال السدى: السموات والأرض فى جوف الكرسي بين يدي العرش.

وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد، ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[4].

---

(١) سورة طه : ٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد
(٣) سورة البقرة : ٢٥٥
(٤) رواه ابن جرير . انظر فتح المجد

فهو إذن ـ كما قال غير واحد من السلف ـ بين يدى العرش كالمرقاة إليه، وأما العرش فكما سبق أن عرفناه.

وهناك من يعرفه بتعاريف تخالف مفهوم الآيات والأحاديث الواردة في هذا المضمار، وقد ذكر صاحب الطحاوية «وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه بالفلك الأطلس، والفلك التاسع، وهذا ليس بصحيح، وكل هذا حتى توائم ذوقهم وقواعد أصول مذهبهم.

قال صاحب الطحاوية أيضا: «وهو ـ سبحانه ـ مستغنٍ عن عرشه وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه» لأن الله غني عن العالمين، ولو أن جميع الخلق انقادوا إليه ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو أن جميع الخلق عصوه ما نقص ذلك من ملكه شيئًا. واستواء الله على عرشه، ليس لحاجة إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويا للعالى، محيطا به حاملا له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرا إليه. ولا يجوز أن يظن متوهم أنه سبحانه إذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والأنعام، فيتخيل أنه إذا كان مستويا على العرش كان محتاجًا إليه كحاجة المستوى على الفلك والأنعام، فلو غرقت السفينة لسقط المستوى عليها، ولو عثرت الدابة لخر المستوى عليها، فقياس هذا أنه لو سقط العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى!!!.

فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، من احتياج أو حمل أو افتقار أو نحو ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل إليه وغناه هو سبحانه عن العرش وإحاطته عز وجل به، فهو ـ سبحانه ـ فوق العرش، مع حمله ـ بقدرته ـ للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش وعدم احاطة العرش به،

وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له. فهو استواء يخصه سبحانه وتعالى، الغني عن كل ما سواه، فليس العرش يحمله، ولا الكرسي يسنده، بل العرش وحملته، والكرسي وعظمته، الكل محمول بلطف قدرته، محفوظ بإرادته ومقهور فى قبضته .

وإذا كان الله له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش: قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضي الله عنهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة، لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبنى بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته.

وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة فى نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه: ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التى لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم، ونزولهم واستواؤهم.

وإذا كان نعيم الجنة وكل ما ذكر فيها من أصناف المطاعم والملابس والمناكح والمساكن.. وغير ذلك لا يتفق مع شيء مما في الدنيا، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء»، فإن السلف والأئمة وأتباعهم: آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر، مع علمهم بالمباينة التى بين ما في الدنيا وبين ما في

الآخرة، وإن مباينة الله لخلقه أعظم.

ومثاله: الروح أيضًا فإنها موجودة وحية، وعالمة وقادرة وسميعة وبصيرة، وتصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها، لأنهم لم يشاهدوا لها نظيراً، والشيء إنما تدرك حقيقته بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره. فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات، فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته، وأهل العقول هم أعجز عن أن يحدوه أويكيفوه منهم عن أن يحدوا الروح أو يكيفوها.

* * *

المعيــة

المعية لغة المقارنة والمصاحبة

ودليل ثبوت المعية لله قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [1] .

وتنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة: **فالعامة:** هي الشاملة لجميع الخلق كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[1] .

مقتضى المعية هنا الاحاطة بالخلق علما وقدرة وسلطانا وتدبيرا.

والخاصة: هي التي تختص بالرسل وأتباعهم كقوله تعالى:

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[2]

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [3]

وهذه المعية تقتضى مع الاحاطة: النصر والتأييد.

والجمع بين المعيـة والعلو من وجهين: **أولا:** أنه لا منافـاة بينهمـا في الواقع فقد يجتمعان في شيء واحد، ولذلك تقول: مازلنا نسير والقمر معنا مع أنه في السماء.

الثاني: أنه لو فرض أن بينهما منافاة في حق المخلوق لم يلزم أن يكون بينهما منافاة في حق الخالق، لأنه ليس كمثله شيء، وهو بكل شيء محيط. فليس معنى قوله «وهو معكم» أنه مختلط بخلقه، فإن هذا لا توجبه اللغة، بل هو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

ولا يصح تفسير معية الله بكونه معنا بذاته في المكان، أولا: لأنه مستحيل على الله حيث ينافي علوه، وعلوه من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها.

---

(١) سورة الحديد : ٤ . (٢) سورة التوبة : ٤٠ .

(٣) سورة النحل : ١٢٨ .

ثانيا: أنه خلاف ما فسرها به السلف.

ثالثا: أنه يلزم على هذا التفسير لوازم باطلة.

(القرب) الدليل على قرب الله تعالى قوله سبحانه :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنما تدعون سميعا قريبًا»[2].

وهو قرب حقيقي يليق بالله تعالى ولا ينافي علوه، لأنه تعالى بكل شيء محيط، ولا يقاس بخلقه، لأنه ليس كمثله شيء. وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو علي في دنوه، قريب في علوه.

فإذا قال الله تعالى أنه استوى على العرش، وأنه معنا، فكلاهما حق، وهو على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة.

كما عُلم أن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، ويدنو عشية عرفة إلى الحجاج، وهذه الصفات يجب أن تثبت بلا تعطيل ولا تكييف، فمعنى الدنو والنزول في اللغة معروف، لكن كنهه لا نستطيع إدراكه، وذلك أن الله يدنو من عباده ويبقى عاليا بذاته على عرشه وهذا لا يستلزم بحال تفريغ مكان وشغل آخر كما يظن بعض الزنادقة. خلافا لأهل السنة والجماعة إذ يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التي يشاء، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة. ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون، ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبر كيف ينزل، وقد علم أنه فعال لما يريد، وأنه على كل شيء قدير.

---

(١) سورة البقرة ١٨٦.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم.

وقد ثبت أن الله في السماء فهو عال على خلقه، ولا يقتضي هذا بعده عنهم، إذ هو قريب، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(١)

وهذا معنى أن الله بكل شيء محيط كما قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾(٢) وكذلك

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾(٣)

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإنما المراد: إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة لعظمته كخردلة، ومن المعلوم - ولله المثل الأعلى - أن الواحد إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عال عليها، فوقها من كل الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف، فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو فوق عرشه فوق سمواته، أو يدني إليه من يشاء من خلقه؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره.

إن ربنا سبحانه عليّ في دنوه، وكذلك قريب في علوه، فهو على عرشه مستو، ولا يستلزم هذا أنه بعيد على خلقه، بل هو قريب، يعلم سرهم وجهرهم ونجواهم ويراهم ويبصرهم، كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) سورة البروج: ٢٠.

(٣) سورة النساء: ١٢٦.

(٤) سورة المجادلة: ٧.

معنى كون الله في السماء

معناه على السماء أي فوقها، ففي بمعنى على، كما جاءت بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾(1)

أي عليها، ويجوز أن تكون في للظرفية، والسماء على هذا بمعنى العلو، فيكون المعنى أن الله فى العلو، وقد جاء السماء بمعنى العلو في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾(2)

ولا يصح أن تكون في للظرفية، إذا كان المراد بالسماء الأجرام المحسوسة، لأن ذلك يوهم أن السماء تحيط بالله، وهذا معنى باطل.

لأن الله أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

وهل نظن أن ظاهر قوله ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾

أن السماء تظله أو تقله؟ كلا، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان.

فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض، وهو يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره.

فإذا قال الله تعالى:

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾(3)

من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله فى داخل السموات فهو جاهل ضال بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر فى السماء يقتضي ذلك، فإن حرف (فى) متعلق بما قبله وبما بعده، فهو بحسب المضاف إليه.

---

(1) سورة الأنعام، ١١ وغيرها. (2) سورة الرعد: ١٧.

(3) سورة الملك: ١٦

ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان، وكون الجسم في الحيز، وكون العرض في الجسم، وكون الوجه في المرآة، وكون الكلام في الورق، فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصة يتميز بها عن غيره، وإن كان حرف (في) مستعملا في ذلك كله.

فلو قال قائل: العرش في السماء أو في الأرض؟ لقيل في السماء، ولو قيل: الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: الجنة في السماء، ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السموات، بل ولا الجنة.

فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة (أفضلها) وسقفها عرش الرحمن»[1] فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك، مع أن الجنة في السماء يراد به العلو، سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾[3] ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم من قوله: «أنه في السماء: أنه في العلو: وأنه فوق كل شيء» وكذلك الجارية لما قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، إنما أرادت العلو، مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل: العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله كما لو قيل: العرش في السماء، فإنه لا يقتضى أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك، كان المراد أنه عليها كما قال:

---

(١) رواه البخاري والترمذي.
(٢) سورة الحج : ١٥ .
(٣) سورة الفرقان : ٤٨ .

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[1] وكما قال: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[2] وكما قال: ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[3] ويقال: فلان في الجبل وفى السطح، وإن كان على أعلى شيء فيه.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى فوق سمواته على عرشه، كما روى الحاكم عن الأوزاعي رحمه الله قال: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله عز وجل فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته» وعن ابن جريج رحمه الله قال: «كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الخلق» وعن مسروق رحمه الله تعالى أنه كان إذا حدث عن عائشة رضي الله عنها يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله المبرأة من فوق سبع سموات،وعن أبي يزيد المدني قال: لَقِيَتْ عمر امرأة يقال لها «خولة بنت ثعلبة»، فقال هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات.

وفي لفظ أن عمر قال لمن سأله عن أمرها، ويلك أتدري من هذه؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة التي أنزل الله فيها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[4]

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه قال: قال الله عز وجل في التوراة: «أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي أدبر أمور عبادي، ولا يخفى على شيء في السماء ولا في الأرض»[5].

وقد روى الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله تعالى فوق العرش، وهو

---

(١) سورة طه : ٧١ . (٢) سورة النحل : ٣٦ .
(٣) سورة التوبة : ٢ . (٤) سورة المجادلة : ١ .
(٥) رواه الذهبي في مختصر العلو، ورواته ثقات .

يعلم ما أنتم عليه»[١] .

ومن ذلك ما قاله «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه:

شهدت بأن الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسومينا

وقال أبو حنيفة: إن الله عز وجل في السماء دون الأرض، فقال له رجل: أرأيت قول الله عز وجل، ﴿ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [٢] قال أبو حنيفة: كما تكتب إلى الرجل: إنى معك وأنت غائب عنه .

وقال مالك: «الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء».

وقال الشافعي: «القول فى السنة التي أنا عليها ، ورأيت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: إقرار شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه، فى سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء، ... وذكر الاعتقاد»[٣].

وقال أحمد بن حنبل: «الله فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه. وقدرته وعلمه في كل مكان، علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة»[٤]. أ.هـ [٥] .

* * *

---

(١) معارج القبول ، واسناده حسن .
(٢) سورة المجادلة : ٧ .
(٣) مختصر العلو للذهبى .
(٤) معارج القبول للحافظ الحكمى .
(٥) انظر بتوسع: شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية الرسالة التدمرية لابن تيمية شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز القواعد المثلى فى صفات الله واسمائه الحسنى لابن عثيمين مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم هذه دعوتنا لفضيلة الشيخ عبد اللطيف المشتهرى .

الخـاتمة

وبعد فالحمد لله رب العالمين، أولا وآخرا نحمده سبحانه وتعالى على توفيقه لنا فى كتـابة هذه السطور، وتلك الورقـات التى سجلناها فى عـقيـدتنا الإسـلامـيـة، محاولين بها أن نبسط المعلومة لإخواننا، ومحاولين من خلالها تعريف الناس بأمور دينهم وفكرة موجزة عن ربهم عز وجل من أجل أن تكون نقطة بيضاء نبيض بها صحائفنا، وصدقة جارية من بعدنا، تبقى لنا بعد مماتنا بإذنه سبحانه وتعالى.

هذا ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم جهد المقل الضعيف فى تجميع بعض المعلومات من كتب متفرقات فى هذه الورقات تيسيراً على إخواننا الطلاب للعلم، والراغبين فى المعرفة، والحصول على أهم ما فى عـقيـدة الإيمان بالله مـيسرا ومبسطا، وقد صنفه على مقدمات ومدخل للعقيدة، ثم الحديث عن كلمة التوحيد، وتناولت قضية الإيمان بالله فى ثلاثة عناصر رئيسية، وهى: «قضية الوجود»، «وقضية التوحيد» ، «وقضية الكمال لله عز وجل».

وما أظن أنى قد وفيت هذا الكتاب حقه فقد كتبته مع إنشغالى بأمر الدعوة، ومع ضيق الوقت، وحاولت لهذا السبب إخراجه فى مدة وجيزة من الوقت، ولذلك فأنا أستغفر الله عز وجل أولا لكل قصور أو تقصير بدر منى فى الكتاب أو وقع منى أثناء الكتابة، وأطلب ثانيا من كل أخ مسلم النصيحة فى ذلك، إذا وقع الكتاب فى يديه، فالدين النصيحة.

اللهم تقبل هذا العمل منى، واجعله خالصاً لوجهك، وصوابا وفق كتابك وسنة نبيك ﷺ.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

البقرة الآية : ٢٨٦

والحمد لله أولا وآخرا والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز

٢٢ رجب ١٤١٩ هـ

١٨ نوفمبر ١٩٩٨م

مراجع الكتاب

١ القرآن الكريم

٢ كتب السنة الصحيحة

٣ الله، للعقاد .... ط. دار المعارف

٤ الله يتجلى فى عصر العلم، نخبة من الأمريكان .... ط. دار الاتحاد العربى

٥ الاسلام، سعيد حوى .... ط. مكتبة وهبة

٦ الإيمان، ابن تيمية .... ط. مكتبة أنس بن مالك

٧ الإيمان ـ نواقضه، محمد نعيم ياسين .... ط. مكتبة السنة

٨ احياء علوم الدين، أبو حامد الغزالى .... ط. مكتبة زهران

٩ اتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء

محمد صديق الغمارى .... ط. دار مرجان للطباعة

١٠ بيان للناس من الأزهر الشريف، مجموعة من العلماء ط. مطبعة الأزهر

١١ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير .... ط. مكتبة التراث الإسلامى

١٢ تحقيق كلمة الإخلاص، لابن رجب الحنبلى .... ط. دار الفتح

١٣ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى .... ط. دار احياء التراث العربى

١٤ حقيقة التوحيد، د. يوسف القرضاوى .... ط. مكتبة وهبة

١٥ الحد الفاصل بين الإيمان والكفر .... ط. دار الاعتصام

١٦ دعاة لا قضاة، حسن الهضيبى .... ط. دار الطباعة والنشر الإسلامية

١٧ رسالة الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد سالم ط. دار طيبة للنشر والتوزيع

١٨ رسالة العبودية، لابن تيمية .... ط. المكتبة السلفية

١٩ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للألبانى .... ط. المكتب الاسلامى

٢٠ شبهات وردود حول العقيدة الربانية

عبد الله ناصح علوان .... ط. دار السلام

٢١ شبهات التصوف، عمر بن عبد العزيز .... بدون ذكر الطبعة

مراجع الكتاب

٢٢ شبهات التكفير، عمر بن عبد العزيز .... بدون ذكر الطبعة

٢٣ الشفاعة، لأبي الوفاء درويش .... ط. المكتبة السلفية

٢٤ شرح العقيدة الطحاوية، للإمام الطحاوى .... ط. مكتبة الدعوة الإسلامية

٢٥ الصلاة وحكم تاركها لابن القيم .... ط. المطبعة السلفية

٢٦ صحيح مسلم بشرح النووى، للإمام النووى .... ط. المطبعة المصرية ومكتبتها

٢٧ ظاهرة الغلو فى التكفير، د. يوسف القرضاوى .... ط. دار الاعتصام

٢٨ عقيدة المؤمن، لأبى بكر الجزائرى .... ط. مكتبة الكليات الأزهرية

٢٩ عقيدة المسلم، الشيخ محمد الغزالى .... ط. دار الكتب الحديثة

٣٠ العلم يدعو للإيمان، لكريس موريسون .... ط. مكتبة النهضة المصرية

٣١ فتح البارى، شرح صحيح البخارى
لابن حجر العسقلانى .... ط. مكتبة الكليات الأزهرية

٣٢ فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد
عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .... ط. مكتبة الرياض الحديثة

٣٣ فى ظلال العقيدة، مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا ط. بدون ذكر الطبعة

٣٤ الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل، ابن حزم .... ط. مكتبة السلام العالمية

٣٥ قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، لابن تيمية .... ط. المطبعة السلفية

٣٦ الكشاف، للزمخشرى .... ط. مطبعة الحلبى

٣٧ اللؤلؤ والمرجان، محمد فؤاد عبد الباقى .... ط. الريان للتراث

٣٨ لسان العرب، لابن منظور .... ط. دار المعارف

٣٩ للكون إله، عبد العزيز كامل الشهابى .... ط. دار الاعتصام

٤٠ مجموعة التوحيد، لابن تيمية وابن عبد الوهاب .... ط. دار الفكر

٤١ مجموعة الفتاوى، لابن تيمية .... ط. مكتبة الإيمان

٤٢ مدارج السالكين، لابن القيم .... ط. دار التراث العربى

٤٣ وجود الله تعالى، د. يوسف القرضاوى .... ط. مكتبة وهبة

الفهرس العام